راكب إلى فرانكفورت

أجاثا كريستي

للتعرف على فروعنا في
المملكة العربية السعودية - مصر - الكويت - الإمارات العربية المتحدة
ترجو زيارة موقعنا على الإنترنت: www.jarirbookstore.com
للمزيد من المعلومات ترجى مراسلتنا على: jbpublications@jarirbookstore.com

إخلاء مسؤولية
[illegible]
لم تعد تتحمل أي مسؤولية أيضاً، أو عدم قيام [illegible] أو الناشر [illegible] تحمل أي
مسؤولية تتعلق بأي مسائل أو عواقب ناتجة بشكل كلي أو جزئي بسبب أو خاصة أو خارجة أو خرقة أو أخرى
كما أننا نخلي مسؤوليتنا بصفة خاصة عن أي ضمانات حول ملاءمة الكتاب لغرض
أو حالات الغرض معين

الطبعة الأولى ٢٠١٠
حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

AGATHA CHRISTIE® POIROT® 2010 © [illegible]/Agatha Christie Limited (a Chr... rton company).
All rights reserved.

Passenger to Frankfurt was first published in 1970.

No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system.

المملكة العربية السعودية ص.ب. ٣٩٦٤ الرياض ١١٤٨١ - فاكس ٤٦٥٣٣٣٣ - هاتف ٤٦٥٣٣٣٣

Agatha Christie™

PASSENGER TO FRANKFURT

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

نبذة عن المؤلفة

تُعرف أجاثا كريستى فى كل أنحاء العالم باسم "ملكة الغموض"، ولقد حققت مبيعات كتبها ما يربو على مليار نسخة باللغة الإنجليزية إضافة إلى مليار نسخة أخرى ترجمت إلى مائة لغة أجنبية، وهى تُعد أكثر كاتبة نُشرت لها كتب على مر العصور على مستوى كل اللغات ، ولم يفُقها فى المبيعات إلا كتب شكسبير، وقد قامت بتأليف ثمانين كتابًا، ما بين روايات ومجموعات من القصص القصيرة فى الجريمة، كما قامت بتأليف تسع عشرة مسرحية، وست روايات تحت اسم مارى ويستماكوت .

ولقد كتبت أجاثا كريستى روايتها الأولى "السر الغامض فى ستايلز" قرب نهاية الحرب العالمية الأولى، والتى كانت تعمل خلالها فى الجيش ممرضة . وقد قامت فى هذه الرواية بابتكار شخصية هيركيول بوارو، ذلك المحقق البلجيكى ضئيل الجسم الذى صار أشهر محقق فى روايات الجرائم بعد شيرلوك هولمز، وقد نشرت الرواية بواسطة دار نشر Bodley Head فى عام 1920.

وفى عام 1926، وبعد أن اعتادت تأليف رواية واحدة كل عام، قامت أجاثا كريستى بتأليف روايتها العظيمة "من الذى قتل السيد روجر أكرويد؟"، تلك الرواية التى كانت أول رواية تنشرها لها دار النشر "Collins" والتى أسست علاقة ربطت بين الكاتبة والناشر دامت لخمسين عامًا ونتج عنها ما يزيد على سبعين رواية ، كما كانت رواية "من الذى قتل السيد روجر أكرويد؟" هى أولى رواياتها التى يتم تمثيلها مسرحيًّا - تحت عنوان " Alibi" – واستمر عرضها بنجاح على مسرح "ويست إند" فى "لندن" لمدة طويلة، وقد تم افتتاح مسرحية "مصيدة الفئران" – أشهر مسرحياتها على الإطلاق – فى عام 1952، وهى المسرحية المعروفة بكونها صاحبة أطول فترة عرض فى التاريخ .

وقد منحت أجاثا كريستى لقب "فارسة صاحبة مقام رفيع" فى عام 1971 ، وتوفيت فى عام 1976 . ومنذ ذلك الحين ظهرت عدة مؤلفات لها منها تلك الرواية التى حققت أعلى المبيعات "*Sleeping Murder*" وظهرت لاحقًا فى نفس عام وفاتها. بعد ذلك نُشِرَت السيرة الذاتية لها ، ثم مجموعة القصص القصيرة "*Miss Marples Final Cases*" و "*Problem At Pollensa Boy*" و "*While The Light Lasts*""، وفى عام 1998 تم تحويل أول مسرحية لها وهى "*Black Coffee*" إلى رواية بواسطة مؤلف آخر هو "تشارلز أوزبورن" .

إهداء

إلى مارجريت جيلوم

“إن التحلي بالقدرات القيادية إلى جانب طاقة إبداعية عظيمة يمكن أن يصبح مزيجًا شيطانيًّا...”.

جان سمتس

مقدمة

المؤلفة تتحدث:

أول سؤال يتعرض له أى مؤلف، سواء بشكل شخصى، أو من خلال البريد الذى يتلقاه من القراء هو: ‘‘من أين تأتى بـأفكارك العظيمة تلك؟’’.

هناك إغراء كبير بأن نجيب عن ذلك قائلين: ‘‘إننى دائمًا ما أذهب إلى متاجر هارودز’’، أو ‘‘إننى غالبًا ما أشتريها من متجر آرمى آند نافى’’، أو قد نقول فجأة: ‘‘جرب الذهاب إلى متاجر ماركس آند سبنسر’’.

ويبدو أن الرأى العام فى جميع أنحاء العالم قد اتفق على وجود مصدر سحرى للأفكار اكتشف المؤلفون طريقة للاستفادة منه.

ويمكن للمرء أن يرجع هذا السؤال إلى عصر الملكة إليزابيث، بقول شكسبير فى أحد أشعاره:

أخبرنى، أين ولد الخيال،

فى القلب أم فى العقل؟

كيف ولد، وكيف ازدهر؟

أجب، أجب.

قد تقول فقط بكل حزم: ‘‘من رأسى’’.

وهذا، بالطبع، لا يساعد أى شخص. فإذا أحببت نظرة سائلك فقد تلين وتجيب عنه بشكل أكثر إيضاحًا.

‘‘إذا بدت إحدى الأفكار جذابة، وشعرت بأن بمقدورك عمل شىء بها، فقم بتقليبها فى رأسك والعب معها بعض الحيل وطورها فى عقلك وانسجها فى خيالك وابدأ فى وضع قالب لها تدريجيًّا فى مخيلتك. وبعد ذلك عليك البدء فى كتابتها بكل تأكيد. ولن يكون ذلك شيئًا ممتعًا ـــ بل سيصبح عملاً شاقًا. وعوضًا عن ذلك، يمكنك تنحية الفكرة جانبًا بكل عناية ـــ فى الذاكرة ـــ فربما تستعملها خلال عام أو عامين’’.

وهناك سؤال آخر ـــ أو عبارة أخرى ـ قد يكون:

‘‘أعتقد أنك اقتبست أغلب شخصياتك من الحياة الواقعية؟’’.

ويكون الرد على هذا الرأى القاسى بالإنكار فى سخط.

‘‘لا، لم أقتبسها من الواقع. وإنما ابتكرتها من وحى خيالى، فهم شخصياتى ـــ يفعلون ما أريد فعله، ويكونون ما أريدهم أن يكونوه ـــ وقد أتوا للحياة من أجلى. ولهم أفكارهم الخاصة فى بعض الأوقات لكن أنا من جعلهم يبدون واقعيين’’.

لذلك فقد أنتج المؤلف الأفكار والشخصيات ـــ لكن هنا تأتى الضرورة الثالثة ـــ وهى مسرح الأحداث. فالأفكار والشخصيات تأتى من داخل المصدر وهو المؤلف، أما مسرح الأحداث، فهو فى الخارج ـــ ويجب أن يكون من الخارج ـــ فى البيئة المحيطة والعالم الخارجى. فأنت لا تبتكر مسرح الأحداث فهو موجود وحقيقى.

ربما تكون فى رحلة بالقارب فى نهر النيل ـــ وأنت تتذكر الرحلة بالكامل بأدق التفاصيل ـــ وقد يكون ذلك هو الخلفية الروائية التى ترغبها لقصة محددة. أو لعلك كنت تتناول وجبة فى مطعم تشيلسى، ودارت مشاجرة، حيث قامت فتاة بشد فتاة أخرى من شعرها بكل قوة. وقد ترى ذلك بمثابة بداية ممتازة للرواية التى تود كتابتها. وربما تكون مسافرًا فى رحلة على متن قطار الشرق السريع، يالها من متعة أن تتخذ من ذلك المشهد خلفية لفكرة تتأملها. أو قد تذهب لشرب الشاى مع صديقك فى منزله وبوصولك تجد أخاه يغلق كتابًا يقرؤه ويلقيه جانبًا قائلاً: "ليس سيئًا، لكن لماذا لم يسألوا إيفانز؟".

وبعد ذلك تقرر مباشرة البدء فى كتابة رواية تحمل هذا العنوان، لماذا لم يسألوا إيفانز؟

وأنت لم تعرف من هو إيفانز حتى الآن، ولكن لا تقلق فإيفانز سيأتى فى سياق الرواية ـــ المهم أنك وجدت العنوان.

لذلك ـــ من ناحية ما ـــ فأنت لا تخترع الخلفية التى ستضع فيها شخصياتك. فالخلفية بالخارج، حولك ومحيطة بك، فى العالم الموجود ـــ وكل ما عليك هو أن تمد ذراعك من حولك وتختار الخلفية التى تناسبك. محطة قطار، أو مستشفى، أو أحد فنادق لندن، أو أحد شواطئ البحر الكاريبى، أو قرية ريفية، أو حفلة شبه رسميه، أو مدرسة فتيات.

لكنَّ هناك شيئًا واحدًا يجب أن يكون موجودًا ويتم تطبيقه وهو وجوب وجود هذه الأشياء ـــ الأفكار والشخصيات والخلفيات التى يعيش فيها الأفراد ـــ فى العالم الفعلى. وإذا لم يكن الأمر كذلك فكيف ستحصل على معلوماتك الكاملة بدون سمعك وبصرك؟ والإجابة بسيطة بشكل مرعب.

فتلك الإجابة هى ما تقدمه الصحافة كل يوم، فى شكل جريدتك الصباحية تحت عناوين الأخبار الرئيسية. اجمعها من الصفحة الأمامية، واسأل ما الذى يحدث فى العالم اليوم؟ ما الذى يفعله كل شخص ويقوله ويفكر فيه؟ انظر إلى حال إنجلترا فى عام 1970.

لمدة شهر، انظر إلى الصفحة الأولى فى جريدتك الصباحية ودوِّن ملاحظاتك عليها وفكر فيها وصنفها.

كل يوم هناك جرائم قتل.

مقتل فتاة خنقًا.

هوجمت سيدة عجوز وسرقت مدخراتها الضئيلة.

شباب أو أطفال يهاجمون أو يتعرضون للهجوم.

تحطيم مبانٍ وأكشاك تليفونات وبعثرة محتوياتها.

تهريب مخدرات.

السرقة والاغتصاب.

أطفال مفقودون والعثور على جثث أطفال مقتولين فى أماكن ليست بعيدة عن منازلهم.

هل يمكن أن تكون هذه إنجلترا؟ هل إنجلترا كذلك حقًّا؟ يشعر الفرد بأنها ليست كذلك حتى الآن، لكن قد تكون كذلك.

فقد بدأ الخوف فى الظهور ـــ الخوف مما قد يحدث، ليس بسبب الأشياء التى تحدث فى الواقع بل بسبب الأحداث الممكنة التى تحرك تلك الأشياء. وبعض هذه الأشياء معروف والبعض الآخر غير معروف لكننا نشعر به، وليس فى بلدنا فقط. فهناك مقالات وفقرات أصغر فى الصفحات الأخرى تقدم لنا أخبارًا من أوروبا، وآسيا، وأمريكا ـــ أخبارًا عالمية النطاق.

اختطاف طائرات.

اختطاف الأشخاص.

العنف.

أعمال الشغب.

الكراهية.

الفوضى.. وكل ذلك يزداد.

كل ذلك يؤدى إلى عشق الدمار، والفرح والسعادة بالقسوة.

ما الذى يعنيه كل ذلك؟ هناك عبارة أدبية من عصر الملكة إليزابيث تتحدث عن الحياة يأتى صداها من الماضى:

... إنها حكاية

يحكيها شخص أحمق، مليئة بالصخب والحقد.

ليس لها أى مغزى.

والفرد يعلم ـــ من معرفته الشخصية ـــ مدى الطيبة الموجودة فى عالمنا: أعمال الإحسان، وطيبة القلب، وتعاطفنا مع بعضنا البعض وطيبة الجار مع الجار، والمساعدات التى يقدمها الشباب والشابات للغير فى المجتمع.

إذن لماذا يكون هذا المناخ الرائع من الأخبار اليومية ـــ من الأحداث ـــ حقائق فعلية؟

فعند كتابتك قصة ـــ فى هذه السنة 1970 ـــ عليك أن تحدد أطر خلفيتك التى ستضع فيها شخصياتك وأحداثك، فإذا كانت الخلفية خيالية، يجب أن تتوافق القصة معها، فتكون أيضًا خيالية ـــ قصة تتجاوز الواقع. ويجب أن تشتمل الخلفية على الحقائق الرائعة أو الخيالية الموجودة فى حياتنا اليومية.

هل يمكن للفرد أن يتخيل سببًا خياليًّا لقصة؟ حملة سرية من أجل السلطة؟ هل يمكن لرغبة مجنونة فى التدمير أن تصنع عالمًا جديدًا؟ هل يمكن للفرد أن يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام ويحلم بالإنقاذ والخلاص باستعمال طرق خيالية ويبدو تنفيذها أمرًا فى عداد المستحيلات؟

لا يوجد مستحيل، فهذا ما علمنا العلم إياه.

وهذه القصة خيال فى جوهرها ولا شىء أكثر من ذلك.

لكن أغلب الأشياء التى تحدث فى القصة تحدث بالفعل، أو يبدو أنها ستحدث فى عالم اليوم.

إنها ليست قصة مستحيلة ـــ بل مجرد قصة خيالية.

الكتاب الأول

رحلة لم تكتمل

الفصل الأول

راكب إلى فرانكفورت

1

"رجاء ربط أحزمة الأمان". تباطأ ركاب الطائرة من مختلف الجنسيات فى تلبية هذا الطلب؛ فقد كان يسود بينهم شعور عام بأنهم لم يصلوا بعد إلى جنيف. وتأوَّه المسافرون الذين غلبهم النعاس وتثاءبوا. أما هؤلاء الذين كانوا غارقين فى النوم فقد اضطرت إحدى المضيفات الحازمات لإيقاظهم بكل لطف.

"أحزمة الأمان الخاصة بكم، من فضلكم".

هكذا جاء الصوت الرسمى الجاف عبر مكبر الصوت. وشرح الصوت نفسه باللغة الألمانية والفرنسية والإنجليزية أن الرحلة ستتعرض بعد لحظات قصيرة لموجة من الطقس السيئ. فغر السير ستافورد ناى فاه عن آخره، وتثاءب وجلس منتصبًا فى مقعده؛ فقد كان يحلم حلمًا سعيدًا بالصيد فى أحد الأنهار الإنجليزية.

كان السير ستافورد ناى رجلاً متوسط الطول فى الخامسة والأربعين من العمر، وكان أملس الوجه حليق الذقن، ويبدو غريبًا فى ملابسه. ولأنه كان ينتمى لعائلة عريقة؛ فقد كان يشعر براحة تامة وهو منغمس فى تلك النزوات الخاصة بملابسه؛ فقد كان يشعر بالسعادة الماكرة عندما يرى أحد زملائه المتأنقين يفتح ويغمض عينيه ذهولاً عند رؤيته لملابسه. كما كان به شىء يجعلك تشعر بأنه أحد السادة المتأنقين من القرن الثامن عشر؛ وذلك لأنه كان يحب أن يكون مميزًا وملحوظًا من الجميع.

وكان تكلفه الخاص أثناء سفره يتمثل فى ارتداء نوع من العباءات ذات لون أرجوانى داكن اشتراها من كورسيكا، بطانتها قرمزية وفى ظهرها شىء كالقلنسوة يمكنه وضعها على رأسه كلما رغب فى ذلك؛ لكى يتجنَّب الرياح العاتية.

وقد كان السير ستافورد ناى مخيبًا للآمال فى الدوائر الدبلوماسية؛ فقد كان فى بداية شبابه واعدًا يشى بتحقيق إنجازات عظيمة، لكنه أخفق فى ذلك. وقد ابتلى بروح فكاهة غريبة وشيطانية تفسد عليه أكثر المواقف جدِّية وخطورة. وعندما زاد الأمر على حدِّه وجد أنه دائمًا ما كان يؤدى خبثه اللطيف إلى إيذائه هو نفسه. فقد كان شخصية معروفة جيدًا فى الحياة العامة دون أن يصل إلى السمو ورفعة المقام. كان الجميع يشعرون بأن ستافورد ناى رغم ذكائه الشديد لم يكن ـــ ولن يكون ـــ رجلاً آمنًا أبدًا؛ ففى حياة السياسة والعلاقات الخارجية المعقّدة، كان الأمان يتحقق بالذكاء خصوصًا إذا كان الفرد سيصل إلى منزلة فى السفارة. وقد تمَّ استبعاد السير ستافورد ناى ووضع على الرف؛ على الرغم من أنَّه ـــ من وقت لآخر ـ كانت توكل إليه تلك المهام التى تحتاج إلى فن التآمر والخديعة، إلا أنها لم تكن على قدر كبير من الأهمية ولا ذات طبيعة عامة. وأحيانًا، يشير إليه الصحفيون على أنه الحصان الأسود فى الدبلوماسية.

ولم يكن أحد يعرف ما إذا كان السير ستافورد يشعر بخيبة الأمل جرَّاء سيرته المهنية. ربما لم يكن كذلك؛ ربما كان رجلاً يتسم بالتفاهة فى بعض طباعه، لكنه كان أيضًا رجلاً يستمتع كثيرًا باستعمال ميوله الخاصة؛ ليسبب الإزعاج للآخرين.

وقد كان عائدًا الآن من لجنة تحقيق فى الملايو، وقد وجد الأمر ينقصه المتعة والإثارة. ففى رأيه أنَّ زملاءه قد حددوا مسبقًا الأشياء التى سيتوصَّلون إليها. فقد رأوا وسمعوا ومع ذلك لم تتأثر آراؤهم المسبقة بذلك. وقد أدرج السير ستافورد بعض الأمور فى العمل، وهى أشياء أكثر من أى إدانات منطوقة وكان يرى أنَّ تلك الأمور قد بثت الروح فيما يجرى. وكان يأمل أن تكون هناك احتمالات أخرى لعملٍ نفس الشىء. وقد كان زملاؤه من أعضاء اللجنة متعقلين وجديرين بالثقة ـــ ومملِّين للغاية. فحتى السيدة الشهيرة ناثانيال إيدج المعروفة بنشاطها الشديد ـ وهى العضوة الوحيدة فى اللجنة ـ لم تبتسم ولو ابتسامة واحدة عندما توصلوا إلى الحقائق الواضحة. فقد رأت وسمعت وتصرَّفت بشكل آمن.

وقد قابلها السير ستافورد من قبل فى مهمة لحل مشكلة فى إحدى عواصم البلقان، وهناك لم يتمكن السير ستافورد نای من منع نفسه من تقديم القليل من الاقتراحات الممتعة. وفى الجريدة الدورية الباحثة عن الفضائح (إينسايد نيوز) نُشِرَ تلميح بأنَّ وجود السير ستافورد نای فى تلك العاصمة البلقانية مرتبطٌ بشكل شديد بمشاكل البلقان، وأنَّ مهمته تلك كانت مهمَّة سرِّية بالغة الدقة، وأرسل أحد من يمكن تسميتهم بصديق للسير ستافورد نسخة من تلك الجريدة، ووضع علامة على الفقرة التى تتحدث عنه. ومع ذلك لم يفاجأ السير ستافورد بل قرأها بابتسامة سعيدة. وقد استمتع كثيرًا بأن يرى أنَّ الصحفيين كانوا بعيدين عن الحقيقة فى هذه النقطة بصورة مثيرة للسخرية؛ فوجوده فى صوفياجراد كان بسبب اهتمامه البرىء بالأزهار البرية النادرة ونتيجة لإلحاح صديقة تكبره فى السن وهى الليدى لوسى كليجهورن، التى كانت لا تكل من سعيها للحصول على هذا النوع من الأزهار البرية النادرة؛ فقد تتسلق أى منحدر صخرى شاهق أو تقفز بابتهاج فى أحد المستنقعات عند رؤيتها بعض الأزهار، وكان طول الاسم اللاتينى لهذا النوع من الأزهار متعارضًا مع حجمها.

وقامت مجموعة من المتحمسين بهذا البحث النباتى على منحدرات الجبال لما يقارب عشرة حتى تبين للسير ستافورد أنَّ هذا المقال لم يكن صحيحًا، وقد كان متعبًا قليلاً ـــ قليلاً فقط ـــ من الأزهار البرية، وكان مغرمًا بلوسى العزيزة وقدرتها على تسلُّق الجبال بسهولة وبسرعة كبيرة تسبقه فيها

رغم سنوات عمرها الستين. وكان يتضايق من هذا الأمر فى بعض الأوقات. وكان عادة ما يرى أمامه مباشرة لوسى وبنطالها الجينز الأزرق رغم جسمها النحيل.

وفى الطائرة تحدَّث الصوت المعدنى الجاف الصادر من مكبِّر الصوت مرة أخرى. وأخبر هذا الصوت المسافرين بأنه بسبب الضباب الكثيف الموجود فوق مدينة جنيف، ستحوِّل الطائرة مسارها إلى مطار فرانكفورت الدولى ثم ستقلهم بعد ذلك إلى لندن. وستتم إعادة المسافرين إلى جنيف من فرانكفورت بأسرع وقت ممكن. ولم يمثل ذلك أى فارق للسير ستافورد نای. فإذا كان هناك ضباب فى لندن

فهو يرى أن الطائرة ستحوِّل طريقها إلى مطار بريست ويك. وكان يأمل ألا يحدث ذلك؛ فقد ذهب إلى بريست ويك مرة أو مرتين. وقال لنفسه إن كلًّا من الحياة والرحلات الجوية أصبحت مملة بشكل شديد، إلا إذا ـــ ماذا؟

2

كان الجو دافئًا فى ردهة انتظار مسافرى الترانزيت فى مطار فرانكفورت الدولى، فقام السير ستافورد ناى بإنزال القلنسوة سامحًا للبطانة القرمزية أن تتدلى حول كتفيه. وكان يشرب زجاجة من العصير ويستمع بنصف انتباه إلى الإعلانات المختلفة فى المطار.

"الرحلة رقم 4387 المتوجهة إلى موسكو. الرحلة 2381 المتوجهة إلى مصر وكالاكتا".

رحلات من وإلى جميع أنحاء الكرة الأرضية. يا له من أمر كان يجب أن يكون رومانسيًا. لكن كان هناك شيء ما بخصوص الجو السائد فى ردهة المسافرين فى المطار جمَّد كل الخيال والرومانسية. فقد كانت مليئة عن آخرها بالأشخاص، والأشياء التى تباع، والمقاعد البلاستيكية الملونة المتشابهة التى كانت ممتلئة عن آخرها بالبشر والأطفال الباكين. وحاول أن يتذكر من قال هذه العبارة:

"أتمنَّى لو أحببت السلالة البشرية؛

أتمنَّى لو أحببت وجهها السخيف".

ربما يكون تشيسترتون؟ كان هذا أمرًا صحيحًا بشكل لا يقبل الشك. ضع عددًا كافيًا من الأشخاص معًا، وسيبدون متشابهين بشكل مزعج وهو الأمر الذى يمكن للفرد تحمُّله بصعوبة. وقال السير ستافورد محدثًا نفسه: "الآن هناك وجه مشوق يا له من فارق ذلك الذى سيحدثه الأمر"، ونظر باستخفاف إلى امرأتين شابتين، متأنقتين على نحو رائع وترتديان الزى الموحد الخاص

بدولتهما ـــ افترض السير أنها إنجلترا ـــ ترتديان تنورتين قصيرتين جدًّا، وامرأة شابة أخرى متأنِّقة أفضل من الأخريين ـــ فى الواقع هى أجمل منهما ـــ كانت ترتدى ما اعتقد أنه تنُّورة واسعة كالبنطال. وهو الزى الذى كان يساير الموضة بصورة أكبر.

لم يكن مهتمًّا كثيرًا بالفتيات حسناوات المظهر اللواتى يبدون مثل كل الفتيات الأخريات من حسناوات المظهر. فهو يحب المرأة المختلفة. وجلست فتاة بجواره على المقعد المصنوع من الجلد الصناعى المغطى بالبلاستيك. وجذب وجهها انتباهه منذ اللحظة الأولى؛ ليس لأنه كان مختلفًا، بل كان يعتقد أنه رأى هذا الوجه من قبل. لا يمكنه تذكُّر أين أو متى رأى وجهها من قبل، لكنه كان مألوفًا له بكل تأكيد. وقال مفكرًا ربما تبلغ من العمر خمسة أو ستة وعشرين عامًا. وكان أنفها رقيقًا معقوفًا وشعرها الأسمر الثقيل منسدلاً على كتفيها. وكانت أمامها مجلة لكنها لا تعيرها أى اهتمام؛ فقد كانت تنظر إليه بما يشبه اللهفة. وتحدَّثت فجأة بصوت منخفض وعميق كصوت الرجال ـ بلهجة أجنبية ضعيفة ـ وقالت:

‘‘أيمكننى الحديث معك؟’’.

تفحَّصها لدقيقة قبل أن يرد عليها. لا ـــ ليس كما قد يفكر البعض ـــ فلم يكن هذا تأملاً فيها بل كان شيئًا آخر.

وقال لها: ‘‘لا أرى سببًا يمنعك من ذلك. يبدو أنَّ لدينا وقتًا لنضيِّعه هنا’’.

قالت المرأة: ‘‘ضباب، ضباب فى جنيف وربما فى لندن. الضباب فى كل مكان، لا أعلم ماذا أفعل’’.

قال لها مطمئنًا: ‘‘أوه، لا تقلقى ستهبطين بطائرة فى المكان الذى تقصدينه. فهم أكفاء جدًّا هنا كما تعلمين. إلى أين أنتِ ذاهبة؟’’.

‘‘كنت ذاهبة إلى جنيف’’.

‘‘جيد، فى النهاية أتوقع أنكِ ستصلين إلى هناك’’.

‘‘علىَّ الوصول إلى هناك حالاً. إذا كان بإمكانى الوصول إلى جنيف سيكون كل شىء على ما يرام. فسأقابل شخصًا ما هناك ويمكننى أن أكون آمنة’’.

قال السير مبتسمًا ابتسامة خفيفة: ‘‘آمنة؟’’.

قالت له: ‘‘آمنة كلمة من أربعة أحرف لكنها ليست ما يهتم به الأشخاص هذه الأيام؛ فهى قد تعنى الكثير، وهى تعنى الكثير لى’’، ثم أردفت قائلة: ‘‘أتعلم، إذا لم أتمكَّن من الذهاب إلى جنيف وكان علىَّ ترك هذه الطائرة هنا أو الذهاب بتلك الطائرة إلى لندن بدون عمل الترتيبات اللازمة فسيتم قتلى’’، ونظرت إليه بحدة: ‘‘أعتقد أنك لا تصدق كل هذا’’.

‘‘يؤسفنى ذلك’’.

‘‘هذا صحيح؛ فالناس لا يصدِّقون كعادتهم’’.

‘‘من يريد قتلك؟’’.

‘‘هل يهمُّ هذا الأمر؟’’.

‘‘ليس بالنسبة لى’’.

‘‘يمكنك تصديقى إن رغبت فى ذلك. فأنا أقول الحقيقة. أنا فى حاجة إلى المساعدة للوصول إلى لندن بأمان’’.

‘‘ولماذا اخترتنى لمساعدتك؟’’.

‘‘لأننى أعتقد أنك تعلم شيئًا ما عن الموت. فأنت تعلم عن الموت وربما رأيته أمام عينيك’’.

نظر إليها بحدة ثم عاد لينظر بعيدًا عنها ثانية.

وقال لها: ‘‘أهناك أى سبب آخر؟’’.

‘‘نعم، هذا’’، ومدَّت يدها ولمست ثنايا عباءته الكبيرة، وقالت مؤكِّدة: ‘‘هذا’’.

للمرة الأولى أثارت اهتمامه.

‘‘والآن ما الذى تعنينه بذلك؟’’.

‘‘إنَّه أمر فريد ـــ مميز. ليس هذا ما يرتديه الجميع’’.

‘‘هذا صحيح. يمكنك القول إنَّ هذه العباءة من الأشياء المعتادة التى أرتديها؟’’.

‘‘إنه شىء معتاد قد يكون مفيدًا لى’’.

‘‘ما الذى تعنينه؟’’.

‘‘سأطلب منك شيئًا. ربما سترفض وربما لن ترفض؛ لأننى أعتقد أنك رجل مستعد للمخاطرة، كما أننى امرأة تقبل المخاطر’’. قال لها بابتسامة باهتة: ‘‘سأستمع إلى خطتك’’.

‘‘أريد عباءتك لأرتديها وأريد جواز سفرك وتذكرة سفرك على الطائرة. والآن سيتم الإعلان عن رحلة لندن الجوية خلال عشرين دقيقة أو شىء من هذا القبيل. وسأرتدى عباءتك وسأحصل على جواز سفرك. وسأسافر إلى لندن وسأصل بأمان’’.

‘‘تقصدين أنكِ ستمرِّين منتحلة شخصيتى؟’’.

وفتحت المرأة حقيبة يدها وأخرجت منها مرآة مربعة صغيرة.

وقالت: ‘‘انظر هنا. انظر إلىَّ ثمَّ انظر إلى وجهك’’.

وبعد ذلك رأى ما كان يداعب عقله بشكل مبهم، وهو وجه أخته باميلا التى ماتت منذ ما يقرب من عشرين عامًا؛ فقد كان هو وباميلا متشابهين جدًّا. فهذا تشابه عائلى شديد جدًّا. فقد كان لها نفس نوع الوجه الذكورى. وربما كان وجهه شبيهًا بالنساء فى مراحل عمره الأولى بالطبع. فكان لكل منهما الأنف المعقوف، وحاجب العين المائل، والابتسامة الخفيفة المائلة على أحد جانبى الفم. وقد كانت باميلا طويلة ـــ طولها خمس أقدام ـــ فى نفس طوله، ونظر إلى المرأة التى قدَّمت له المرآة.

‘‘يوجد تشابه فى الوجه بيننا، أليس هذا ما تقصدينه؟ لكن لن يخدع ذلك أى شخص يعرفنى أو يعرفك يا فتاتى العزيزة’’.

‘‘بالطبع لن يخدعهم. ألا تفهم؟ الأمر لا يتطلب ذلك. فأنا أسافر مرتدية سراويل فضفاضة وأنت تسافر بعباءته وقلنسوة موضوعة على رأسك. كل ما علىَّ فعله هو أن أقص شعرى، وأضعه بين أوراق المجلة وألقيها فى واحدة من سلال المهملات الموجودة بالقاعة. وبعد ذلك أضع قلنسوتك على وجهى، وأحمل تصريح ركوبك الطائرة، وتذكرة الطيران الخاصة بك وجواز سفرك. وطالما أنه ليس هناك من يعرفك جيدًا على متن هذه الطائرة، وأنا أعتقد أنَّك لم تتحدَّث إلى أحد من الركاب حتى الآن، فيمكننى السفر بصفتك. وسأظهر جواز سفرك إذا تطلَّب الأمر وأنا واضعة القلنسوة على رأسى، بحيث لا يظهر من وجهى إلا أنفى وعيناى وفمى.

ويمكننى الخروج بأمان عندما تصل الطائرة إلى وجهتها؛ لأنه لن يعلم أحد أننى سافرت على متنها. وسأسير بأمان وأختفى وسط زحام مدينة لندن''.

وسألها السير ستافورد بابتسامة خفيفة: ''وما الذى سأفعله؟''.

''يمكننى أن أقدم لك اقتراحًا إن كنت تتمتع بثبات الأعصاب لتنفيذه''.

قال لها: ''اقترحى، أحب دائمًا سماع الاقتراحات''.

''تخرج من هنا لتشترى مجلة أو جريدة أو هدية من قسم الهدايا. وتترك عباءتك معلَّقة هنا على المقعد. وعندما تعود ومعك ما اشتريته، ستجلس على مقعد آخر ــ لنفترض أنك ستجلس فى نهاية هذا الصف من المقاعد المقابلة لنا، ستجد هناك زجاجة أمامك وسيكون فيها شىء يجعلك تنام، وستنام فى هذا الركن الهادئ''.

''وماذا سيحدث بعد ذلك؟''.

قالت: ''سيفترض الجميع أنك ضحية سرقة؛ فقد قام شخص ما بوضع شىء ما فى مشروبك وسرق محفظتك أو أى شىء من هذا القبيل. ثم تعلن عن هويَّتك وتقول إنَّ جواز سفرك ومتعلقاتك قد تعرَّضت للسرقة. ويمكنك تأكيد هويَّتك بسهولة''.

''أتعلمين من أكون؟ أقصد أتعلمين ما اسمى؟''.

قالت: ''حتى الآن، لا أعلم، فلم أر جواز سفرك. وليست لدىَّ أية فكرة عمن تكون''.

''وتقولين إنَّه يمكننى تأكيد هويتى بسهولة''.

''أنا أحكم على الأشخاص جيدًا. فأنا أعرف من الشخص المهم ومن ليس بالمهم. وأنت شخص مهم''.

''ولِمَ علىَّ فعل كل ذلك؟''.

''ربما لتنقذ حياة إنسان''.

''أليست تلك قصة متفائلة ومفعمة بالخيال؟''.

''أوه، نعم. ومن الصعب تصديقها هل تصدِّقها؟''.

ونظر إليها وعلى ملامحه مظاهر التفكير العميق ثم قال: ''أتعلمين من تشبهين فى حديثك؟ أنتِ تشبهين جاسوسة جميلة فى إحدى الروايات المثيرة''.

''نعم، ربما أكون كذلك، لكننى لست جميلة''.

''وأنتِ لستِ بجاسوسة، أليس كذلك؟''.

''ربما يمكنك وصفى بذلك. فأنا لدىَّ معلومات محدَّدة. معلومات أريد المحافظة عليها. وسيكون عليك أن تصدقنى فى حديثى هذا، إنها معلومات لها قيمة كبيرة لدولتك''.

''ألا تعتقدين أنك تبدين سخيفة؟''.

‘‘نعم أعلم. إذا كتب ذلك فى رواية فسيبدو أنه بالغ الحماقة، لكن العديد من الأشياء السخيفة تكون حقيقية، أليس كذلك؟’’.

نظر إليها ثانية؛ فقد كانت كثيرة الشبه بباميلا، وصوتها كان مثل صوت باميلا رغم أنه بلهجة أجنبية. وما اقترحته كان سخيفًا وعبثيًّا ومستحيلاً وربما يكون خطيرًا. خطيرًا عليه. ورغم ذلك ـــ لسوء الحظ ـــ فذلك هو ما شدَّه إلى الموضوع. أن يكون لها جرأة عرض هذا الأمر عليه! وما الذى سينتج عن كل ذلك؟ بكل تأكيد سيكون من الممتع أن يعرف ذلك.

قال لها: ‘‘وما الذى سأحصل عليه مقابل هذا؟ هذا ما أرغب فى معرفته’’.

ونظرت إليه بتقدير قائلة: ‘‘الاختلاف، عمل شىء مختلف عن الأحداث اليومية. ربما يكون ذلك بمثابة الترياق المعالج للملل. ونحن ما زلنا لم نفعل شيئًا والأمر كله يرجع لك’’.

‘‘وماذا سيحدث لجواز سفرك؟ هل سيكون علىَّ شراء شعر مستعار إن كانوا يبيعونه فى ركن الهدايا؟ هل سيكون علىَّ تقمُّص شخصية أنثى؟’’.

‘‘لا، لن يتم تبادل الأدوار. فقد تمَّت سرقتك وتخديرك ومازلت كما أنت. فكِّر فى الأمر فليس هناك وقت طويل؛ فالوقت يمر سريعًا جدًّا وعلىَّ أن أتنكر فى شخصيتك’’.

قال لها: ‘‘ربحتِ، لا يجب على الفرد رفض الأشياء غير المعتادة إذا عُرضت عليه’’.

‘‘آمل أن يكون شعورك هكذا، لكن كان من حظى أن أعثر عليك’’.

وأخرج ستافورد نای جواز سفره من جيبه. ووضعه فى الجيب الخارجى للعباءة التى يرتديها. ونهض واقفًا، وتثاءب، ونظر حوله ثم نظر فى ساعته، وتمشَّى إلى الركن الذى يُعرض فيه العديد من الأشياء للبيع. ولم ينظر خلفه واشترى كتابًا وتحسَّس عرائس على شكل بعض الحيوانات الصوفية الصغيرة التى قد تمثِّل هدية مناسبة لطفل صغير. واختار دبَّ الباندا، ثم نظر إلى الردهة وعاد إلى مكان جلوسه السابق. ولم يجد العباءة ولا الفتاة ووجد زجاجة عصير نصف فارغة على المنضدة، وقال لنفسه، من هنا سأبدأ فى المخاطرة، وأمسك بالزجاجة وشربها ببطء، كان لها نفس طعم العصير المعتاد.

قال السير ستافورد: ‘‘أتساءل عما سيحدث الآن’’.

وسار إلى الركن البعيد للردهة. كانت هناك عائلة مزعجة إلى حد ما، يضحكون ويتحدثون معًا. وجلس بالقرب منهم، وتثاءب وأرخى رأسه على حافة مسند الرأس الموجود بالكرسى. وأعلن عن الرحلة الذاهبة إلى طهران. ونهض عدد كبير من المسافرين واصطفوا عند البوابة الخاصة بالرحلة. ورغم ذلك كانت الردهة نصف ممتلئة. وفتح الكتاب وتثاءب مرة أخرى. فقد كان يشعر بالنعاس الشديد بالفعل ... ويجب عليه فقط التفكير فى أفضل مكان ملائم لينام فيه. مكان يظل فيه ....

أعلنت الخطوط الجوية الأوروبية رحيل طائرتها، الرحلة رقم 309 المتجهة إلى لندن.

3

نهض عدد كبير من المسافرين المتفرقين ليستجيبوا إلى الإعلان. ومع ذلك ففى الوقت نفسه دخل عدد أكبر من المسافرين إلى ردهة الانتظار منتظرين طائرات أخرى. وتوالت التى نداءات توضح وقوع ضباب فى جنيف ومعوِّقات أخرى للسفر. وسار رجل نحيف متوسط الطول يرتدى عباءة سوداء ببطانة حمراء ظاهرة بقلنسوة موضوعة على رأس غير مهندم الشعر مثل شعر شباب هذه الأيام يأخذ مكانه فى الصف المتجه إلى الطائرة. وأظهر تذكرة الطائرة، ومر عبر البوابة رقم تسعة.

وبعد ذلك توالت الإعلانات. رحلة شركة الخطوط الجوية السويسرية إلى زيورخ. ورحلة خطوط البى.إى.إيه إلى أثينا وقبرص ـــ وإعلانات مختلفة أخرى.

‘‘على السيدة دافنى ثيودوفانوس ـ المسافرة إلى جنيف ـ الحضور إلى مكتب الطيران؛ فقد تمَّ تأجيل الطائرة المتجهة إلى جنيف بسبب الضباب. وسيسافر المسافرون مرورًا بأثينا. والطائرة الآن جاهزة للإقلاع’’.

وتبع ذلك الإعلان إعلانات أخرى خاصة بمسافرين إلى اليابان، ومصر، وجنوب أفريقيا، وخطوط جوية أخرى حول العالم. كما استحث أحدُ الإعلانات السيدَ سيدنى كوك ـ مسافر إلى جنوب أفريقيا ـ على القدوم إلى مكتب الطيران؛ لأنه توجد رسالة له هناك. وتم تكرار نداء دافنى ثيودوفانوس.

‘‘هذا هو النداء الأخير قبل رحيل الرحلة رقم 809’’.

وفى أحد أركان الردهة كانت هناك فتاة صغيرة تنظر إلى رجل يرتدى حلة سوداء يغط فى نوم عميق، وكان رأسه مرتخيًا على مسند رأس المقعد الأحمر. وكان ممسكًا فى يده بدمية دب باندا مصنوعة من الصوف.

وامتدت يد الطفلة الصغيرة إلى الباندا.

فقالت لها والدتها:

‘‘والآن، جوان، لا تلمسيها؛ فالرجل المسكين نائم’’.

‘‘إلى أين سيسافر؟’’.

قالت الأم: ‘‘ربما يكون ذاهبًا إلى أستراليا ـ أيضًا ـ مثلنا’’.’’هل لديه فتاة صغيرة مثلى؟’’.

قالت الأم: ‘‘أعتقد ذلك’’.

تنهَّدت الفتاة الصغيرة ونظرت إلى الباندا ثانية، واستمرَّ السير ستافورد ناى فى نومه. وقد كان يحلُم بأنه يحاول صيد فهد ـ حيوان خطير جدًّا ـ وقال لمرشد الرحلة المرافق له: ‘‘إنَّه حيوان خطير جدًّا، كما أسمع دائمًا. ولا يمكنك الوثوق بالفهد’’.

وتحول الحُلم فى تلك اللحظة ـ كعادة الأحلام ـ ووجد نفسه يحتسى الشاى مع عمته الكبرى ماتيلدا، وكان يحاول أن يسمعها ما يقول؛ فقد ازداد ضعف سمعها عن ذى قبل! ولم يسمع السير أى إعلان ماعدا الإعلان الأول الخاص "بالسيدة دافنى ثيودوفانوس". وقالت والدة الفتاة الصغيرة:

"لقد تعجبت دائمًا ـ كما تعرفين ـ من أمر المسافر الذى تفوته طائرته. فحينما تذهبين تسمعين عن شخص لا يمكنك العثور عليه. شخص لم يسمع النداء أو ليس على متن الطائرة أو شىء من هذا القبيل. وأتساءل دائمًا من هؤلاء المسافرون، وما الذى كانوا يفعلونه وقت النداء عليهم، ولماذا لم يأتوا؟ وأنا أعتقد أنَّ تلك السيدة قد فاتتها الطائرة. فما الذى سيفعلونه معها بعد ذلك؟".

ولم يكن هناك من يستطيع الإجابة عن سؤالها لأنه لا أحد كانت لديه المعلومات المناسبة.

الفصل الثانى

لندن

كانت شقة السير ناى لطيفة جدًّا تطل على جرين بارك. وقام السير بتشغيل جهاز عمل القهوة وذهب ليلقى نظرة على بريد هذا الصباح، والذى كان من الواضح أنه لا يحوى أى شىء مثير للاهتمام. وقام بتصنيف الخطابات فكان بينها فاتورة أو اثنتان، ووصْلُ تسليم خطابات عليها أختام بريد مملَّة وغير مشوقة. فقام بجمعها معًا ووضعها على المنضدة الموجود عليها بعض البريد المتكدِّس من اليومين الماضيين. وفكَّر السير ستافورد أنَّ عليه النزول لإحضار بعض الأشياء؛ فسكرتيره سيأتى إليه فى فترة ما بعد الظهيرة.

وعاد راجعًا إلى المطبخ، وصب القهوة فى كوب وأخذه معه إلى المنضدة. وحمل الخطابين أو الثلاثة التى فتحها عند وصوله بالأمس. ورجع إلى أحد هذه الخطابات وابتسم عند قراءته لهذا الخطاب.

وقال: ‘‘الحادية عشرة والنصف، يا له من توقيت ملائم. أعتقد أنَّ علىَّ التفكير مليًّا فى الأمور ويجب أن أستعد للذهاب إلى شيتواينـد’’.

ودفع أحد الأشخاص بشىء فى صندوق البريد، فخرج إلى الردهة ليأخذ الجريدة الصباحية التى لم يكن بها إلا أخبار قليلة للغاية؛ كارثة سياسية، خبر من الأخبار الخارجية قد يكون مقلقًا، لكنه لم يعتقد أنه كذلك. بل هو مجرد تضخيم للأمور من جانب الصحفيين ومحاولة منهم لإعطاء الأمور أهمية أكثر مما هى عليه؛ لأن عليهم تقديم شىء للناس لقراءته. العثور على فتاة مخنوقة فى الحديقة، فعادة ما يتم شنق الفتيات. وقال لنفسه مفكرًا فى جمود: ‘‘واحدة فى اليوم’’. إلا أن ذلك اليوم لم يحمل أنباء اختطاف أو قتل أحد الأطفال وهو ما مثل مفاجأة سارة. ثم أعد لنفسه قطعة من الخبز المحمَّص واحتسى كوبًا من القهوة.

ثم خرج إلى الشارع وسار عبر الحديقة فى اتجاه وايت هول. وكان يسير مبتسمًا؛ فقد كان يشعر بأنَّ الحياة جيدة هذا الصباح. وبدأ يفكِّر فى شيتواينـد؛ فهو يرى أنه إذا كان يصح وصف أحد الأشخاص بالحماقة والسخف معًا فهذا ينطبق على شيتواينـد، مظهر وواجهة جيدة، وعقل شكاك لطيف. فهو يستمتع بالحديث إلى شيتواينـد.

ووصل إلى وايت هول متأخرًا سبع دقائق عن ميعاده. وكان يرى أنَّ ذلك بسبب أهميته ـــ السير ـــ مقارنة بشيتواينـد. وسار إلى داخل الحجرة. وكان شيتواينـد جالسًا وراء مكتبه وأمامه الكثير من الأوراق وسكرتيره. وكان يبدو عليه أنه شخص مهم وكان عادة ما يفعل ذلك كلما استطاع.

قال شيتواينـد راسمًا ابتسامة على وجهه الوسيم: ‘‘مرحبًا ناى، تسرنى عودتك، كيف كانت الملايو؟’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘حارة’’.

‘‘نعم. أعتقد أنها دائمًا هكذا؛ فأنت تقصد الحالة الجوية وليس الحالة السياسية، أليس كذلك؟’’.

قال ستافورد ناى ‘‘أوه، أقصد الحالة الجوية بالطبع’’.

وعرض عليه شيتوايند سيجارة فقبلها السير وجلس.

‘‘هل حصلت على أية نتائج لنتحدَّث عنها؟’’.

‘‘بصعوبة. ليس ما يمكنك تسميته بالنتائج؛ فقد أرسلت تقريرى بالفعل وكان كله عبارة عن ثرثرة فارغة كالمعتاد. كيف حال لازنبى؟’’.

قال شيتوايند: ‘‘مزعج كالعادة. فهو لن يتغير أبدًا’’.

‘‘لا، سيكون ذلك بمثابة الكثير لنأمل فيه. فأنا لم أعمل فى أى شىء مع باسكومب من قبل، فهو يكون لطيفًا جدًّا عندما يرغب فى ذلك’’.

‘‘أيمكنه ذلك؟ لا أعرفه جيدًا. نعم، أعتقد أنه يمكنه ذلك’’.

‘‘حسنًا، حسنًا، حسنًا. أعتقد أنك لم تجلب معك أخبارًا أخرى’’.

‘‘لا، لا شىء. أعتقد أننى لم أحصل على شىء يثير اهتمامك’’.

‘‘لم تذكر فى خطابك سبب رغبتك فى مقابلتى’’.

‘‘أوه، رغبت فى ذلك لنناقش معًا القليل من الأشياء، هذا كل ما فى الأمر. إذا كنت قد جلبت معك بعض المعلومات أو أى شىء يحتاج إلى تجهيز مسبق؛ مثل أسئلة واستجوابات فى مجلس العموم أو أى شىء من هذا القبيل’’.

‘‘نعم، بالطبع’’.

‘‘أتيت إلى إنجلترا بالطائرة، أليس كذلك؟ وأستنتج أنك مررت بقليل من المشاكل’’.

وضع ستافورد ناى القناع الذى قرر وضعه مسبقًا ومعاملة شيتوايند على أساسه. كان قناعًا كئيبًا به مسحة خفيفة من الانزعاج.

وقال له: ‘‘إذن فقد سمعت عن هذا الأمر، أليس كذلك؟ يا له من أمر سخيف’’.

‘‘نعم، نعم. من المؤكَّد أنه كان كذلك’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘بل كان أمرًا خارجًا على المألوف، كيف تصل الأمور إلى الصحافة بتلك السرعة؟ فقد كان هناك خبر عن ذلك فى صحف هذا الصباح’’.

‘‘أفترض أنك كنت تفضِّل عدم النشر، أليس كذلك؟’’.

‘‘حسنًا، ألا يجعلنى ذلك كالمغفل؟ ويجعلوننى أعترف بذلك فى مثل سنى هذه’’.

‘‘ما الذى حدث بالضبط؟ ربما كان التقرير الصحفى ينطوى على الكثير من المبالغات’’.

"حسنًا، لقد وضعوا الكثير من الأكاذيب. أنت تعرف طبيعة هذه الرحلات فهى مملَّة للغاية. كان هناك ضباب فى جنيف؛ لذلك كان عليهم تعديل مسار الطائرة. وبذلك تأخَّرت ساعتين فى فرانكفورت".

"هل حدث الأمر خلال الساعتين؟".

"نعم، تلك الرسميات المملَّة فى المطارات طائرات، تذهب وطائرات تأتى. مكبر الصوت المزعج. الرحلة 302 الذاهبة إلى هونج كونج، الرحلة 109 الذاهبة إلى أيرلندا. أشخاص يصلون وأشخاص يرحلون. وأنت جالس هناك تتثاءب".

قال شيتوايند "ما الذى حدث بالضبط؟".

"حسنًا، لقد شربت مشروبًا كان أمامى وبعد ذلك فكَّرت فى أن علىَّ القراءة؛ لأقضى على الملل، فذهبت إلى ركن المبيعات والهدايا واشتريت كتابًا أو شيئًا ما أعتقد أنه كان رواية بوليسية، واشتريت لعبة من الصوف لإحدى بنات إخوتى. ثم عدت ثانية، وأنهيت شرابى وفتحت كتابى ثم غلبنى النعاس بعد ذلك".

"نعم، فهمت. فقد غلبك النعاس".

"حسنًا، هذا أمر طبيعى يقوم به أى شخص، أليس كذلك؟ وأعتقد أنهم أعلنوا عن رحلتى لكننى لم أسمعها. لم أسمعها لسبب قهرى بالتأكيد، فأنا يمكننى النوم فى المطار بأى وقت، لكن يمكننى أيضًا سماع الإعلان الذى يهمّنى. لكن هذه المرة لم أسمع هذا الإعلان؛ فعندما استيقظت أو عاد إلىَّ وعيى مهما كان ما تسميه، فقد شعرت بأننى تحت تأثير عقار طبى. وأعتقد أن شخصًا ما قام بوضع مخدِّر أو شىء من هذا القبيل فى شرابى. ومن المؤكَّد أنه فعل ذلك عند ذهابى لشراء الكتاب".

قال شيتوايند: "يا له من شىء غريب، أليس كذلك؟".

رد ستافورد نای: "لم يحدث هذا الأمر لى من قبل، وآمل عدم حدوثه ثانية. أتعلم، إن ذلك يجعلك تشعر بالحماقة بالإضافة إلى شعورك بألم فى رأسك ناتج عن التخدير؛ فقد كان هناك طبيب وبعض الممرضات. على أية حال، فلم يكن هناك أى ضرر كبير ظاهرى؛ فقد سُرقت محفظتى وبها بعض المال وجواز سفرى. كان ذلك شيئًا مثيرًا للارتباك بكل تأكيد. ولحسن الحظ، لم يكن معى نقود كثيرة، وشيك السفر الخاص بى كان فى جيبى الداخلى. وإذا فقدت جواز سفرك فكل ما فى الأمر أنك ستحصل على قطعة من شريط أحمر. وبكل حال فقد كان معى خطابات وأشياء؛ وبالتالى فتحديد هويتى لم يكن بالأمر الصعب. وتمَّت تسوية الأمر فى سياق محدد واستأنفت رحلتى".

قال شيتوايند بلهجة يشوبها الاستنكار: "ومع ذلك، فالأمر ما زال مزعجًا لك، بالنسبة لشخص فى حالتك ووضعك الاجتماعى".

قال ستافورد نای: "نعم، فلم أظهر بالشكل اللائق، أليس كذلك؟ أقصد وضعًا يلائم شخصًا فى مثل وضعى ومكانتى"، ويبدو أنَّ تلك الفكرة راقت للسير ستافورد.

‘‘هل عادة ما يحدث هذا الأمر، هل سألت عن ذلك فى المطار؟’’.

‘‘لا أعتقد أنَّ ذلك أمر متكرر الحدوث، ومع ذلك فقد يحدث. وأعتقد أنَّ أى شخص لديه ميل للسرقة من جيوب الآخرين سيلاحظ رفيقًا له نائمًا ويمد يده فى جيبه، وإذا نجح فى ذلك فسيمسك بالمحفظة أو كتاب الجيب أو شىء من هذا القبيل، ويأمل فى أن يحالفه بعض الحظ’’.

‘‘من غير الملائم أن تفقد جواز سفرك’’.

‘‘سيكون علىَّ استخراج جواز سفر جديد. وأعتقد أنهم سيجعلوننى أقدِّم الكثير من التوضيحات. فكما قلت، الأمر كله سخيف. ودعنا نواجه الأمر شيتوايند، فذلك لا يجعلنى فى وضع جيد، أليس كذلك؟’’.

‘‘لا، فهذا ليس خطأك بنىَّ العزيز، ليس خطأك. فهذا الأمر قد يحدث لأى شخص’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘من اللطيف أن تقول ذلك’’. وابتسم له موافقًا: ‘‘فذلك يعلمنى درسًا قاسيًا، أليس كذلك؟’’.

‘‘ألا تعتقد أنَّ هناك من يريد جواز سفرك تحديدًا؟’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘لا أعتقد ذلك، فلماذا يريد أحدهم جواز سفرى. إلا إذا كان يرغب فى مضايقتى وهذا احتمال ضعيف. أو كان شخصًا أصابه الولع بصورتى الموجودة فى جواز السفر ـــ وهذا احتمال أضعف!’’.

‘‘هل رأيت أى شخص تعرفه هناك ـــ قلت لى أين كنت ـــ فى فرانكفورت؟’’.

‘‘لا أحد مطلقًا’’.

‘‘وهل تحدَّثت إلى أى شخص؟’’.

‘‘ليس بالتحديد؛ فقد قلت شيئًا ما إلى سيدة سمينة لطيفة لديها طفلة صغيرة تحاول الاستمتاع بوقتها. وهما من ويجان على ما أعتقد وذاهبتان إلى أستراليا. ولا أتذكَّر أى شخص آخر’’.

‘‘هل أنت متأكد؟’’.

‘‘كانت هناك امرأة تريد أن تعرف ما الذى عليها فعله إذا أرادت دراسة علم الآثار فى مصر. وقلت لها إننى لا أعلم أى شىء عن ذلك. وأخبرتها بأن عليها السؤال فى المتحف البريطانى. وتكلمت كلمة أو كلمتين مع رجل أعتقد أنه معادٍ لتشريح الأحياء، ومتحمس كثيرًا بخصوص هذا الأمر’’.

قال شيتوايند: ‘‘دائمًا يشعر المرء بأنَّ هناك أشياء تكمن وراء مثل هذه الأشياء’’.

‘‘أشياء مثل ماذا؟’’.

‘‘حسنًا، أشياء مثل التى حدثت لك’’.

قال السير ستافورد: ‘‘لا أرى أى شىء قد يكمن وراء ذلك، لكن بعض الصحفيين قد ينسجون قصة كاملة من وحى خيالهم حول هذا الموضوع؛ فهم بارعون للغاية

فى مثل هذه الأمور. ومع ذلك فما زال ذلك أمرًا سخيفًا، أستحلفك بالله أن ننسى هذا الموضوع. وأعتقد أنَّ ذلك الأمر قد تمَّ ذكره فى الصحافة، وسيبدأ جميع أصدقائى فى السؤال بخصوص الأمر. دعك من هذا، كيف حال لايلاند العجوز؟ ما حاله هذه الأيام؟ فقد سمعت شيئًا أو شيئين عنه هناك. فعادة ما يتحدَّث لايلاند كثيرًا''.

وتحدَّث الرجلان حديثًا ودِّيًّا لمدة عشر دقائق تقريبًا ثم نهض السير ستافورد وخرج من عند شيتوايند.

وقال: ''لدىَّ الكثير من الأشياء لأفعلها هذا الصباح وهدايا لأشتريها لأقاربى ومعارفى؛ فعندما يسافر الفرد إلى الملايو يتوقَّع جميع معارفه وأقاربه أن يحضر له هدية غريبة من هناك. وأعتقد أننى سأذهب إلى متاجر ليبرتى؛ فلديهم الكثير من السلع والهدايا الشرقية هناك''.

وخرج وهو فى حالة من الابتهاج، وأثناء سيره فى الرواق الخارجى أومأ إلى رجلين يعرفهما. وبعد خروجه، تحدَّث شيتوايند إلى سكرتيره عبر الهاتف.

''اسأل الكولونيل مونرو إن كان بمقدوره القدوم إلىَّ''.

ودخل الكولونيل مونرو، مصطحبًا معه رجلاً طويلاً آخر فى منتصف عمره.

وقال له: ''لا أدرى ما إذا كنت تعرف هورشام، من الأمن''.

قال شيتوايند موجهًا حديثه لهورشام: ''أعتقد أننى قابلتك من قبل''.

قال الكولونيل مونرو: ''لقد تركك نای للتو، أليس كذلك؟''، ثم أردف قائلاً: ''أهناك أى شىء عن قصة مطار فرانكفورت تلك؟ أقصد أى شىء، علينا ملاحظته أو تسجيل ملاحظات عنه؟''.

قال شيتوايند: ''لا يبدو أنَّ هناك أى شىء، فهو متحفِّظ كثيرًا بخصوص هذا الأمر معتقدًا أنه يجعله مثل شخص مغفل وسخيف. وهو كذلك بكل تأكيد''.

وأومأ الرجل المسمى هورشام برأسه قائلاً: ''هذه الطريقة التى ينظر بها للموضوع، أليس كذلك؟''.

قال شيتوايند: ''حسنًا، إنه يحاول تجميل صورته''.

قال هورشام: ''كالعادة كما يعرف الجميع، فهو ليس مغفلاً سخيفًا، أليس كذلك؟''.

هز شيتوايند كتفيه قائلاً: ''هذه الأمور تحدث للجميع''.

قال الكولونيل مونرو: ''أعلم ذلك، نعم، نعم أعلم. ومع ذلك، أشعر دائمًا أنَّ نای متقلب المزاج إلى حد ما. ففى بعض الأحيان لا يكون موثوقًا فى آرائه''.

ثم تحدَّث الرجل المدعو هورشام قائلاً: ''لا يوجد شىء ضده، ليس هناك شىء نعرفه ضده''.

قال شيتوايند: ''لم أقصد أنَّ هناك شيئًا ضده، لم أقصد ذلك مطلقًا؛ فالأمر مجرد ـــ كيف أوضح ذلك الأمر؟ ـــ عادة لا يكون جادًّا جدًّا بخصوص الكثير من الأشياء''.

وكان للسيد هورشام شارب. ووجد أنَّ امتلاك الفرد شاربًا مفيد جدًّا؛ فهو يساعدك على إخفاء اللحظات التى لا يمكنك منع نفسك فيها من الابتسام.

قال مونرو: ‘‘هو ليس بالرجل الغبى، فهو شديد الذكاء كما تعلم. وأنت تعلم أنه لا توجد شكوك حول ذلك الأمر’’.

‘‘يبدو الأمر كذلك من جانب نای’’.

‘‘لكنه أخبرك بالأمر بالفعل، أليس كذلك؟’’.

‘‘حسنًا، لم نقض معًا الكثير من الوقت. والأمور كلها سارت بشكل جيد باستثناء جواز سفره الذى تمَّ استعماله’’.

‘‘استعماله؟ فى أى اتِّجاه؟’’.

‘‘استعمل جواز سفره للمرور عبر مطار هيثرو’’.

‘‘أتقصد أنَّ هناك شخصًا ما قدَّم نفسه بصفته السير ستافورد نای؟’’.

قال هورشام: ‘‘لا، فنحن نأمل ذلك. فقد مر جواز السفر مع جوازات السفر الأخرى. ولم يلحظ أحد شيئًا وأعتقد أنَّ السير لم يستيقظ بسبب تأثير المخدِّر الذى شربه مع زجاجة العصير؛ فقد كان ما زال فى فرانكفورت’’.

‘‘لكن ربما يكون أحد الأشخاص قد قام بسرقة جواز السفر هذا، ودخل الطائرة ليتمكَّن من الدخول إلى إنجلترا؟’’.

قال مونرو: ‘‘نعم، هذا هو الافتراض. فربما سرق شخص ما محفظة السير وبها بعض المال وجواز السفر، أو ربما أراد شخص ما جواز سفر، واستقر على السير ستافورد نای كشخص مناسب ليأخذ منه جواز سفره. وكان المشروب ينتظره على المنضدة فوضع فيه المخدِّر، وانتظر حتى غلبه النعاس، ثم أخذ منه جواز السفر وانتهز الفرصة’’.

قال شيتوايند: ‘‘لكن بعد كل هذا من المؤكَّد أنَّ رجال المطار قد نظروا إلى جواز السفر، ومن المؤكَّد أنهم تأكَّدوا أنه ليس بالرجل الصحيح’’.

قال هورشام: ‘‘حسنًا، من المؤكد وجود تشابه بين الاثنين. يبدو الأمر كما لو أن أحدًا لم يلحظ غيابه او يعطى انتباهًا خاصًّا لجواز السفر المميز هذا؛ فهناك حشد كبير سيركب الطائرة، وبذلك فأى رجل يشبه الصورة الموجودة بالجواز إلى حد معقول سيتمُّ السماح له بالمرور. فالأمر يسير كذلك؛ نظرة خاطفة على جواز السفر وإعادته لصاحبه مرة أخرى، ثم يسمحون له بالمرور. وعمومًا فهم ينظرون عادة إلى الأجانب الداخلين إلى البلاد، وليس البريطانيين؛ فكل ما يرغبون برؤيته فى المطارات هو شعر أسود، أو عيون زرقاء غامقة، أو شخص حليق الذقن، أو شخص طوله 5 أقدام و 10 بوصات فكلها أمور طبيعية. وهذا ليس موجودًا فى قائمة الغرباء الممنوعين من دخول البلاد أو أى شىء من هذا القبيل’’.

‘‘أعلم، أعلم. أنت تقول إنَّه إذا نجح أى شخص فى سرقة محفظة أو بعض النقود، فلن يستعمل جواز السفر لما ينطوى عليه هذا الأمر من مخاطر كبيرة’’.

قال هورشام: ‘‘نعم، هذا هو الجزء المشوق من الموضوع؛ ونقوم بتحرِّياتنا ونسأل أسئلة قليلة هنا وهناك’’.

‘‘وما رأيك؟’’.

قال هورشام: ‘‘لا أرغب فى قوله الآن، فتحديد رأيى يتطلب القليل من الوقت، فليس على الفرد التسرُّع فى الأمور’’.

قال الكولونيل مونرو عند مغادرة هورشام الحجرة: ‘‘جميعهم متشابهون، رجال الأمن الملاعين، لا يخبرونك مطلقًا بأى شىء. وإذا كانوا يعتقدون أنهم يحاولون القيام بشىء ما لا يعترفون بذلك أبدًا’’.

قال شيتوايند: ‘‘حسنًا، هذا أمر طبيعى، فقد يكونون مخطئين’’.

وبدت وجهة نظر سياسية تقليدية.

قال مونرو: ‘‘لعلمك، هورشام رجل صالح وجيد يحظى بتقدير كبير فى القيادة. ونادرًا ما يكون مخطئًا’’.

الفصل الثالث

رجل المغسلة

عاد السير ستافورد ناى إلى شقته. وبرزت سيدة ضخمة من المطبخ الصغير مسرعة وهى تقول بعض عبارات الترحيب.

‘‘أرى أنك عدت سالمًا، سيدى. أعلم نظام الطائرات المعقَّد، أليس كذلك؟’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘صحيح يا سيدة وريت؛ فقد تأخرت الطائرة لمدة ساعتين’’.

قالت السيدة وريت: ‘‘مثلها مثل السيارات، أقصد أنك لا تعلم مطلقًا ما الذى يحدث لها. والأمر المختلف فقط أنَّ الطائرات أكثر رهبة؛ لأنك تكون معلقًا فى السماء، ولا يمكنك محاذاة الطريق الحجرى والرصيف، أليس كذلك؟ فأنا لن أفكِّر مطلقًا فى السفر بطائرة’’. واستمرَّت قائلة: ‘‘لقد قمت بترتيب إفطار يحوى القليل من الأشياء. بيض، وجبن، وقهوة، وشاى’’، وقالت الكلمات سريعًا بثرثرة مرشد سياحى من الشرق الأدنى يُرِى السياح قصرًا فرعونيًّا. ‘‘وهناك’’، توقفت السيدة وريت لتلتقط أنفاسها: ‘‘أعتقد أننى تركت لك كل ما ترغب فيه. وقد طلبت لك أيضًا المسطردة الفرنسية’’.

‘‘ليست مسطردة ديجون الحارة؛ فهم دائمًا يعطونك إياها’’.

‘‘لا أعلم من أعطاها لى، لكنها من نوع إيثتر دراجون الذى تفضله’’.

قال السير ستافورد: ‘‘صحيح، أنتِ مذهلة’’.

بدا على السيدة وريت السعادة. ورجعت للمطبخ مرة أخرى. ووضع السير ستافورد ناى يده على مقبض باب غرفة نومه استعدادًا للدخول إليها.

قالت السيدة وريت: ‘‘أعتقد أنه من الجيد أن تعطى ثيابك للسيد المهذب الذى طلبها يا سيدى السير؟ فلم لا تقل أو تكتب لى ملاحظة بخصوص هذا الأمر؟’’.

سألها السير ستافورد ناى متوقفًا: ‘‘أى ملابس؟’’.

‘‘بذلتان، قال الرجل الذى طلبهما ذلك. وأعتقد أنها كانت مغسلة تويس وبونيورك. فأنا أذكر أنَّ لدينا الكثير من المشاكل مع مغسلة وايت سوان’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘بذلتان؟ أى بذلتين؟’’.

قالت السيدة وريت: ‘‘حسنًا، كانت إحداهما البذلة التى عدت بها إلى الوطن؛ فقد استنتجت أنها واحدة من البذلتين اللتين يطلبهما الرجل، لكننى لم أكن متأكدة بخصوص الأخرى، لكن كانت هناك البذلة المخططة التى لم تترك أى طلبات بخصوصها عندما خرجت. قد تكون بحاجة إلى التنظيف وكان كُمُّ اليد اليمنى بحاجة إلى بعض الحياكة، لكننى لم أرغب فى القيام بذلك بنفسى عندما كنت بالخارج، لم أرغب مطلقًا أن أقوم بذلك’’، وكان الصدق واضحًا فى نبرة صوتها.

‘‘إذن، فهل أخذ الفتى ـــ أيًّا كان ـــ البذلتين على أية حال؟’’.

أصبحت السيدة وريت قلقة: ‘‘آمل ألا أكون قد ارتكبت خطأ’’.

‘‘لا أمانع بخصوص البذلة الزرقاء المخططة. فأنا أظن أن ذلك سيكون أفضل لها. والبذلة التى أتيت بها إلى المنزل، حسنًا ـــ ‘‘.

‘‘كما تعلم يا سيدى فهى خفيفة جدًّا لهذا الوقت من العام. فهى تناسب الأماكن الحارة التى كنت فيها وقد تحتاج إلى بعض التنظيف. وقال الرجل إنَّ ذلك هو ما قلته عندما اتَّصلت بمغسلتهم من أجل تنظيف البذلتين’’.

‘‘هل دخل إلى حجرتى وأخرجهما بنفسه؟’’.

‘‘نعم يا سيدى، اعتقدت أنَّ ذلك هو الأفضل’’.

قال السير ستافورد: ‘‘شىء ممتع للغاية، حقًّا أمر ممتع للغاية’’.

ودخل إلى غرفة نومه وألقى نظرة عليها. كانت أنيقة ومرتبة. وكان السرير مرتبًا؛ فقد كانت لمسة السيدة وريت واضحة، وكانت ماكينة حلاقته يتم شحنها بالكهرباء، والأشياء الموضوعة على منضدة الزينة مرتبة بشكل أنيق،

وذهب إلى خزانة الملابس ونظر داخلها. ونظر فى أدراج الخزانة المرتفعة الموجودة قرب النافذة. كان كل شىء مرتبًا بدقة. بكل تأكيد كانت أكثر ترتيبًا عمَّا كانت عليه قبل وصول السيدة وريت؛ فقد قام بتفريغ القليل من محتويات حقيبته الليلة الماضية ورتبها بشكل متعجِل؛ فقد ألقى بالملابس الداخلية والأشياء الأخرى فى الدرج الخاص بهما لكنه لم يرتِّبهم بإتقان. وكان سيفعل ذلك بنفسه اليوم أو غدًا. فهو لم يتوقَّع قيام السيدة وريت بعمل ذلك من أجله. فقط توقَّع منها أن تبقى الأشياء فى مكانها كما وجدتها. فعند وصوله من الخارج كان سيكرِّس وقتًا لإعادة ترتيب وتهيئة ملابسه بسبب اختلاف الظروف الجوية وأشياء أخرى؛ لذلك فقد جاء شخص ما وألقى نظرة على الغرفة، وفتح خزانات الملابس وألقى عليها نظرة سريعة متعجلة وأرجع الأشياء إلى مكانها بشكل أقل تنظيمًا وأناقة ربما بسبب استعجاله؛ فقد قام بمهمة حذرة سريعة وخرج حاملاً معه بذلتين وتفسيرًا معقولاً؛ ليبرر ما فعله. بذلة ارتداها السير ستافورد عند سفره وبذلة من مادة خفيفة ربما يكون السير قد أخذها معه خلال سفره، ثم عاد إلى المنزل. فما سبب ذلك؟

قال السير ستافورد لنفسه بعد تفكير عميق: ‘‘لأن أحدهم كان يبحث عن شىء ما. لكن من هذا الشخص؟ وما الذى يبحث عنه؟ ولماذا؟’’.

وجلس على أحد الكراسى مفكرًا فى الأمر. ووقعت عيناه على المنضدة المجاورة للسرير التى تجلس عليها عروس الباندا الصوفية الصغيرة. وحركت تلك الباندا حبل أفكاره وأمسك بالهاتف واتَّصل بأحد الأرقام.

وقال: ‘‘هل هذه أنتِ، عمتى ماتيلدا؟ ستافورد يحدثكِ’’.

‘‘أوه، ولدى العزيز إذن فقد عدت. أنا مسرورة للغاية لذلك؛ فقد قرأت فى الصحيفة أنَّ هناك حالات إصابة بمرض الكوليرا فى الملايا بالأمس، اعتقدت أنها فى الملايو. عادة ما أخلط بين هذه الأماكن. آمل أن تأتى لزياتى قريبًا. فلا تدَّعى

أنك مشغول فلا يمكن أن تكون مشغولاً طوال الوقت. فأنا أتقبّل تلك العبارة من ملوك المال فقط ورجال الصناعة المنغمسين فى دمج المؤسسات والمقاولات. ولم أعلم مطلقًا ما الذى تعنيه بقولك هذا. كنت تستعملها لتعنى أنك تقوم بعملك بكل كفاءة، ولكنها تعنى الآن أنَّ الأمور مربوطة بقنابل ذرية ومصانع الأسمنت''، قالت العمة ماتيلدا هذه العبارة فى غضب ثم أكملت: ''وأجهزة الحاسب الآلى الرهيبة هذه التى تحوِّل كل الأرقام، لكى لا توضِّح شيئًا عند ربطها بالشكل الخاطئ. فى الواقع لقد جعلت هذه الأشياء حياتنا صعبة للغاية هذه الأيام. فلا يمكنك تصور الأشياء التى تسببت فيها أجهزة الحاسب الآلى تلك لحسابى البنكى وعنوانى البريدى أيضًا. حسنًا، أعتقد أننى عشت لفترة طويلة''.

''لا تعتقدى هذا! هل سيناسبك إذا جئت إليك الأسبوع القادم؟''.

''تعال غدًا إذا رغبت. فسيأتى العم لتناول العشاء معى، لكن يمكننى الاعتذار له بسهولة''.

''أوه، لماذا؟ ليس هناك داعٍ لذلك''.

''نعم، هناك داعٍ؛ فهو رجل مزعج جدًّا وفى حاجة إلى أرغن جديد أيضًا، لا، فالأرغن الموجود يعمل بشكل جيِّد، ولكننى أقصد أنه يعانى من مشاكل مع عازف الأرغن، فى الواقع، فموسيقاه رديئة بدون أدنى شك. ويشعر العم بالأسف لحال عازف الأرغن لأنه ـــ العازف ـــ فقد والدته التى كان العم مولعًا جدًّا بها. لكن كونى مولعة بوالدتك لا يعنى أنك تعزف على الأرغن بشكل أفضل مما أنت عليه، أليس كذلك؟ أعنى على الفرد النظر إلى الأشياء كما هى''.

''صحيح تمامًا. سأقوم بزيارتك الأسبوع القادم ـــ فلدى القليل من الأشياء لأريكِ إياها. بالمناسبة كيف حال سيبيل؟''.

''طفلتى الغالية! شقية جدًّا لكنها مرحة''.

قال السير ستافورد نای: ''لقد أحضرت لها من الملايو دمية صوفية على شكل باندا''.

''حسنًا، كان ذلك لطفًا منك يا عزيزى''.

''أتمنى أن تعجبها''، قال السير تلك العبارة ناظرًا إلى عينى الباندا وشعر بالقليل من التوتر.

''حسنًا، فسيبيل تتمتع بأخلاق حميدة للغاية''، قالت العمة ماتيلدا ذلك وبدت إجابتها مشكوكًا فيها، ولم يقدرها السير ستافورد جيدًا.

واقترحت العمة ماتيلدا ركوب القطارات لرحلة الأسبوع المقبل محذرة إياه من أن القطارات غالبًا مالا تسير أو تغير من وجهاتها، وطلبت منه أيضًا أن يحضر معه جبن كاميمبرت ونصف كيلو من جبن الستيلتون.

''من المستحيل شراء أى شىء من هنا فى الوقت الحالى. فالبقال الذى نتعامل معه ـــ وهو رجل لطيف، يفكر ويعلم ما الذى يفضله زبائنه ـــ تحول فجأة إلى سوبر ماركت أضخم ست مرات من السابق وتمت إعادة بنائه، وعند ذهابك إلى

هناك فعادة ما يتم حمل نفسك مضطرًّا لحمل السلال والصوانى المصنوعة من الأسلاك وتحاول ملأها بأشياء لا تريدها، وعادة ما يتوه الأطفال الصغار من أمهاتهم ويصرخون بشكل هستيرى. فذلك المكان الجديد مرهق للغاية. حسنًا، أنتظر زيارتك، يا طفلى العزيز''. ثم أنهت المكالمة.

ولم يكد ستافورد يغلق الخط حتى رن هاتف منزله مرة أخرى.

''مرحبًا؟ ستافورد؟ إيريك بوف يتحدث. سمعت أنك عدت من الملايو ـــ ما رأيك فى تناول العشاء معًا الليلة؟''.

''أحب ذلك كثيرًا''.

''حسنًا نتقابل فى نادى ليمبيتس الساعة التاسعة إلا عشر دقائق''.

ركضت السيدة وريت إلى الغرفة عندما وضع السير ستافورد السماعة.

وقالت: ''هناك سيد مهذب بأسفل يرغب فى مقابلتك سيدى السير، على الأقل أفترض أنه كذلك. وعلى أية حال فقد قال إنه متأكد من أنك لن تمانع فى مقابلته''.

''ما اسمه؟''.

''هورشام يا سيدى السير، مثل المكان الشهير الواقع على الطريق إلى برينجتون''.

''هورشام''. كان الاسم بمثابة مفاجأة للسير ستافورد ناى.

وخرج من غرفة نومه، نازلا على السلالم المؤدية إلى حجرة الجلوس الكبيرة الموجودة فى الطابق الأرضى. لم تكن السيدة وريت مخطئة فقد كان هورشام يبدو كما كان منذ نصف ساعة مضت، شخصًا قوى البنية، وجديرًا بالثقة، وهناك غمازات تشق ذقنه، أحمر الخدين، ولديه شارب رمادى كثيف، ويبدو عليه الهدوء والوقار.

قال هورشام وهو يقف محدثًا السير: ''أتمنى ألا تمانع''.

قال السير ستافورد ناى: ''تأمل ألا أمانع فى ماذا؟''.

''رؤيتى مرة أخرى بهذا الشكل السريع. فقد تقابلنا فى الممر خارج مكتب السيد جوردون شيتواينـد ـــ إن كنت تتذكر ذلك؟''.

قال السير ستافورد ناى: ''ليس لدىَّ أى اعتراضات على ذلك''.

وقدم له صندوق سجائر موضوعًا على المنضدة.

''اجلس. هل نسيت أى شىء، لم أتحدث عنه؟''.

قال هورشام: ''إن السيد شيتواينـد رجل لطيف جدًّا وأعتقد أننا قمنا بتهدئته كثيرًا. ويشعر كل من شيتواينـد والكولونيل مونرو بالضيق بخصوص موضوعك''.

''حقًّا؟''.

جلس السير ستافورد ناى أيضًا، وابتسم وأشعل لنفسه سيجارة ونظر بتفكير عميق إلى هنرى هورشام، ثم سأله ‘‘وأين سنذهب بعد ذلك؟’’.

‘‘كنت مترددًا بشأن توجيه هذا السؤال بدون أن تشعر بأننى فضولى أكثر من اللازم، أين ستذهب بعد وصولك إلى منزلك؟’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘يسعدنى أن أخبرك بأننى سأذهب لقضاء فترة عند إحدى عماتى، الليدى ماتيلدا كليكهيتون. وسأعطيك عنوانها إن كنت ترغب فى ذلك’’.

قال هنرى هورشام: ‘‘أعرفه، حسنًا، أعتقد أن ذلك سيكون فكرة جيدة. سيسرها أن تراك عائدًا بالسلامة. فربما كان هناك خطر قريب منك أو شىء من هذا القبيل’’.

‘‘هل هذا ما يفكر فيه الكولونيل مونرو والسيد شيتوايند’’.

قال هورشام: ‘‘حسنًا، أنت تعلم الخطر الذى قد يحيط بك جيدًا. فعادة هناك رجال فى منزلة رفيعة فى هذه الوزارة لم يقرروا بعد إن كان عليهم الثقة بك أم لا’’.

قال السير ستافورد ناى بلهجة غاضبة: ‘‘يثقون بى؟ ما الذى تعنيه بذلك، سيد هورشام؟’’.

لم يتراجع السيد هورشام، بل ابتسم فقط.

وقال: ‘‘أنت تعلم، فالمعروف عنك أنك لا تأخذ الأمور على محمل الجد’’.

‘‘أوه، أعتقد أنك تعنى أننى مجرد رفيق سفر أو أعمل فى المكان غير المناسب أو شىء من هذا القبيل’’.

‘‘أوه، لا سيدى السير، هم فقط لا يعتقدون أنك جاد. هم يعتقدون أنك تفضل القليل من المزاح فى جميع الأوقات’’.

قال السير ستافورد ناى باستنكار: ‘‘ لا يمكن للفرد أن يعيش حياته آخذًا كل أمور حياته ومعاملاته مع الآخرين على محمل الجد’’.

‘‘لا. لكنك تخاطر كثيرًا كما قلت من قبل، أليس كذلك؟’’.

‘‘إننى أتساءل إن كنت أعلم أى شىء مما تتحدث عنه’’.

‘‘سأخبرك شيئًا سيدى السير، فى بعض الأحيان تسير الأمور بشكل خاطئ لأن الناس هم من جعلوها تسير بهذا الشكل. يمكنك القول إن القدر له يد فى هذا الأمر، أو أى شخص آخر’’.

كان تفكير السير ستافورد مشغولاً بشىء آخر.

ثم قال: ‘‘هل تشير إلى الضباب الذى كان فى جنيف؟’’.

‘‘بالضبط. فقد كان هناك ضباب فى جنيف وذلك أفسد خطط الكثير من الأشخاص، ووضع أحدهم فى موقف لا يحسد عليه’’.

قال السير ستافورد نای: ‘‘أخبرنی، فأنا أريد أن أعرف الكثير عن هذا الأمر’’.

‘‘حسنًا، لم يأتِ أحد المسافرين عندما تركت الطائرة التی كنت تركبها فی فرانكفورت بالأمس. فقد شربت مخدرًا وجلست فی الركن تنام بكل هدوء وراحة. وفی نفس الطائرة لم تأت واحدة من المسافرين ونادوا على اسمها مرارًا وتكرارًا. وفی النهاية أقلعت الطائرة بدونها’’.

‘‘أوه، وما الذی حدث لها؟’’.

‘‘سيكون من الممتع معرفة ذلك، فعلى أية حال فقد وصل جواز سفرك إلى مطار هيثرو بدونك’’.

‘‘وأين جواز سفری الآن؟ أفترض أن علیَّ الحصول عليه؟’’.

‘‘لا، لا أعتقد ذلك، لأن ذلك سيكون تسرعًا فی الوقت الذی يبدو أن الأمر مخطط له جيدًا، فقد أفقدك المخدر الوعی ولم ينتج عنه أی آثار جانبية’’.

قال السير ستافورد: ‘‘لقد أصابنی بدوار كبير بعد أن أفقت’’.

‘‘حسنًا، لا يمكنك تجنب ذلك. ليس فی مثل هذه الظروف’’.

سأل السير ستافورد: ‘‘ما الذی كان سيحدث ــ ما دام يبدو أنك تعرف كل شیء ــ إذا رفضت قبول هذا العرض الذی قد يقدم إلیَّ؟’’.

‘‘من المحتمل أن يكون ذلك بمثابة ستار لمارى آن’’.

‘‘مارى آن؟ من مارى آن هذه؟’’.

‘‘الآنسة دافنی ثيودوفانوس’’.

‘‘يبدو هذا الاسم كما لو كنت قد سمعته من قبل أهو الذی سمعتُهم يستدعونه فی المطار؟’’.

‘‘نعم، هذا هو الاسم الذی تسافر به. وندعوها بمارى آن’’.

‘‘من هی؟ وهذا سؤال يحركه اهتمامی بالأمر فقط’’.

‘‘فی خط عملها ومجالها الخاص، فهی فوق أو تحت خط القمة بقليل’’.

‘‘وما خطها هذا؟ هل هی معنا أم معهم؟ إذا كنت تعلم من هم الذين هی معهم؟ يجب أن أعترف بأننی وجدت صعوبة عندما كنت أفكر فی هذا الأمر’’.

‘‘حسنًا. فالأمر ليس سهلاً، أليس كذلك؟ فهناك الصينيون والروس والجماعات الغريبة التی تقف وراء مشاكل الطلبة، والمافيا الجديدة، والمجموعة الغريبة الموجودة فی أمريكا الجنوبية، والمصرفيون ورجال المال الذين يخفون بعض الأمور المريبة. نعم، فليس من السهل قول ذلك’’.

قال السير ستافورد نای بتفكير عميق: ‘‘مارى آن، يبدو اسمًا مثيرًا للفضول إذا كان اسمها الحقيقی هو دافنی ثيودوفانوس’’.

‘‘حسنًا، والدتها يونانية ووالدها إنجليزی، وجدُّها كان أحد الرعايا الأستراليين’’.

‘‘حسنًا، فما الذى كان سيحدث لو لم أقرضها هذه القطعة من الثياب؟’’.

‘‘ربما تم قتلها’’.

‘‘تمهل، ليس لتلك الدرجة؟’’.

‘‘نحن قلقون بخصوص ما يحدث فى المطار هيثرو. فقد حدثت هناك أشياء مؤخرًا، أشياء تحتاج إلى القليل من الشرح. فإذا كانت الطائرة قد رحلت من جنيف كما خُطط لها لسارت كل الأمور على ما يرام. فقد كانت هناك حماية كاملة متوافرة لها. لكن بالشكل الذى سارت به الأمور لم يكن هناك وقت لترتيب أى شىء وعادة لا تعرف من أمامك. هذه الأيام يلعب الجميع لعبة مزدوجة أو ثلاثية أو رباعية’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘لقد أرهبتنى، لكنها بخير، أليس كذلك؟ هل هذا ما ستخبرنى به؟’’.

‘‘آمل أنها كذلك. فلم نسمع شيئًا يناقض ذلك’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘سأقول شيئًا قد يمثل مساعدة لكم، فقد اتصل شخص ما هنا هذا الصباح عندما كنت فى وايت هول أتحدث مع أصدقائى. وقد زعم أننى اتصلت بشركة تنظيف وأخذ البذلة التى ارتديتها بالأمس ومعها بذلة أخرى. وربما يكون قد أولع بالبذلة الأخرى، أو أن لديه حب جمع بذل السادة المهذبين الذين عادوا من الخارج للتو. أو هل لديك رأى آخر لتضيفه؟’’.

‘‘ربما كان يبحث عن شىء ما؟’’.

‘‘نعم، أعتقد ذلك. شخص ما يبحث عن شىء ما. وتم ترتيب كل شىء وإعادته إلى وضعه السابق. وليس بالطريقة التى تركت بها الأشياء بالأمس. حسنًا، فقد كان يبحث عن شىء، فما هذا الشىء؟’’.

قال هورشام ببطء: ‘‘وددت أن أكون متأكدًا. فهناك أمر ما يحدث فى مكان ما. هناك بعض الأشياء تترك أثرًا مثل الملصق الموضوع على الطرد. ففى دقيقة تعتقد أن الأمر يحدث فى مهرجان بايرن بألمانيا وفى الدقيقة التالية تعتقد أنه قادم من منزل ريفى فى أمريكا الجنوبية، وبعد ذلك تعتقد أنه فى الولايات المتحدة. فهناك الكثير من الأعمال القذرة فى أماكن مختلفة تؤدى إلى شىء ما. ربما تكون السياسة هى السبب وربما شىء آخر بعيد عن السياسة. ربما تكون النقود هى السبب’’. ثم أردف مضيفًا: ‘‘أنت تعرف السيد روبنسون، أليس كذلك؟ أو ربما يكون السيد روبنسون هو الذى يعرفك، أعتقد أنه قال ذلك’’.

‘‘روبنسون’’. قالها السير ستافورد ناى وتبدو على وجهه ملامح التفكير: ‘‘روبنسون اسم إنجليزى لطيف’’. ثم نظر إلى هورشام قائلاً: ‘‘وجهه أصفر وكبير؟ وسمين؟ وله يد فى الأمور المالية أو شىء من هذا القبيل؟’’. ثم سأله: ‘‘وهل هو فى صف الملائكة ـــ هل هذا ما تريد إخبارى به؟’’.

قال هنرى هورشام: ‘‘لا أعلم شيئًا عن الملائكة، فقد أخرجنا من أكثر من مأزق فى تلك الدولة. ولا يذهب إليه الأشخاص أمثال السيد شيتواينـد كثيرًا. ويعتقدون أنه

غالى الثمن ولكننى أعتقد أن السيد شيتواينـد بخيل، ولا يجيد التعامل مع أعدائه''.

قال السير ستافورد نـاى مفكرًا:''اعتاد الفرد أن يقول ''فقير لكنه شريف''. وقد فهمت من كلامك أنك تنظر لهذه الجملة بشكل مختلف. فقد وصفت السيد روبنسون بالغالى لكنه شريف. أو فلنقل إنه شريف لكنه غالٍ''. وتنهد ثم قال: ''أتمنى أن تخبرنى ما الذى يدور حوله كل هذا الأمر، فأنا أرى أن الأمر اختلط علىَّ وليست لدىَّ فكرة عن كينونته''. ونظر إلى هنرى هورشام نظرة أمل، لكن لم يقم هنرى بأى شىء سوى هز رأسه.

وقال: ''لا يعلم أحد منا شيئًا، لا أحد يعلم شيئًا على وجه الدقة''.

''ما الذى يفترض أن أخفيه هنا ليأتى شخص ما ويبحث عنه؟''.

''بكل صدق، ليست لدىَّ أدنى فكرة''.

''حسنًا، هذا أمر مثير للشفقة لأننى مثلك تمامًا''.

''مادمت تعلم أنك لا تعلم أى شىء، ألم يعطك أى شخص شيئًا لتحتفظ به، أو لتنقله إلى مكان ما، أو لتعتنى به؟''.

''لا شىء مطلقًا. إذا كنت تقصد مارى آن، فقد قالت إنها تريد إنقاذ حياتها وهذا كل ما فى الأمر''.

''وباستثناء وجود مقال عن الأمر فى الصحف المسائية، فقد أنقذت حياتها''.

''بدا هذا نهاية الفصل، أليس كذلك؟ شفقة. ففضولى يتزايد. فقد وجدت نفسى راغبًا فى معرفة الكثير مما سيحدث بعد ذلك، جميعكم أيها الأشخاص تبدون متشائمين''.

''بصراحة نحن كذلك. فالأشياء تسير بشكل سيئ فى هذه الدولة. هل تتعجب من هذا الأمر؟''.

''أعلم ما تقصده، ففى بعض الأوقات أشعر بالعجب أيضًا''.

الفصل الرابع

عشاء مع إيريك

1

قال إيريك بوف: ‘‘أتمانع لو أخبرتك بشىء ما، أيها الرجل العجوز؟’’.

نظر إليه ستافورد ناى فهو يعرفه منذ سنوات طويلة، لكنهما لم يكونا بالصديقين المقربين. وكان إيريك العجوز، أو هذا ما كان السير ستافورد يعتقده، مجرد صديق ممل جدًّا. لكن على الجانب الآخر فقد كان صديقًا مخلصًا. وكان من النوع الذى يتمتع بمهارة فى معرفة الأشياء، فكان يخزن الأشياء التى يقولها له الآخرون ويسجلها فى عقله، فقد يقدم لك معلومات مفيدة فى بعض الأحيان.

‘‘لقد عدتَ من مؤتمر الملايو هذا، أليس كذلك؟’’.

قال السير ستافورد ‘‘نعم’’.

‘‘هل حدث شىء مهم؟’’.

قال السير ستافورد: ‘‘سارت الأمور كالعادة’’.

‘‘أوه. كنت أتساءل إن حدث شىء ما ـــ حسنًا، أنت تعلم ما أقصده. أى شىء حدث ليضع القط بين اليمام’’.

‘‘ماذا حدث فى المؤتمر؟ لم يحدث شىء إلا الأمور المتوقعة مسبقًا. فقد قال كل شخص ما توقع الآخرون أنه سيقوله، لكنهم لسوء الحظ قالوه بشكل أطول مما تخيلته. لا أعلم سبب ذهابى إلى هذه الأشياء’’.

وألقى إيريك بوف ملاحظة أو اثنتين مملتين عما كان الصينيون على وشك فعله.

ثم قال السير ستافورد: ‘‘لا أعتقد أنهم يوشكون على عمل أى شىء. فكل الشائعات المعتادة كانت عن مرض ماو العجوز المسكين وعن المتآمرين ضده ودوافع تآمرهم’’.

‘‘وماذا عن الشئون العربية الإسرائيلية؟’’.

‘‘تسير الأمور وفقًا للخطط الموضوعة أيضًا، أقصد خطتهم. وعلى أية حال، ما الذى سيحدث بخصوص الملايو؟’’.

‘‘حسنًا، لا تعنى الملايو أى شىء بالنسبة إلىَّ’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘أنت تبدو كالسلحفاة الهزلية فى أفلام الرسوم المتحركة ‘‘حساء الليل، حساء جميل’’، لماذا هذه الكآبة؟’’.

‘‘حسنًا، كنت أتساءل فقط إن كنت ـــ أرجو أن تعذرنى ـــ أقصد أنك لم تفعل أى شىء لتلوث سجلك على أية حال’’.

قال السير ستافورد باديًا على وجهه علامات المفاجأة الشديدة: ‘‘أنا؟’’.

‘‘حسنًا، أنت تعلم جيدًا ما أنت عليه يا ستاف. فأنت تحب، فى بعض الأحيان، إزعاج الناس، أليس كذلك؟’’.

قال السير ستافورد: ‘‘لم تصدر عنى أية أخطاء فى الفترة الأخيرة، فما الذى تسمعه عنى؟’’.

‘‘سمعت عن بعض المشاكل التى حدثت على متن الطائرة وأنت فى طريقك إلى الوطن’’.

‘‘أوه؟ ممن سمعت هذا الكلام؟’’.

‘‘حسنًا، كما تعلم فقد قابلت كارتيسون العجوز’’.

‘‘يا له من عجوز رهيب، فدائمًا ما يتخيل أشياء لم تحدث مطلقًا’’.

‘‘نعم، أعلم هذا. أعلم أنه كذلك، لكنه كان يقول إن شخصًا ما ـــ وينترتون على الأقل ـــ يرى أنك على وشك القيام بشىء ما’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘على وشك القيام بشىء ما؟ أتمنى ذلك’’.

‘‘هناك عمل يتعلق بالجاسوسية يحدث فى مكان ما وهو يشعر بالقلق حيال بعض الأفراد’’.

‘‘ما الذى يظنونه فىَّ، هل يروننى فيلبى آخر، أو شيئًا من هذا القبيل؟’’.

‘‘أنت تعلم انك فى بعض الأحيان لا تتسم بالحكمة فيما تقوله عن بعض الأشياء، الأشياء التى تمزح وتلقى نكاتًا حيالها’’.

‘‘فى بعض الأحيان يكون من الصعب جدًّا مقاومة هذا الأمر، فكل هؤلاء السياسيين والدبلوماسيين كئيبون وثقيلو الظل، فتكون بحاجة إلى بعض المزاح من وقت لآخر’’.

‘‘هناك الكثيرون الذين يسيئون الظن بمزاحك يا بنى، لدرجة أننى أشعر بالقلق عليك فى بعض الأحيان. وهم يريدون سؤالك بعض الأسئلة عن شىء حدث فى رحلة عودتك ويبدو أنهم يعتقدون أنك لم تقل الحقيقة بخصوص هذا الأمر’’.

‘‘حسنًا، أهذا ما يعتقدونه؟ شىء ممتع، أعتقد أن علىَّ التعامل مع هذا الأمر’’.

‘‘والآن لا أريدك أن تتسرع’’.

‘‘يجب أن أحصل على بعض المرح من وقت لآخر’’.

‘‘انظر يا رفيقى القديم، أنت لا تريد تدمير سيرتك المهنية بإطلاق العنان لحس دعابتك’’.

‘‘لقد وصلت سريعًا إلى استنتاج عدم وجود شىء أكثر مللاً من وجود سيرة مهنية لك’’.

‘‘أقدر هذا، فأنت تميل دائمًا إلى وجهة النظر هذه وأرى أنك تقوم بعملك كما ينبغى. فقد كنت فى فيينا ولا أريد رؤيتك تفسد الأمور’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘أؤكد لك أننى أتصرف بأقصى درجات الرزانة والعفة’’، ثم أضاف قائلاً: ‘‘اهدأ يا إيريك، فأنت صديق جيد لكن فى الواقع أرى أننى لست مذنبًا بالمرح ولعب الألعاب’’.

هزَّ إيريك رأسه بتردد.

كانت تلك الليلة صافية، فسار السير ستافورد عائدًا إلى منزله فى جرين بارك. وفجأة، أثناء عبوره الطريق فى ممشى بيردكيج مرت سيارة مسرعة بجواره وكادت تصدمه. ولو لم يكن السير ستافورد ناى رجلاً رياضيًا وقفز إلى الرصيف قفزة ضمنت له السلامة، لكان حدث ما لا تحمد عقباه. وانطلقت السيارة مختفية فى ظلام الشارع. وتعجب السير، فمنذ دقيقة حاولت تلك السيارة قتله بنحو متعمد. يالها من فكرة عظيمة، فى البداية تم تفتيش شقته، والآن ربما كانت تلك محاولة لقتله. ربما كان الأمر كله مجرد مصادفة. لكنه فى سياق حياته التى قضى بعضًا منها فى أماكن خطيرة، كان السير على ارتباط وثيق بالخطر. فقد كان يشعر بالخطر ويشم رائحته، وهو يشعر بذلك الآن. فهناك شخص ما يحاول قتله، لكن ما سبب كل هذا؟ ومع معرفته بوجود من يحاول قتله قرر عدم الظهور كثيرًا بأية حال.

ودخل إلى شقته وأمسك بالبريد الموجود تحت عقب الباب من الداخل، ولم يجد شيئًا، يثير الاهتمام، مجرد فاتورتين ونسخة من جريدة لايف بوت الدورية. وألقى الفاتورتين على مكتبه وبدأ فى تصفح الجريدة، وقلب صفحاتها بأصابعه بدون اهتمام لأنه ما زال مستغرقًا فيما كان يفكر فيه، ثم توقفت أصابعه فجأة فقد كان هناك شىء موضوع بين صفحتين من الجريدة مثبتًا بمادة لاصقة. ونظر إلى ذلك الشىء عن قرب فوجد جواز سفره يرد إليه بهذه الطريقة غير المتوقعة. وقام بنزع المادة اللاصقة ونظر إليها، وكان آخر الأختام الموجودة

فى جواز السفر هو ختم الوصول إلى مطار هيثرو، فقد استعملت السيدة جواز سفره وعبر بها إلى بر الأمان واختارت تلك الطريقة لتعيده إليه. أين هى الآن؟ إنه يرغب فى معرفة ذلك.

وتساءل إن كان سيراها مرة أخرى؟ ومن تلك المرأة؟ وأين ذهبت؟ ولماذا ذهبت؟ كان الأمر كمن ينتظر مشاهدة الجزء الثانى من مسرحية فهو يشعر بأن الفصل الأول من المسرحية قد تم تمثيله للتو، فما الذى رآه؟ ربما رأى رافع ستارة قديمة الطراز، وفتاة سخيفة تريد ارتداء ملابس الرجال والمرور مثلهم، ومرت من قسم الجوازات فى مطار هيثرو بدون إثارة أى شبهات من أى نوع حول نفسها، ثم اختفت خلال بوابة مطار لندن. لا، فربما لا يراها ثانية وقد ضايقه ذلك الأمر. ثم قال لنفسه لكن لماذا أرغب فى مقابلتها؟ فهى لم تكن جذابة، ولم يكن بها أى شىء مميز. لا، لم يكن هذا بالشىء الصحيح، فقد كانت شيئًا ما أو شخصًا ما تمكّن من إقناعه بدون أى أساليب خاصة، بل كل ما فعلته تقديم طلب صريح للمساعدة لعمل ما تريده منه. مجرد طلب من إنسان إلى آخر، لأنها كما ألمحت ـ ليس بالكلمات الصريحة ومع ذلك فقد ألمحت بذلك ـ تستطيع قراءة الأشخاص،

وترى فيه رجلاً راغبًا فى القيام بمخاطرة ليساعد إنسانًا آخر. ويرى السير ستافورد ناى أنه تحمَّل المخاطرة. وكان بمقدورها وضع أى شىء فى زجاجة العصير، فربما كانوا سيعثرون عليه جثة هامدة على مقعد فى ركن صالة الرحيل بالمطار. وإذا كان لديها، وهذا مؤكد، معرفة جيدة بالعقاقير فربما تم تفسير موته كأزمة قلبية سببتها مشاكل فى القلب بسبب ارتفاع أو انخفاض ضغط الدم ـــ أو شىء من هذا القبيل. أوه، لماذا التفكير فى مثل هذه الأمور؟ من المرجح ألا يراها ثانية، وكانت تلك الفكرة تزعجه.

نعم، فقد كان منزعجًا، ولم يكن يحب على الإطلاق أن يشعر بالانزعاج. وفكر فى الأمر لعدة دقائق. وبعد ذلك كتب إعلانًا ليتم نشره ثلاث مرات، "مسافر إلى فرانكفورت. الثالث من نوفمبر. رجاء الاتصال بأحد رفقاء سفرك إلى لندن". وسواء فعلت ذلك أم لا، وإذا رأت الفتاة هذا الإعلان فستعرف لمن يوجه هذا الإعلان. فقد كان معها جواز سفره، وهى تعرف اسمه. ربما تنظر إليه وربما تحادثه هاتفيًّا وربما لا يحادثها. وإذا لم يحدث أى شىء من ذلك، فسيظل رافع الستارة على خشبة المسرح مجرد رافع للستارة، وستظل مجرد مسرحية سخيفة تستقبل المشاهدين المتأخرين لتلهيهم حتى تبدأ السهرة الحقيقية. وقد كان ذلك الأمر مفيدًا جدًا فى وقت ما قبل الحرب. ففى كل الاحتمالات لن يسمع صوتها ثانية أو يسمع عنها أى شىء وقد يكون أحد هذه الأسباب أنها ربما تكون أنجزت ما أتت إلى لندن من أجله أيًّا كان ذلك، وقد تركت بريطانيا متوجهة إلى جنيف أو إلى الشرق الأوسط، أو روسيا، أو الصين أو أمريكا الجنوبية، أو الولايات المتحدة. ثم قال السير ستافورد محدثًا نفسه: ولماذا ضمنت فيما قلته أمريكا الجنوبية؟ من المؤكد وجود سبب لذلك. فهى لم تذكر لى أمريكا الجنوبية. فلم يذكر أحد أمريكا الجنوبية باستثناء هورشام الذى ذكرها بين أشياء أخرى.

وفى الصباح التالى سار ببطء متوجهًا إلى منزله بعدما قدم الإعلان، ولمح بنصف عين أزهار الخريف بطول الطريق عبر سان جيمس بارك. وتبدو زهور الأقحوان قوية وثابتة فى الأرض ببراعمها ذهبية القمة وبرونزية القمة كذلك. وتسللت رائحتها إلى أنفه بشكل ضعيف، وقال لنفسه إنها رائحة مثل الماعز وتذكره بمنحدرات تلال اليونان. وعليه أن يتذكر متابعة عمود الإعلانات الشخصية فى الجريدة، لا ليس بهذه السرعة فهناك يومان أو ثلاثة قبل وضع إعلانه وسيكون هناك وقت حتى يبعث أى شخص بالرد. يجب عليه أن يعرف وجود إجابة أم لا، لأن عدم معرفة ذلك يضايقه كثيرًا.

ولم يحاول تذكر وجه فتاة المطار بل حاول تذكر وجه أخته باميلا. فقد مر وقت طويل منذ موتها لكنه يتذكرها بالطبع، ولكن لا يمكنه رسم صورة لوجهها فى عقله. وقد ضايقه ذلك كثيرًا. ثم توقف عن التفكير عندما كان على وشك عبور أحد الطرق. ولم تكن هناك أية حركة مرورية باستثناء سيارة تتمايل ببطء كسير امرأة عجوز مملة. وقال لنفسه إنها سيارة قديمة، ليموزين داليمار عتيقة الطراز. ثم هز كتفيه فى لامبالاة قائلاً لنفسه: لماذا أقف هنا بهذا الشكل الأحمق تائهًا فى أفكارى وذكرياتى؟

ثم اتخذ خطوة مفاجئة ليعبر الطريق، وفجأة اندفعت السيارة القديمة، كما كان يعتقد، بنشاط مفاجئ وسرعة مدهشة تجاهه وكانت ستصدمه لولا رشاقته التى مكنته من القفز إلى الرصيف المقابل. واختفت فى لمح البصر، واختفت وراء منحنى الطريق.

وقال السير ستافورد لنفسه: ‘‘أتساءل الآن، هل يمكن أن يكون هناك شخص ما لا يحبنى؟ شخص ما يتتبعنى، وربما يراقبنى فى طريق عودتى إلى المنزل منتظرًا حتى تسنح له الفرصة؟’’.

2

كالعادة كان الكولونيل بايكواى، جالسًا فى تلك الحجرة الصغيرة بجسده الكبير الذى يخرج من مقعده منذ الساعة العاشرة صباحًا إلى الخامسة مساء مع وجود فترة مقتطعة لتناول الغذاء، يحيط به جو من دخان السجائر الكثيف؛ مغلقًا عينيه، ومجرد ومضة بعينيه من وقت إلى آخر تُظهر أنه مستيقظ وليس نائمًا. وكان نادرًا ما يرفع رأسه. وقد قال شخص ما إنه يبدو مثل خليط بين بوذا وضفدعة زرقاء كبيرة، أو كما أضاف أحد الشباب الوقحين: إنه يبدو مثل أحد أسلاف فرس النهر.

وأيقظه صوت جهاز الاتصال الداخلى الموجود فى مكتبه. وطرفت عينه ثلاث مرات ثم فتحها ومد يدًا متعبة ثم رفع السماعة.

‘‘حسنًا؟’’.

سمع صوت سكرتيره عبر السماعة يقول: ‘‘المصلح الاجتماعى موجود بالخارج منتظرًا مقابلتك’’.

قال الكولونيل بايكواى: ‘‘هل هو هنا الآن؟ وأين يخدم؟ هل هو المصلح القادم من تلك المؤسسة الموجودة فى جانب المدينة؟’’.

‘‘لا يا سيدى، إنه السير جورج باكهام’’.

قال الكولونيل بايكواى بصوت مصاب بالربو:’’يا للأسف، يا للأسف العميق. فالمصلح الموقر ماكجيل أكثر تسلية. فهناك لمسة رائعة من نار الجحيم فى ماكجيل’’.

‘‘هل أسمح له بالدخول؟’’.

قال الكولونيل بكآبة: ‘‘أعتقد أنه يتوقع السماح له بالدخول مباشرة. ففى الداخلية تجد نواب وكلاء الوزارات سريعى الغضب عن وكلاء الوزارات. جميع هؤلاء المصلحين يصرون على القدوم وإزعاجنا’’.

ودخل السير جورج باكهام، وسعل وتنحنح كما يفعل أغلب الأشخاص. وكانت نوافذ الغرفة الصغيرة مغلقة بإحكام. واسترخى الكولونيل بايكواى فى مقعده. وكانت تلك الغرفة تعرف فى الدوائر الرسمية بمنزل القط الصغير ‘‘بسبب هوائها الذى لا يحتمل’’.

قال السير جورج متحدثًا بنشاط وإشراق بشكل لا يتلاءم مع مظهره الزاهد الكئيب: ‘‘أوه، رفيقى الغالى، لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة تقابلنا فيها على ما أعتقد’’.

قال بايكواى: ‘‘تفضل بالجلوس، أترغب فى سيجار؟’’.

ارتعد السير جورج رعدة خفيفة ثم قال: ‘‘لا، شكرًا لك. شكرًا جزيلاً’’.

ثم نظر السير إلى النوافذ ولم يفهم الكولونيل بايكواى ذلك التلميح. ثم نظف السير جورج حنجرته وسعل ثانية قبل أن يقول:

‘‘أعتقد أن هورشام قد قابلك’’.

‘‘نعم، فقد جاء هورشام وقال ما لديه’’. قال الكولونيل بايكواى ذلك ببطء ثم أغلق عينيه.

‘‘أعتقد أنها كانت أفضل الطرق. أقصد اتصاله بك هنا. من المهم جدًّا عدم انتشار الأمور فى أى مكان’’.

قال الكولونيل بايكواى: ‘‘لكنها ستنتشر، أليس كذلك؟’’.

‘‘أستميحك عذرًا؟’’.

قال الكولوينل: ‘‘ستنتشر’’.

‘‘لا أعلم مدى معرفتك بالشئون الأخيرة’’.

‘‘نحن نعلم كل شىء هنا، فهذا ما نحن هنا من أجله’’.

‘‘نعم، نعم بخصوص السير س. ن أتعلم من أقصد؟’’.

قال الكولونيل بايكواى: ‘‘هو مسافر قادم مؤخرًا من فرانكفورت’’.

‘‘إنها مسألة غير عادية. فأنا لا أعلم بالفعل، ولا يمكننى تخيل...’’.

استمع الكولونيل بايكواى بشكل ملائم.

ثم قال السير جورج ملحًّا: ‘‘من هذا الشخص برأيك؟ أتعرفه بشكل شخصى؟’’.

قال الكولونيل بايكواى: ‘‘لقد صادفته مرة أو مرتين’’.

‘‘الفرد لا يمكنه التوقف عن التساؤل ـــــ ‘‘.

ومنع الكولونيل بايكواى نفسه عن التثاؤب بصعوبة. فقد بدأ يشعر بالتعب من تساؤل، وتعجب، وتخيل السير جورج. وعلى أية حال فلم يكن معجبًا بطريقة تفكير السير جورج. فهو رجل حذر، رجل تعتمد عليه فى إدارة قسمه بأسلوب حذر. وليس رجلاً ذا تفكير لامع. واعتقد الكولونيل بايكواى أن الأمور ستكون أفضل. وعلى كل حال، فهؤلاء الذين يعتقدون ويتساءلون ليسوا متأكدين وآمنين من المكان الذى اختارهم فيه الناخبون.

وأكمل السير جورج: ‘‘لا يستطيع الفرد نسيان خيبة الأمل التى عانيناها فى الماضى’’.

ابتسم الكولونيل بايكواى بلطف.

ثم قال: ‘‘شارلستون، وكونواى، وكورتفيلد، رشحهم الجميع ووافقوا عليهم وكانوا موضعًا للثقة الكاملة. وجميعهم يبدأون بالحرف C، وكانوا جميعًا مذنبين فى النهاية’’.

قال السير جورج بحزن: ‘‘فى بعض الأحيان أتساءل إن كان يمكننا الثقة فى أى فرد’’.

قال له الكولونيل: ‘‘الأمر سهل جدًّا، لا يمكنك الثقة فى أى فرد’’.

قال السير جورج: ‘‘والآن خذ معلومات عن ستافورد ناى، إنه من عائلة جيدة، ممتازة، وعرفت والده وجده’’.

قال الكولونيل بايكواى: ‘‘عادة ما يكون الخطأ فى الجيل الثالث’’.

لم تساعد الملحوظة السير جورج.

‘‘لا يمكننى التوقف عن الشك ـــ أعنى، فى بعض الأحيان لا تبدو عليه الجدية’’.

‘‘فى شبابى أخذت بنات إخوتى لأريهن قصر لوار. وقد كان هناك رجل يصطاد السمك على الضفة. وكانت معى صنارتى أيضًا فقال لى بالفرنسية: ‘‘لا يمكنك أن تكون جادًّا، فمعك فتاتان’’.

‘‘أنت تعتقد أن السير ستافورد ـــ؟’’.

‘‘لا، لم يتورط مع النساء مطلقًا، فالسخرية هى مشكلته. فهو يحب مفاجأة الآخرين. ولا يستطيع منع نفسه من ذلك’’.

‘‘حسنًا، هذا ليس بالشىء الكافى، أليس كذلك؟’’.

قال الكولونيل بايكواى: ‘‘لِمَ لا؟ فحب المزاح الخاص أفضل بكثير من الاتفاق مع أحد الخونة’’.

‘‘إذا كنت تشعر بأنه مخلص بالفعل، فماذا كنت ستقول؟ ما رأيك الشخصى؟’’.

قال الكولونيل بايكواى:’’سليم مثل الجرس، إذا كان الجرس سليمًا فهو يصدر صوتًا، لكن الأمر مختلف فى حالته، أليس كذلك؟’’. ثم ابتسم ابتسامة لطيفة قائلاً: ‘‘لو كنت مكانك لما شعرت بالقلق’’.

3

نحَّى السير ستافورد ناى كوب قهوته جانبًا. ثم أمسك بالجريدة وفتحها ملقيًا نظرة سريعة على الأخبار، ثم وصل إلى الصفحة التى توجد فيها الإعلانات الشخصية. ونظر إلى ذلك العمود الخاص المنشور منذ سبعة أيام حتى الآن. كان المنظر مخيبًا للآمال لكنه لم يكن مدهشًا، فلماذا عليه توقع الرد على إعلانه؟ ثم نظر ببطء إلى

الأشياء الغريبة الأخرى التى جعلت هذه الصفحة الخاصة فى عينيه بمثابة الصفحة الساحرة. لم تكن الإعلانات شخصية تمامًا، فنصفها أو أكثر كانت إعلانات مقنعة أو أشياء معروضة للبيع أو أشياء يرغب فى شرائها. وربما كانت لهذه الإعلانات عناوين مختلفة لكن تم وضعها فى تلك الصفحة باعتبار أنها ستجذب النظر أكثر بتلك الطريقة. وقد كانت الصفحة تتضمن إعلانًا أو اثنين من الإعلانات المتنوعة المشجعة.

"شاب يعترض على العمل الشاق ويرغب فى حياة سهلة، سيكون سعيدًا جدًّا لو حصل على وظيفة تناسبه".

"فتاة تريد السفر إلى كمبوديا، وترفض الاعتناء بالأطفال".

"سلاح نارى استعمل فى معركة وترلويا لها من عروض".

"معطف لطيف ورائع من الفرو للبيع مباشرة. المالك سيسافر إلى الخارج".

"أتعرف جينى كابستان؟ فهى تصنع كعكًا رائعًا. تعالَ إلى 14 شارع السحلية، إس. دبليو، 3.".

ولدقيقة توقف إصبع ستافورد ناى عن السير على أعمدة الإعلانات. جينى كابستان، لقد أعجبه الاسم، وهل هناك شارع يسمى بشارع السحلية؟ إن كان موجودًا فهو لم يسمع عنه أبدًا. وبتنهيدة، استمر إصبعه فى النزول على عمود الإعلانات وفى لحظة واحدة تقريبًا رأى إعلانًا مميزًا.

"مسافر فرانكفورت، الخميس 11 من نوفمبر، جسر هانجرفورد، الساعة 7:20".

الخميس 11 نوفمبر. هذا ـــ نعم إنه اليوم. واتكأ السير ستافورد ناى فى مقعده واحتسى المزيد من القهوة. فقد كان يشعر بالإثارة. هانجرفورد، جسر هانجرفورد. نهض من مقعده وذهب إلى المطبخ، كانت السيدة وريت تقطع البطاطس إلى شرائح وتلقيها فى سلطانية واسعة مليئة بالماء. ونظرت ناحيته وقد تفاجأت قليلاً، ثم قالت:

"أهناك شىء تريده، سيدى السير؟".

قال السير ستافورد ناى: "نعم، إذا قال لكِ شخص ما اذهبى إلى جسر هانجرفورد، فإلى أين ستذهبين؟".

فكرت قليلاً ثم قالت: "أين سأذهب؟ تقصد إن رغبت فى الذهاب إلى هناك، أليس كذلك؟".

"يمكننا الاستمرار على هذا الافتراض".

"حسنًا، أعتقد أننى سأذهب إلى جسر هانجرفورد، أليس كذلك؟".

"أتقصدين أنك ستذهبين إلى هانجرفورد فى بيركشاير؟".

قالت السيدة وريت: "أين هذا المكان؟".

‘‘يبعد مسافة ثمانية أميال بعد نيوبيورى’’.

‘‘لقد سمعت عن نيوبيورى. فقد راهن زوجى العجوز فى السنة الماضية على فرس هناك، وقد أدى بشكل جيد’’.

‘‘إذن فستذهبين إلى هانجرفورد المجاور لنيوبيورى؟’’.

قالت السيدة وريت: ‘‘لا، لن أذهب بالطبع. أسافر كل هذا الطريق ـــ من أجل ماذا؟ كنت سأذهب إلى جسر هانجرفورد بكل تأكيد’’.

‘‘أتقصدين ـــ؟’’.

‘‘حسنًا، إنه قرب تقاطع شارينج. أنت تعلم مكانه على نهر التيمز’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘نعم، أعرف هذا المكان جيدًا. شكرًا سيدة وريت’’.

شعر بأنه كان كمن يُجرى قطعة بقطعة نقود معدنية: إعلان فى جريدة صباحية فى لندن يشير إلى جسر هانجرفورد للسكك الحديدية فى لندن. ربما كان ذلك ما يقصده المعلن، رغم أن السير ستافورد ناى لم يكن متأكدًا تمامًا بخصوص هذا المعلن الخاص. فهو يرى أن أفكارها ـــ من تجربته المختصرة معها ـــ كانت أفكارًا مبتكرة. لذلك فعلى المرء ألا يتوقع الاستجابات التقليدية، لكن ما الذى يمكنه فعله. فربما كانت هناك مناطق أخرى بنفس الاسم فى أجزاء مختلفة من إنجلترا وبها كبارى أيضًا. لكن اليوم سنرى ما سيحدث.

4

كانت ليلة باردة وعاصفة مع قليل من الأمطار الخفيفة من وقت لآخر. ورفع السير ستافورد ناى ياقة معطفه المضاد للمطر وكافح أثناء سيره. لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يعبر فيها جسر هانجرفورد، لكنها لم تبد له مطلقًا من أجل المتعة. وكان هناك النهر وعلى الجسر كانت هناك أعداد كبيرة تعبر الجسر مثله. وياقات معاطفهم مرفوعة مثله، وقبعاتهم مسحوبة لأسفل على وجوههم، ورغبة الجميع هى الوصول إلى منازلهم والابتعاد عن الرياح والمطر بأسرع ما يمكن. وقال السير ستافورد ناى مفكرًا إنه سيكون من الصعب التعرف على أى شخص فى هذا الزحام المندفع. والساعة السابعة والعشرون دقيقة ليست بالوقت المناسب ليتم اختيارها لأى ميعاد. ربما كان المقصود هو جسر هانجرفورد فى بيركشاير. على أية حال، بدا الجسر قديمًا جدًّا.

وتهادى فى مشيته، بل مشى ببطء بحيث لم يكن يلحق من أمامه ويتخبط فيمن يسيرون فى الاتجاه المعاكس. فاضطر للسير بسرعة تكفى لئلا يتخطاه من خلفه، رغم أن بمقدورهم فعل ذلك إن رغبوا. وقال سير ستافورد ناى لنفسه إن الأمر قد يكون مجرد مزاح، ليس من نوع مزاحه لكنه مزاح شخص آخر.

ولكنه ليس نوع مزاحها أيضًا. وأسرع الأشخاص الذين يسيرون خلفه وسبقوه ودفعوه جانبًا برفق. ورأى امرأة ترتدى معطف المطر وتسير بتثاقل. واصطدمت به، وانزلقت واقعة على ركبتيها. وساعدها على النهوض.

‘‘هل أنتِ بخير؟’’.

‘‘نعم، شكرًا لك’’.

وانطلقت مسرعة، ولكن بمجرد مرورها وضعت يدها المبللة شيئًا فى راحة يده وأغلقت أصابعه عليه. ورحلت بعد ذلك، واختفت وسط الزحام. وانطلق السير ستافورد ناى، لم يكن بإمكانه اللحاق بها وهى لن تسمح له بذلك. وانطلق مسرعًا ويده ممسكة بالشىء بثبات. وأخيرًا بعد طول عناء كما بدا له وصل إلى نهاية الجسر.

وبعد دقائق قليلة كان السير فى مقهى صغير وجلس على طاولة وطلب قهوة. وبعد ذلك نظر إلى ما كان فى يده. كان مظروفًا مغلقًا رفيعًا جدًّا. وبداخله كان هناك مظروف أبيض رخيص الثمن. وفتحه وفاجأه ما وجده بداخله. إنها تذكرة.

تذكرة لدخول قاعة الاحتفال غدًا.

الفصل الخامس

دافع فاجنرى

عدل السير ستافورد نای جلسته بوضع أكثر راحة واستمع إلى دق الطبول المستمر الذى بدأ به برنامج الحفل.

ورغم استمتاعه بأوبرا فاجنر، لم يكن سيجفريد أفضل عروض الأوبرا لديه. بل كان كل من راينجولد وجوترداميرنج هما عرضيه المفضلين. فقد كانت موسيقى سيجفريد الشبابية، وغناء الطيور يثيران توتره لسبب ما، بدلاً من أن يشعراه بالاتباع ويرضيا أحاسيسه الفنية. ربما كان ذلك ـــ لسوء الحظ ـــ بسبب حضوره حفلاً فى ميونيخ أيام شبابه عرض لحنًا رائعًا بدرجات صوتيه سيئة، وقد كان صغيرا جدًّا حينها ليستغنى عن بهجة الموسيقى ببهجة رؤية بطل الأوبرا سيجفريد الشاب، الذى كان يبدو كذلك فى الماضى. فقد أثار ضيقه الصوت العالى للفرقة الموسيقية والتى كانت تعزف بصورة تشبه أداء الأطفال. كذلك لم يكن مغرمًا بهمس الطيور والغابة. لا، فهو يرغب فى سماع عذارى الراين طوال الوقت، رغم أنه حتى عذارى الراين لم تكن تعزف بشكل جيد فى ميونيخ هذه الأيام، إلا أن ذلك لم يكن على قدر كبير من الأهمية. إلا أنه لم يسمح لأى من الأمور الخاصة بالمشهد العامر بأن تؤثر على استمتاعه بالعزف، إذ أخذته أنغام تدفق المياه والأغنية المرحة المجردة.

وكان السير ستافورد نای ينظر حوله من وقت إلى آخر بشكل عرضى. فقد أخذ كرسيه مبكرًا، وكان المكان ممتلئًا عن آخره كالعادة. ثم بدأت فترة الاستراحة. ونهض السير ستافورد ونظر حوله فوجد المقعد المجاور له مازال خاليًا. فالشخصية المفترض وصولها لم تصل بعد. هل كان ذلك ردها، أم أن الأمر لا يعدو كونه منعها من الدخول بسبب الوصول متأخرة، وهو إجراء لا يزال متبعًا فى حفلات فاجنر؟

وخرج وجاب المنطقة خارج القاعة وشرب كوبًا من القهوة ودخن سيجارة ثم عاد عندما سمع نداءات قرب بدء العرض. وعند اقترابه من مقعده فى تلك المرة وجد من يجلس على المقعد المجاور له. وعادت له الإثارة فورًا، ثم جلس على مقعده. نعم، هى امرأة مطار فرانكفورت، لكنها لم تنظر إليه، بل كانت تنظر أمامها مباشرة. وكان منظر وجهها من الجانب واضح المعالم تمامًا كما يتذكره من المطار. واستدار رأسها قليلاً ووقعت عيناها عليه لكن بدون أن يبدو عليها أمارات التعرف عليه. إذن، كانت خطتها ألا يبدوا كما لو كانا يعرفان بعضهما البعض. لقد نجحت النظرات فى إيصال المعنى كالكلمات تمامًا. فهذا اجتماع لا يجب الاعتراف به. ليس الآن على أية حال. وبدأت الأضواء تخفت واستدارت المرأة الجالسة بجواره.

وقالت: ‘‘عذرًا، أيمكننى النظر فى نسخة برنامج الحفل الخاص بك؟ فقد سقطت منى وأنا فى طريقى لمقعدى’’.

قال السير: ‘‘بالطبع’’.

وأعطاها نسخة برنامج الحفل وفتحتها ونظرت فى مواد البرنامج. وبدأت الأضواء تضعف، فقد بدأ الجزء الثانى من البرنامج وبدأ بمقدمة لونجرين. وفى نهاية المقدمة أعادت له نسخة برنامج الحفل وقالت له القليل من كلمات الشكر.

‘‘شكرًا جزيلاً، كان هذا لطفًا منك’’.

وكانت المادة الثانية من الحفل هى موسيقى غمغمة غابة سيجفريد. ورجع السير إلى نسخة البرنامج التى أعادتها له السيدة، فلاحظ شيئًا مكتوبًا بالقلم الرصاص بخط باهت فى أسفل إحدى الصفحات، ولم يحاول قراءته لأن الضوء لن يكون كافيًا على أية حال وقام بإغلاق كتيب برنامج الحفل واحتفظ به. وكان متأكدًا أنه لم يكتب أى شىء فى الكتيب. كلا، ليس فى كتيبه. وفكر السير أنها ربما كان معها كتيبها بالفعل ـــ مطويًّا

فى حقيبة يدها ـــ وكتبت فيه رسالة تمهيدًا لتسليمها له. وعمومًا، فقد بدا الأمر له أن جو السرية، وجو الخطر مازال موجودًا. فمقابلة جسر هانجفورد والمظروف الموجود بداخله التذكرة. والآن المرأة الصامتة التى تجلس بجواره، ونظر إليها مرة أو مرتين بالنظرة السريعة والعارضة التى ينظر بها المرء إلى غريب جالسٍ بجواره. واسترخت فى مقعدها؛ وكان فستانها عالى الرقبة مصنوعًا من قماش أسود خفيف، وأحاط عقد ذهبى قديم بعنقها. وكان شعرها الأسود ملمومًا حول رأسها. ولم تتبادل معه النظرات أو تنظر إليه مطلقًا. مما دفعه لأن يتساءل عما إذا كان هناك أحد فى المقاعد المجاورة يراقبها أو يراقبه؟ أهناك من يراقب ما إذا كانا يتحدثان أو ينظران إلى بعضهما؟ من المؤكد ذلك، أو على الأقل هناك احتمالية لذلك. فقد استجابت لطلبه المنشور فى الجريدة ليكتفى بذلك. ومع ذلك، فلم يشبع فضوله بعد، لكنه على الأقل يعرف بوجود دافنى ثيودوفانوس ـــ الشهيرة بمارى آن ـــ فى لندن. وفى المستقبل، هناك إمكانية لمعرفة ما يحدث. لكنه يجب أن يترك إدارة الحملة لها. فيجب عليه اتباع أفكارها وخططها، فكما أطاعها فى المطار، يجب عليه إطاعتها الآن ويجب الاعتراف بأن الحياة قد أصبحت فجأة أكثر إثارة. فقد كان ذلك أفضل بكثير من المؤتمرات المملة فى حياته السياسية. وهل حاولت سيارة قتله فى الليلة الأخرى؟ إنه يعتقد أن المحاولة كانت حقيقية، فهناك محاولتان لقتله وليست محاولة واحدة. كان من السهل أن يعتقد المرء أن أية حادثة سيارة عبارة عن محاولة قتل، فالناس يقودون سياراتهم بشكل متهور هذه الأيام، مما قد يجعل من السهل عليك أن تظن أن هناك دافعًا غير سوى وراء الحادثة، بينما لا يكون الأمر كذلك. ثم طوى كتيبه ولم ينظر مرة أخرى. وانتهت الموسيقى. وتحدثت المرأة الجالسة بجواره ولم تدر رأسها أو بدا عليها أنها تتحدث إليه، لكنها تحدثت بصوت مرتفع بتنهيدة صغيرة بين الكلمات كما لو كانت تتحدث مع نفسها أو مع جارها على الجانب الآخر.

قالت: ‘‘سيجفريد الشاب’’. وتنهدت ثانية.

وانتهى برنامج الحفل بلحن عسكرى من داى مايستر سينجر. وبعد التصفيق والإطراء الحماسى بدأ الجمهور يغادر مقاعده. وانتظر ليرى إن كانت ستتركه

يخرج قبلها، لكنها لم تفعل. فقد لملمت أطراف معطفها، وسارت خارج صف المقاعد المتجاورة، وبخطوة سريعة بعض الشيء سارت فى الرواق مع الآخرين واختفت فى الزحام.

وأخذ السير ستافورد ناى سيارته من مرآب سيارات القاعة واستقلها عائدًا إلى المنزل. وبوصوله إلى هناك، فرد كتيب قاعة فيستيفال هول على مكتبه وقام بفحصه بعناية، بعدما وضع القهوة فى جهاز الإعداد.

وكان الكتيب مخيبًا للآمال، فلم يبد أن هناك أى رسالة بداخله. بل كانت هناك علامات القلم الرصاص التى رآها بشكل عابر فى صفحة واحدة فوق قائمة فقرات الحفل. لكن لم تكن هناك أى كلمات أو حروف أو حتى أرقام. بل بدت تلك الكتابة مجرد نوتة موسيقية. بدا كما لو أن أحدهم قد كتب مقطوعة موسيقية بما بدا أنه قلم رصاص غير جيد. وفجأة، خطر ببال ستافورد ناى أنها رسالة سرية يمكنه فهم فحواها بتعريضها للحرارة. وبحذر شديد وبخجل من خياله الدرامى المثير أمسك بالورقة وقربها من قضيب الكهرباء الحرارية، لكن لم يحدث شيء. وبتنهيده ألقى بالكتيب على المنضدة مرة أخرى. لكنه شعر بضيق له ما يبرره، فبعد كل هذا الهراء واللقاء على جسر يطل على النهر فى ظروف جوية عاصفة وممطرة! ثم الجلوس بجوار سيدة يتشوق إلى توجيه بعض الأسئلة إليها ـــ ماذا حدث فى نهاية كل ذلك؟ لا يوجد شيء جديد. ومع ذلك فقد قابلته السيدة، فما سبب ذلك؟ فإذا لم تكن راغبة فى الحديث إليه، أو الترتيب للقاء تالٍ بينهما، فلماذا أتت بأية حال؟

ونظر بكسل فى الغرفة من حوله باحثًا عن خزانة كتبه التى يحتفظ فيها بالعديد من الروايات المثيرة: أعمال من الخيال البوليسى وبعض روايات الخيال العلمى؛ ثم هز رأسه مفكرًا: إن الخيال أفضل بكثير من الحياة الواقعية. فالجثث الميتة والمكالمات الهاتفية الغامضة، والجاسوسات الأجنبيات الجميلات، كل ذلك موجود بوفرة! ومع ذلك، فإن الأمر لم ينته بعد بينه وبين هذه السيدة الغريبة المراوغة. وقال لنفسه: فى المرة القادمة سيكون علىّ عمل بعض الترتيبات الخاصة بى. فاللعبة التى تلعبها يمكن لفردين أن يلعباها.

وألقى بالكتيب جانبًا، واحتسى كوبا آخر من القهوة، ثم وقف أمام النافذة ووجد نفسه لا يزال ممسكًا بالكتاب. وبينما كان ينظر للشارع بأسفل عبر تلك النافذة، وقعت عيناه ثانية على الكتيب المفتوح، ثم بدأ يدندن مع نفسه بلا وعى تقريبًا. فأذنه موسيقية ويمكنه دندنة المقطوعات التى كتبت فى كتيب برنامج فقرات الحفل بكل سهولة. وعندما بدأ يدندن بها بدت تلك الألحان مألوفة له، فبدأ يرفع من نبرة صوته، ما الذى لدىَّ الآن؟ تام، تام، تام تام تى ـــ تام. نعم، هذا اللحن مألوف بكل تأكيد.

ثم بدأ يفتح خطاباته.

كانت غير مثيرة فى غالبيتها. فهناك دعوتان، واحدة من السفارة الأمريكية والأخرى من الليدى أثيلهامبتون تدعوه كل منهما لحفل خيرى تنظمه جمعية تشارينى فاريتى سيحضره أعضاء من الأسرة المالكة، وكان مبلغ خمسة جنيهات إسترلينية مقابل تذكرة الدخول ليس بالمبلغ الفادح لحضور الحفل. ألقى الخطابين

جانبًا، فقد كان مترددًا إن كان سيقبل أيًّا منهما. ثم قرر الذهاب لرؤية عمته ماتيلدا كما وعدها بدلاً من البقاء فى لندن. فقد كان مغرمًا بعمته ماتيلدا كثيرًا رغم أنه لم يكن يزورها كثيرًا. وقد كانت تعيش فى شقة تم ترميمها تتكون من سلسلة من الغرف بمثابة جناح فى منزل ريفى كبير مبنى على الطراز المميز لجورج الخامس ورثته عن جد ستافورد ناى. بشقتها غرفة جلوس واسعة مؤثثة بأثاث راقٍ، وبها غرفة طعام بيضاوية ومطبخ جديد مكان غرفة مدبرة المنزل القديمة، وغرفتا نوم للضيوف، وغرفة نوم كبيرة ومريحة وملحق بها حمام، ومكان ملائم للممرضة التى ترافقها فى مرضها وتشاركها حياتها اليومية. فمازالت بقايا الأشياء المنزلية تتم المحافظة عليها وتأمينها. وظل باقى المنزل يعانى من الغبار مع فترات تنظيف دورية. وكان ستافورد ناى مغرمًا بالمكان، فقد قضى عطلات كثيرة هناك خلال طفولته، وقد كان هذا المنزل منزلاً مرحًا فى تلك الفترة لقد عاش عمه الأكبر وزوجته وطفلاه فى هذا المنزل. نعم، فقد كان المنزل لطيفًا وسارًا حينها. وكان هناك أموال وخدم ليعتنوا بهذا المنزل. ولكنه لم يكن يهتم فى تلك الأيام باللوحات العادية ولوحات الوجوه المعلقة بالمنزل. فقد كانت هناك أمثلة كبيرة الحجم على الفن الفيكتورى تحتل أماكن بارزة فى المنزل ـــ تزدحم بها الحوائط، لكن كان هناك سادة آخرون للمنزل أكبر عمرًا. نعم فقد كانت هناك بعض صور الأوجه الجيدة بريشة كل من ريبرن، واثنان للورنس، وجينسبرو، وليلى، واثنين مشكوك فى كونهما بريشة فانديك. وقد تم بيع بعض هذه اللوحات ورسوم الأشخاص لتوفير المال للعائلة. ومع ذلك فهو مازال يستمتع بدراسة صور العائلة عند زيارته للمنزل.

وقد كانت عمته ماتيلدا كثيرة الثرثرة لكنها عادة تستمتع بزياراته، وقد كان يزورها من وقت لآخر، لكنه لا يعلم سبب رغبته المفاجئة فى زيارتها الآن. وما الشىء الذى ذكَّره بصور أفراد عائلته؟ هل ذلك بسبب وجود صورة لأخته باميلا رسمها واحد من الرسامين البارزين منذ عشرين عامًا؟ فهو يرغب فى رؤية صورة باميلا والنظر إليها عن قرب. ويرى مدى قرب التشابه بينها وبين الغريبة التى قلبت حياته رأسًا على عقب بهذا الشكل العنيف.

وأمسك بكتيب برنامج الحفل مرة أخرى بشىء من التوتر وبدأ يدندن النغمات الموسيقية المكتوبة بالقلم الرصاص. تام، تام، تى تام ـــ وبعد ذلك عرف ما اللحن، إنه دافع سيجفريد. فهذا هو ما قالته المرأة الليلة الماضية، ليس له ولا لأى شخص. لكنها كانت رسالة، رسالة لا تعنى أى شىء لأى شخص، لأنها تشير إلى الموسيقى التى كانت تعزف فى الوقت نفسه الليلة الماضية. وقد تمت كتابة المقطوعة فى كتيبه أيضًا بمصطلحات موسيقية. سيجفريد الشاب، من المؤكد أنها تعنى شيئًا ما. حسنًا، ربما سيفهم فيما بعد. سيجفريد الشاب، ما الذى عنته بذلك بحق السماء؟ لماذا وكيف ومتى وماذا؟ يا للسخافة! كل أدوات الاستفهام هذه.

وأمسك الهاتف واتصل برقم العمة ماتيلدا.

"عزيزى ستافى، سيكون من اللطف أن تزورنا. استقل قطار الرابعة والنصف. فهو مازال يعمل كما تعرف، لكنه سيوصلك إلى هنا بعد ساعة ونصف الساعة. فهو يغادر بادينجتون متأخرًا ـــ فى الخامسة وخمسين دقيقة. فهذا ما يقصدونه

بتطوير السكك الحديدية على ما أعتقد. ويتوقف القطار فى العديد من المحطات التى لا داعى لها فى طريقه. على العموم سيقابلك هوراس فى كينجز مارستون''.

''هل مازال هناك؟''.

''بالطبع مازال هناك''.

قال السير ستافورد نای: ''أفترض أنه كذلك''.

هوراس، كان يعمل سائس خيل، ثم حوذيًّا، والآن يعمل سائق سيارة، ومن الواضح أنه مازال كذلك.

قال السير ستافورد مبتسمًا لنفسه: ''لابد أنه الآن فى الثمانين من عمره على الأقل''.

الفصل السادس

بورتريه لسيدة

1

قالت العمة ماتيلدا وهى تتفحصه بنظرات التقدير والإعجاب: ‘‘تبدو لطيفًا جدًّا وبشرتك بنية يا عزيزى. هذا بسبب الملايو على ما أفترض. هل ذهبت إلى الملايو؟ أو إلى سيام أو تايلاند؟ إنهم يقومون بتغيير أسماء هذه البلاد وهو ما يجعل من تذكرها أمرًا شديد الصعوبة. على أية حال، لم تكن فى فيتنام، أليس كذلك؟ فأنا لا أحب أى شىء يتعلق بفيتنام على أية حال. فهى مربكة للغاية، فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية وفيت كونج وفيت ـــ مهما كانت بقية الاسم، فالجميع يريد محاربة بعضهم البعض ولا أحد يرغب فى التوقف. فهم لن يذهبوا إلى باريس أو أى مكان ويجلسوا حول موائد المفاوضات متحدثين بعقلانية. ألا تعتقد يا عزيزى أننى فكرت فى الأمر وتوصلت إلى حل لطيف جدًّا، ألا يمكنك عمل الكثير من ملاعب كرة القدم وبعد ذلك يمكنهم الذهاب ومقاتلة بعضهم هناك، لكن بأسلحة أقل فتكًا. ليس بتلك الأسلحة التى تأتى على الأخضر واليابس، بل مجرد ضرب وركل بعضهم، وسيستمتعون بذلك، سيستمتع الجميع بذلك ويمكنك فرض رسم دخول لمن يرغب فى رؤيتهم. أعتقد أننا لا نقدر معنى إعطاء الأشخاص الأشياء التى يريدونها بالفعل’’.

‘‘أعتقد أنها فكرة رائعة منك، عمتى ماتيلدا’’، قال السير ستافورد ناى ذلك وهو يقبل خد عمته المجعد الأحمر الشاحب، عَطِر الرائحة ثم سألها: ‘‘وكيف حالك، يا عزيزتى؟’’.

قالت الليدى ماتيلدا كليكهيتون: ‘‘حسنًا، أنا عجوز، نعم أنا عجوز. بالتأكيد أنت لا تعلم ما معنى أن تكون عجوزًا. إن لم يكن هناك شىء ما، فهناك شىء آخر. فقد تصاب بالروماتيزم أو التهاب المفاصل أو الربو البغيض أو التهاب الحلق أو الكاحل. كما تعرف، فعادة تصاب بشىء ما. فليس هناك شىء مهم لكن هذه هى الحال. لماذا أتيت لزيارتى، يا عزيزى؟’’.

ذهل السير ستافورد ناى من هذا السؤال المباشر.

‘‘عادة ما آتى لزيارتك عندما أعود من رحلة بالخارج’’.

قالت العمة ماتيلدا: ‘‘عليك الاقتراب والجلوس فى الكرسى المجاور. فأنا مازلت نفس السيدة الصماء التى رأيتها فى آخر زياراتك. تبدو مختلفًا ... لماذا تبدو مختلفًا؟’’.

‘‘لأن بشرتى تعرضت للشمس، فقد قلتِ ذلك للتو’’.

‘‘هراء، ليس هذا ما أقصده. لا تخبرنى بأن تغيرك بسبب فتاة’’.

‘‘فتاة؟’’.

‘‘حسنًا، لقد كنتُ أشعر دومًا بأنها قد تكون مشكلة فى أحد الأيام. والمشكلة هى روح دعابتك الزائدة’’.

‘‘لماذا تفكرين فى هذا الآن؟’’.

‘‘حسنًا، إنه ما يفكر فيه الناس بخصوصك. نعم، فهم يفعلون ذلك. فروح دعابتك تقف فى طريق سيرتك المهنية أيضًا. أتعلم؟ تتعامل كثيرًا مع جميع هؤلاء الأشخاص، دبلوماسيين وسياسيين، ومن يسمونهم صغار رجال الدولة وكبار رجال الدولة وأواسط رجال الدولة الشباب، وكل هذه الأحزاب المختلفة. فى الواقع، أعتقد أن وجود العديد من الأحزاب أمر سخيف. وخصوصًا هؤلاء العمال البغيضين’’. ورفعت أنفها بتكبر قائلة: ‘‘فى شبابى لم يكن هناك مثل هذه الأشياء، مثل حزب العمال. فلا يعلم أحد ما المقصود به، وإذا سألتهم سيقولون لك ‘‘هراء’’. وللأسف لم يكن هراء، وهناك الليبراليون لكنهم سيئون أيضًا. وهناك حزب التوريس، أو المحافظون كما يطلقون على أنفسهم الآن’’.

وسألها السير ستافورد ناى مبتسمًا ابتسامة خفيفة: ‘‘وما أمر هؤلاء؟’’.

‘‘كما تعلم، هناك العديد من النساء المخلصات تنقصهم البهجة’’.

‘‘حسنًا، ليس هناك حزب سياسى يبحث عن البهجة هذه الأيام’’.

قالت العمة ماتيلدا: ‘‘الأمر هكذا، ولذلك أنت تخطئ. فأنت تريد إضافة المرح إلى الحديث. فأنت تريد قليلاً من البهجة فتدخل بعض المزاح فى حديثك مع لا يحبون ذلك بالطبع. فيقولون بالفرنسية: ‘‘هذا الفتى غير جاد’’، كما قال الرجل الذى يصطاد’’.

ضحك السير ستافورد ناى، وكانت عيناه تدوران فى أرجاء الحجرة.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘ما الذى تنظر إليه؟’’.

‘‘صورك’’.

‘‘أنت لا تريدنى أن أبيعها، أليس كذلك؟ فهذه الأيام يبدو أن كل فرد يريد بيع صوره التى رسمها له تيرنر، فاللورد جرامبيون، أنت تعرفه، باع صوره وبعض صور أسلافه. وقد باع جيوفرى جولدمان كل صور جياده اللطيفة التى رسمها ستبس على ما أعتقد. وفى الواقع فالصور تباع بأسعار كبيرة!

‘‘لكننى لا أريد بيع صورى، فأنا أحبها. وأغلب تلك الصور لها أهمية خاصة لأنها صور أسلافى. لا أعلم أحدًا يريد صور أسلافه هذه الأيام، لكننى عتيقة الطراز. فأنا أحب الأسلاف، أقصد أحب أسلافى. ما الذى تبحث عنه؟ أتبحث عن صورة باميلا؟’’.

‘‘نعم، فقد كنت أفكر فيها اليوم السابق’’.

‘‘إن التشابه الذى بينكما يثير العجب. أقصد أنكما كالتوأمين، رغم أن الأطباء يقولون عن مثل ذلك إنهما توأمان مختلفا الجنس، حتى وإن كانا توأمين فلا يمكن

أن يكونا متطابقين إن كنت تعلم ما أقصده''.

''لذلك فمن المؤكد أن شكسبير ارتكب خطأً كبيرًا فى فيولا وسيباستيان''.

''حسنًا، فالإخوة والأخوات العاديون قد يكونون متشابهين، أليس كذلك؟ فأنت وباميلا متشابهان للغاية ـــ أقصد عند النظر إليكما''.

''أولسنا متشابهين فى أى شىء آخر؟ ألا تعتقدين أننا متشابهان فى الشخصية؟''.

''لا، ليس على الأقل. فهذا هو الجزء الغريب فى الأمر. لكن لديك أنت وباميلا ما أسميه بالوجه العائلى. ليس وجه ناى بل أقصد وجه بلدوين وايت''.

لم يكن السير ستافورد ناى قادرًا على منافسة عمته الكبيرة عندما تتحدث فى علم الأنساب.

واستمرت قائلة: ''اعتقدت دائمًا أنك وباميلا تشبهان أليكسا إلى حد كبير''.

''من كانت أليكسا؟''.

''جدة جدة جدتك أو شىء أكثر من ذلك. مجرية، كونتيسة أو بارونة مجرية أو شىء من هذا القبيل. وأعجب بها جد جدك عندما كان فى السفارة بفيينا. نعم، مجرية. هكذا كانت. كما كانت رياضية أيضًا. كل المجريين يحبون الرياضة كما تعلم. كانت تركب الخيول فى رحلات صيد الثعالب. كانت رائعة فى ركوب الخيل. فالخيل ـــ كما تعرف ـــ تأسر قلوب المولعين بها بشكل رائع''.

''هل لها صورة فى معرض الصور؟''.

''فى أول الصالة، أسفل السلالم مباشرة، إلى اليمين قليلاً''.

''يجب أن أذهب وأشاهدها عند ذهابى لغرفة النوم''.

''لماذا لا تذهب وتراها الآن، وبعد ذلك يمكنك العودة والحديث عنها''.

قال لها مبتسمًا: ''سأفعل إذا رغبت فى ذلك''.

واندفع خارجًا من الغرف وتوجه إلى صورة أليكسا قائلاً لنفسه: نعم، فماتيلدا العجوز لديها عين لماحة جدًّا، فهذا هو الوجه، نعم، هذا هو الوجه الذى رآه وتذكره، ولم يتذكره للتشابه الذى بينه وبين الصورة ولا لشبهها لباميلا، لكن لشىء فى هذه الصورة. ففيها توجد فتاة جميلة أتى بها السفير جد جد جد جده، إن كان هذا كافيًا، فالعمة ماتيلدا لا يرضيها عدد الأجداد القليل. وكانت تلك الفتاة فى العشرين من عمرها عندما أتت إلى هذا المنزل. فقد جاءت إلى هنا وكانت سعيدة جدًّا فامتطت صهوة الجواد بشكل بارع، ورقصت بشكل رائع، ووقع الرجال فى غرامها. لكنها كانت مخلصة لجد جد جد جده الذى كان دبلوماسيًّا وقورًا وموثوقًا به. وذهبت معه إلى سفارات أجنبية كثيرة وعادت إلى هنا وقد رزقت بأطفال ـــ ثلاثة أو أربعة أطفال. وعبر أحد أطفالها ورث هو وأخته باميلا وجهها، وأنفها، وشكل رقبتها. وتساءل هل يمكن أن تكون السيدة الشابة، التى وضعت له المخدر فى شرابه وجعلته يقرضها عباءته بعدما ادَّعت أنها ستتعرض للقتل إن لم يفعل ما تطلبه منه، تنتسب إلى أحد أبناء عمومته المسافرين فى الجيل السادس أو الخامس،

من نسل المرأة الموجودة فى الصورة المعلقة التى ينظر إليها. حسنًا، ربما يكون الأمر كذلك، فربما يكون لهم نفس الجنسية. على أية حال فأوجههم تتشابه بشكل كبير فكم كانت منتصبة وهى جالسة فى الأوبرا، وكم كانت استقامة صورة وجهها من الجانب، فهى لها نفس الأنف الرفيع المعقوف بشكل خفيف، وكذلك الجو العام الذى كان يحيط بها.

2

‘‘هل عثرت عليها؟’’. وجهت الليدى ماتيلدا هذا السؤال إلى ابن أخيها عند عودته إلى قاعة الاستقبال، وهو اللقب الذى تسمى به غرفة جلوس منزلها، ثم سألت ثانية: ‘‘وجه مشوق، أليس كذلك؟’’.

‘‘أجل، وجميل جدًّا أيضًا’’.

‘‘كون الوجه مشوقًا أفضل بكثير من كونه جميلاً. لكنك لم تذهب إلى المجر أو النمسا من قبل، أليس كذلك؟ ألم تقابل أى شخص مثلها فى الملايو؟ فهى لم تكن جالسة على مكتب تدون ملاحظات صغيرة أو تصحح الخطب أو أشياء من هذا القبيل. فقد كانت مخلوقًا بريًّا بكل المقاييس، كانت تصرفاتها محببة إلى النفس وكل هذه الأشياء، لكنها كانت شرسة مثل طائر شرس. فهى لم تكن تعرف ما معنى الخطر’’.

‘‘كيف تعرفين الكثير عنها بهذا الشكل؟’’.

‘‘أوه، أقر بأننى لم أكن من معاصريها، فلم أولد إلا بعد سنوات عديدة من موتها. ورغم ذلك، فدائمًا ما كنت مهتمة بها، فقد كانت جسورة كما تعلم، جسورة جدًّا، وهناك روايات غريبة جدًّا رويت عنها وعن أشياء قامت بها’’.

‘‘وكيف تصرف جد جد جد جدى تجاه هذا الأمر؟’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘أعتقد أن هذا الأمر أقلقه حتى موته، فهم يقولون إنه كان مخلصًا جدًّا لها. وبالمناسبة يا ستافى، هل سبق لك أن قرأت سجين زندا؟’’.

‘‘سجين زندا، يبدو الاسم مألوفًا لى’’.

‘‘نعم، بالطبع الاسم مألوف فهو اسم كتاب’’.

‘‘نعم، نعم أدرك أنه كتاب’’.

‘‘أتوقع أنك لا تعرف أى شىء عنه، لكن عندما كنت فتاة كانت تلك الرواية هى أول رواية تعكس روح الحب والمغامرات نطلع عليها. ليس مغنى البوب والبيتلز. بل هى مجرد قصة رومانسية، وفى شبابى لم يكن يسمح لنا بقراءة الكتب. ليس فى الصباح، يمكنك قراءتهن فى فترة ما بعد الظهيرة’’.

قال السير ستافورد: ‘‘يا لها من قواعد غريبة، لماذا يكون من الخطأ قراءة الروايات فى الصباح وليس فيما بعد الظهيرة؟’’.

‘‘حسنًا، ففى الصباح كان من المفترض قيام الفتيات بشىء مفيد، مثل رعاية الأزهار أو تنظيف أطر اللوحات الفضية، فكل تلك الأشياء كانت الفتيات يفعلنها. ثم القليل من الدراسة مع المربية ـــ وكل هذه الأشياء. وبعد الظهيرة كان يسمح لنا بالجلوس وقراءة قصة، وعادة كانت سجين زندا من أوائل الروايات التى أتت إلينا’’.

‘‘أمر لطيف جدًّا، قصة محترمة، أليس كذلك؟ لقد بدأت أتذكرها. أعتقد أننى قرأتها وكانت نظيفة تمامًا وخالية من المشاهد الخارجة، أليس كذلك؟’’.

‘‘بكل تأكيد، فلم يكن لدينا كتب خارجة، بل كانت لدينا القصص الرومانسية، وكانت رواية سجين زندا رومانسية للغاية. وعادة كنا نقع فى الحب مع البطل رودولف راسيندال’’.

‘‘يبدو أننى أتذكر هذا الاسم أيضًا، فهو اسم رومانسى، أليس كذلك؟’’.

‘‘حسنًا، مازلت أعتقد أنه كذلك رغم أننى كنت فى الثانية عشرة من عمرى عندما قرأت هذه الرواية. أتعلم، إن ذهابك لرؤية اللوحة جعلنى أفكر فى الأمر. الأميرة فلافيا’’.

كان ستافورد ناى يبتسم لها.

ثم قال: ‘‘تبدين شابة ورومانسية وفى أوج جمالك’’.

‘‘حسنًا، هذا ما أشعر به بالضبط. فالفتيات فى أيامى لم يكن يفكرن كفتيات هذه الأيام. فهن يغمى عليهن من الحب أو عندما يعزف شخص ما على الجيتار أو يغنى بصوت مرتفع للغاية، لكنهن لسن رومانسيات. لكننى لم أقع فى غرام رودولف راسيندال. بل وقعت فى غرام الشخص الآخر ـــ شبيهه’’.

‘‘هل كان هناك شبيه له؟’’.

‘‘أوه نعم، ملك. ملك ريورتانيا’’.

‘‘نعم، بالطبع فقد عرفت كل شىء الآن. فمن هنا اشتقت الكلمة التى يقولها الكثيرون الآن. أتعلمين؟ أعتقد أننى قرأت هذه الرواية. فملك ريورتانيا ورودولف راسيندال كانا يدعمان الملك وأغرم راسيندال بالأميرة فلافيا خطيبة الملك رسميًّا’’.

تنهدت الليدى ماتيلدا بعمق عدة مرات.

‘‘نعم. فقد ورث رودولف راسيندال شعره الأحمر من أسلافه، وفى أحد أجزاء الرواية ينحنى أمام لوحة لوجه سيدة ويقول شيئًا عن ـــ لا يمكننى تذكر الاسم الآن ـــ الكونتيسة إميليا، أو شيئًا مثل هذا، التى ورث عنها مظهره وباقى صفاته الجسدية. لذلك فقد نظرت إليك وفكرت أنك رودولف راسيندال، ثم خرجت ونظرت إلى لوحة شخص قد يكون من أسلافك ونظرت هل تذكرك تلك الصورة بشخص آخر. لذلك فأنت واقع فى قصة حب من نوع ما، أليس كذلك؟’’.

‘‘ما الذى يجعلك تقولين هذا؟’’.

‘‘حسنًا، فكما تعرف، هناك العديد من الأنماط فى الحياة وأنا أعرف هذه الأنماط عند ظهورها. فهى مثل كتاب تعلم الحياكة، عن خمس وستين غرزة خياطة. فأنت تعرف الغرزة المحددة عند رؤيتك لها. ويمكننى القول إن غرزتك ـــ فى تلك اللحظة ـــ هى المغامرة الرومانسية’’، وتنهدت مردفة: ‘‘لكنك لن تخبرنى بالأمر على ما أعتقد’’.

قال السير ستافورد: ‘‘ليس هناك شىء لأخبرك به’’.

‘‘عادة ما تكون كاذبًا بارعًا. حسنًا، لا تهتم. فسوف تجلبها لرؤيتى فى وقت ما. وهذا ما سأرغب فيه قبل أن ينجح الأطباء فى قتلى بنوع آخر من المضادات الحيوية التى اكتشفوها للتو. الأقراص الطبية الملونة التى علىَّ تناولها الآن! لن تصدق ذلك’’.

‘‘لماذا تستخدمين صيغة المؤنث فى الحديث؟’’.

‘‘ألن تفعل؟ أوه، حسنًا لأننى أعرف المؤنث عندما أقابله. فهناك ‘‘هى’’ تطاردك فى حياتك. ما لا أعلمه هو كيفية عثورك عليها. هل عثرت عليها فى الملايو على مائدة المؤتمر؟ أهى ابنة سفير أو وزير؟ أهى سكرتيرة حسنة المظهر من صندوق السفارات المشترك؟ لا، لا يبدو الأمر كذلك. أقابلتها على متن سفينة وأنت قادم إلى الوطن؟ لا، أنتم لا تستعملون السفن هذه الأيام. ربما قابلتها فى الطائرة’’.

قال السير ستافورد ناى وهو لا يمكنه التصريح بالأمر: ‘‘لقد اقتربتِ كثيرًا’’.

قالت متحفزة: ‘‘آه، أهى مضيفة جوية؟’’.

هزَّ رأسه بالنفى.

‘‘حسنًا، احتفظ بسرك. تذكر أننى سأكتشف الأمر بنفسى. فأنا دائمًا أشعر بالأشياء التى تحدث خاصة التى تكون أنت طرفًا فيها. وبالطبع فأنا بعيدة عن كل شىء هذه الأيام، لكننى أتقابل مع أصدقائى من وقت لآخر، وكما تعرف، فمن السهل جدًّا أن أعرف منهم شيئًا أو شيئين عن الأحداث الجارية. فالأشخاص قلقون ـــ قلقون فى كل مكان’’.

‘‘أتقصدين أن هناك نوعًا من الاستياء ـــ القلق؟’’.

‘‘لا، لم أقصد ذلك، بل أعنى أن الأشخاص ذوو المنزلة الرفيعة يشعرون بالقلق، فحكومتنا المريعة تشعر بالقلق. ووزارة خارجيتنا العجوز الغافلة تشعر بالقلق. فهناك أشياء تحدث، وأشياء يجب ألا تحدث. اضطراب وقلق’’.

‘‘قلق التلاميذ؟’’.

‘‘أوه، قلق التلاميذ مجرد وردة واحدة على الشجرة. فهى تزدهر وتنمو كل يوم وفى كل دولة، أو يبدو الأمر كذلك. وهناك الآن فتاة لطيفة تأتى وتقرأ لى الصحف الصباحية لأننى لم يعد بإمكانى قراءتها بشكل جيد. لديها صوت لطيف وتدون خطاباتى وتقرأ أشياء من الجرائد، فهى فتاة طيبة وصالحة. فهى تقرأ الأشياء التى أريد معرفتها، وليست الأشياء التى تعتقد أنه من الجيد لى معرفتها. نعم، فالجميع

يشعرون بالقلق طالما يمكننى فهم ذلك، وذلك يظهر جليًّا من أحد أصدقائى القدامى''.

''أهو أحد أصدقائك العسكريين القدامى؟''.

''إنه لواء فى الجيش، إن كان هذا ما تقصده، تقاعد منذ سنوات، لكنه مازال تحت الأضواء ومتصل بدوائر المعلومات. فالشباب هو ما يمكنك القول إنه بمثابة رأس الحربة لكل ذلك، لكن ليس هذا ما يثير القلق الشديد بالفعل. فهم ـــ أيًّا كانوا هم ـــ يعملون من خلال الشباب، الشباب الموجود فى كل دولة. الشباب الذى تتم إثارته ويغنى الشعارات التى تبدو مثيرة، رغم أن هؤلاء الشباب لا يدركون المعنى الفعلى لهذه الشعارات. من السهل جدًّا إشعال ثورة، فهذا أمر طبيعى للشباب، فأنت تتمرد وتدمر وتريد تغيير العالم عما هو عليه الآن. لكنك أعمى أيضًا، فهناك العديد من العصابات على أعين الشباب. فلا يمكنهم رؤية إلى أين تسير بهم الحياة. وما الذى سيحدث بعد ذلك؟ وما الشىء الذى يواجهونه؟ ومن وراءهم، يحثهم ويستثيرهم؟ هذا هو الشىء المرعب بخصوص هذا الأمر. أتعلم، هناك شخص ما يمسك الجزرة ليسحب الحمار وراءه، وفى الوقت نفسه هناك شخص ما وراء الحمار يستحثه بالعصا''.

''لديك الكثير من الخيالات الرائعة''.

''هى ليست مجرد خيالات يا بنى العزيز. فهذا ما قاله الناس عن هتلر، هتلر وشباب هتلر. لكنه كان إعدادًا طويلاً ودقيقًا. فقد كانت حربًا مدروسة بشكل مفصل. كانت عبارة عن صف خامس تم زرعه فى دول مختلفة كانت مؤهلة لاستقبال الإنسان السوبرمان. فالانسان السوبرمان كان زهرة الأمة الألمانية. فهذا هو ما فكروا فيه وآمنوا به بكل حماسة. والآن، ربما هناك شخص آخر يؤمن بشىء من هذا القبيل. فهى عقيدة سيكونون راغبين فى قبولها ـــ إذا تم عرضها وتقديمها بشكل بارع بما فيه الكفاية''.

''من الذى تتحدثين عنه؟ أتقصدين الصينيين أو الروس؟ ما الذى تقصدينه؟''.

''لا أعلم فليست لدىَّ أدنى فكرة عن الأمر. لكنَّ هناك شيئًا ما فى مكان ما يسير على نفس المنوال. أترى، ها قد وجدنا أنفسنا أمام نمط مرة أخرى. نمط الروس؟ لقد غرستهم الشيوعية وأعتقد أن الآخرين يعتبرونهم قديمى الطراز. الصينيون؟ أعتقد أنهم قد ضلوا طريقهم، ربما أخذ الرئيس ماو أكثر من وقته. لا أعلم من هؤلاء الأشخاص الذين يقومون بالتخطيط، فكما قلت من قبل، إنه: لماذا وأين ومتى ومن''.

''شيق للغاية''.

''بل مخيف للغاية، إنها نفس الفكرة التى تواترت، فالتاريخ يعيد نفسه. البطل الشاب، السوبرمان الذهبى الواجب على الجميع اتباعه''، توقفت قليلاً ثم أكملت قائلة: ''أتعلم، إنها نفس الفكرة. سيجفريد الشاب''.

الفصل السابع

نصيحة من العمة ماتيلدا الكبرى

نظرت إليه العمة ماتيلدا الكبرى، كانت تتمتع بعينين حادتين ثاقبتين، وقد لاحظ ستافورد ناى ذلك من قبل لكنه لاحظ ذلك بصورة أكبر فى تلك اللحظة.

قالت: ‘‘إذن، أرى أنك قد سمعت هذا المصطلح من قبل’’.

‘‘وما الذى يعنيه ذلك؟’’.

رفعت حاجبيها: ‘‘ألا تعلم؟’’.

قال السير ستافورد بلغة مربيات الأطفال: ‘‘مزقى قلبى وتمنى الموت لى إن كنت أعلم’’.

قالت السيدة ماتيلدا: ‘‘نعم، اعتدنا دائمًا أن نقول ذلك. أتقصد بالفعل ما قلته؟’’.

‘‘لا أعلم أى شىء عن هذا الأمر’’.

‘‘لكنك سمعت المصطلح من قبل’’.

‘‘نعم، فقد قاله شخص ما لى’’.

‘‘هل هو شخص مهم؟’’.

‘‘ربما يكون كذلك. أفترض أنه مهم، فما الذى تعنيه بـ’’شخص مهم’’؟’’.

‘‘حسنًا، فقد كنت تقوم بالعديد من المهمات الحكومية فى الفترة الأخيرة، أليس كذلك؟ وقد مثلت هذه الدولة المسكينة البائسة بأفضل ما فى وسعك، ولا أشعر بالدهشة من أنك قمت بأفضل مما يمكن للكثيرين أن يفعلوه وهم يجلسون حول الموائد ويتحدثون. لا أعلم إن كان هناك أى شىء ينتج مما يفعلونه فى تلك الأمور الشكلية’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘ربما لا، فبعد كل شىء لا يكون الفرد متفائلاً عندما يذهب إلى هذه الأشياء’’.

قالت السيدة ماتيلدا مصححة له كلامه: ‘‘الفرد يعمل ما فى وسعه’’.

‘‘هذا من المبادئ الإنسانية الحقيقية. فى أيامنا هذه إذا قام الفرد بأسوأ ما عنده فقد أموره بشكل أفضل. ما الذى يعنيه كل هذا، عمتى ماتيلدا؟’’.

قالت عمته: ‘‘لا أفترض أننى أعلم’’.

‘‘حسنا، عادة تعلمين الأشياء’’.

‘‘ليس بالضبط. أنا فقط ألتقط بعض الأشياء والملاحظات من هنا وهناك’’.

‘‘نعم؟’’.

‘‘كما تعلم، فلم يتبق إلا القليل من أصدقائى الذين مازالوا تحت الأضواء ولديهم معلومات مهمة. وبالطبع أغلبهم أصابه الصمم أو أصبحوا نصف عميان أو فى المستشفيات أو غير قادرين على المشى بشكل سليم. لكنَّ هناك شيئًا لا يزال يعمل، لنقل إنه يعمل هنا بأعلى’’، وأشارت إلى قمة رأسها ذات الشعر الأبيض المصفف جيدًا قائلة: ‘‘هناك مقدار واضح من التحفز والكآبة بشكل أكثر من المعتاد. وهذا واحد من الأشياء التى التقطتها’’.

‘‘ولكن ألا يوجد دائمًا تحفز وكآبة؟’’.

‘‘نعم، نعم لكن الأمر أكثر من ذلك بقليل. بمعنى: كن نشطًا بدلاً من أن تكون إيجابيًّا. فلوقت طويل ـــ كما لاحظت أنا من خارج الحركة الدبلوماسية وأنت من داخلها، شعرنا بأن الأمور فى حالة فوضى، فوضى سيئة. لكن الآن فقد وصلنا إلى نقطة نشعر فيها بضرورة عمل شىء ما تجاه هذه الفوضى، فهناك عنصر خطر فيها. شىء ما يحدث، شىء يتكون، ليس فى دولة واحدة فقط بل فى العديد من الدول. فقد وضعوا خدمة خاصة بهم والخطير فى هذا الموضوع أنهم يجندون الشباب، وهم نوع من الناس سيذهبون لأى مكان ويفعلون أى شىء ـــ ولسوء الحظ ـــ يفعلون أى شىء طالما أنهم حصلوا على وعد بمقدار محدد من الدمار والخراب وإيقاف عجلة التطور وبعد ذلك يفكرون فى سبب جيد لذلك وهو أن العالم سيكون مكانًا مختلفًا عما هو عليه. فهم ليسوا مبدعين خلاقين ـــ وهذه هى المشكلة ـــ بل هم مدمرون فقط. فالشباب المبدع يكتب الأشعار والكتب، وربما يلحن مقطوعات موسيقية ويرسم لوحات كما اعتدنا على ذلك. فالشباب سيكونون بحال جيدة لكن حين يتعلم الأشخاص حب الدمار من أجل الدمار فستحصل قيادة الشر على فرصتها’’.

‘‘قلتِ ‘‘هم’’، من تقصدين بـ ‘‘هم’’؟’’.

قالت السيدة ماتيلدا: ‘‘أتمنى لو كنت أعلم، نعم أتمنى ذلك. لكنهم كثر بكل تأكيد وإذا سمعت أى شىء مفيد بخصوص هذا الأمر فسأخبرك، لتتمكن من القيام بشىء إزاءه’’.

‘‘لسوء الحظ، لا أعرف أحدًا لأخبره، أقصد لأنقل له الأخبار’’.

‘‘نعم، لا تنقل الأخبار لأى شخص فلا يمكنك الوثوق بالناس. لا تنقل هذا الخبر إلى أى فرد من هؤلاء الحمقى الموجودين فى الحكومة أو المرتبطين بالحكومة أو الذين يأملون فى المشاركة بالحكومة بعد ذلك. فالسياسيون ليس لديهم الوقت لينظروا إلى العالم الذى يعيشون فيه. فهم يرون الدولة التى يعيشون فيها كرصيف انتخابى واسع. وذلك أمر كافٍ تمامًا ليرتبوا أمورهم. فهم يفعلون الأشياء التى يؤمنون بأنها ستجعل الأمور أفضل ويشعرون بالدهشة عندما لا تجعلها أفضل، والسبب أن تلك الأشياء ليست هى الأشياء التى يريدها الأشخاص. ويتوصل الفرد إلى استنتاج وهو أن السياسيين يشعرون بأن لديهم نوعًا من الحق الإلهى ليكذبوا من أجل سبب جيد. ولم يمض وقت طويل على عبارة السيد بلدوين الشهيرة ـــ ‘‘لو قلت الحقيقة لكنت خسرت الانتخابات’’، فمازال رؤساء الوزراء يشعرون

بنفس هذا الشعور. فمن وقت لآخر يأتينا رجل عظيم، الحمدلله، لكن هذا أمر نادر الحدوث".

"حسنًا، ما الذى تقترحين فعله؟".

"أتطلب نصيحتى؟ نصيحتى؟ أتعلم كم صرت عجوزًا؟".

قال ابن أخيها مخمنًا: "تناهزين التسعين من عمرك".

قالت السيدة ماتيلدا وهى تشعر بقليل من الإهانة: "لست عجوزًا إلى هذا الحد، هل أبدو هكذا، فتاى الغالى؟".

"لا يا عزيزتى، تبدين لطيفة فى السادسة والستين من عمرك بشكل معقول".

قالت الليدى ماتيلدا: "هذا أفضل، نعم ليس بالأمر الصحيح لكنه أفضل. إذا حصلت على أى معلومة مفيدة من أى نوع من أصدقائى لواءات البحرية والحربية وربما الجوية القدماء ـــ فهم يسمعون أشياء كما تعرف ـــ فمازال لهم أصدقاء لم يزالوا فى الخدمة ويجلسوا مع تلاميذهم القدامى ويتحدثوا معهم وبذلك تأتى المعلومات. فعادة توجد شائعات ولا يهم من يقولها. سيجفريد الشاب. نحن نريد مفتاحًا يدلنا على ما الذى قصدته به المرأة الشابة ـــ لا أعلم إن كان شخصًا أو كلمة مرور أو اسم نادٍ أو مغنى موسيقى البوب. لكن هذا المصطلح يخفى شيئًا ما، فهناك دافع غنائى أيضًا. فقد نسيت أيام ذهابى إلى حفلات فاجنر". وتحشرج صوتها مخرجًا لحنًا مألوفًا له "نداء بوق سيجفريد، أليست هى؟ لم لا تشترى لنفسك جهاز تسجيل؟ أعنى بالفعل جهاز تسجيل. لا، لا أعنى المسجل الذى تضعه فى الفونوغراف، بل أعنى الأشياء التى يلعبها أطفال المدارس. ولديهم فصول لذلك. ذات يوم، دخلت فى نقاش حول هذا الأمر، فقد اشترى أحد أعيان المنطقة واحدًا. أتعلم، فهذا الأمر ممتع للغاية، فنحن نتتبع تاريخ أجهزة التسجيل التى ظهرت منذ العهد الإليزابيثى حتى الآن. بعضها كبير، وبعضها صغير وجميعها مختلفة فى الأصوات والألحان. وهذا أمر ممتع جدًّا من جانبين. الجانب الأول هو المسجلات أنفسها، فبعضها تصدر أصواتًا محببة، أما الجانب الثانى فهو التاريخ. نعم. حسنًا، ما الذى كنت أقوله؟".

"أخبرتنى بأن أشترى جهاز تسجيل، على ما أعتقد".

"نعم، اشترِ جهاز تسجيل وتعلم عزف نداء بوق سيجفريد. فأنت موسيقى، فقد كنت دائمًا كذلك. يمكنك عمل ذلك وهذا ما آمله؟".

"حسنًا، يبدو هذا جزءًا صغيرًا جدًّا لألعبه فى حملة تخليص العالم، لكن يمكننى القول إنه يمكننى ذلك".

"ويجب أن تكون خططك جاهزة. لأنك كما تعلم"، ونقرت على المنضدة بجراب نظارتها وتابعت: "فى بعض الأوقات، قد تحتاج إليه لتؤثر فى الأشخاص الخطأ، فيجب الاستفادة من ذلك لأنهم سيستقبلونك ويرحبون بك وبذلك يمكنك تعلم القليل".

قال السير ستافورد بكل تقدير: "من المؤكد أن لديكِ أفكارًا".

قالت عمته الكبرى: ‘‘ما الأشياء الأخرى التى تكون متاحة لك عندما تكون فى مثل سنى؟ لا يمكنك التحرك، ولا يمكنك التفاعل مع الناس كثيرًا، ولا يمكنك عمل أى شىء للعناية بحديقتك. كل ما يمكنك عمله هو الجلوس على مقعدك والتفكير. تذكر ذلك بعد أربعين عامًا أخرى من عمرك’’.

‘‘هناك ملاحظة واحدة فقط أثارت انتباهى’’.

قالت السيدة ماتيلدا: ‘‘واحدة فقط؟ هذا معيار قليل وضعيف إذا نظرنا إلى كمية ما قلته. عمومًا، ما هذه الملاحظة؟’’.

‘‘قلت إننى قد أكون قادرًا على التأثير فى الأشخاص الخطأ بجهاز التسجيل الخاص بى ـــ هل كنتِ تقصدين ذلك فعلاً؟’’.

قالت بتأمل: ‘‘حسنًا، إنها إحدى الطرق، أليس كذلك؟ فالأمر لا يهم مع الأشخاص الصحيحين. لكن بالنسبة للأشخاص الخطأ ـــ حسنًا سيكون عليك اكتشاف الأشياء، أليس كذلك؟ سيكون عليك اختراق الأشياء كخنفساء ساعة الموت’’.

‘‘إذن سيكون علىَّ عمل ضوضاء مميزة فى الليل؟’’.

‘‘نعم، شىء من هذا القبيل. ففى إحدى المرات كانت هناك خنفساء ساعة الموت فى الجناح الأيمن. وكلفنا إخراجها ثمنًا غاليًا، ويمكننى القول إن وضع العالم فى السياق الصحيح سيكون غاليًا أيضًا’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘فى الواقع سيكون أغلى بكثير’’.

قالت السيدة ماتيلدا: ‘‘لن يهم هذا الأمر، فالأشخاص لا يمانعون فى إنفاق مبالغ كثيرة من النقود. فذلك يؤثر فيهم. وعندما تسير الأمور بشكل اقتصادى فإنها لا تسير على نحو جيد ومع ذلك فنحن نفس الأشخاص، أعنى فطباع أهل هذه البلاد لن تتغير’’.

‘‘ما الذى تقصدينه بذلك؟’’.

‘‘يمكننا عمل أشياء كبيرة، فنحن نسير الإمبراطورية بشكل جيد. لكننا لم نكن جيدين فى المحافظة عليها، وقد أدركنا بعد ذلك عدم حاجتنا لإمبراطورية. فمن الصعب جدًّا متابعة ذلك الأمر، فقد جعلنى روبى أرى ذلك وأدركه’’.

تساءل ستافورد ناى: ‘‘روبى؟’’. كان هذا الاسم يبدو بالكاد مألوفًا.

‘‘روبى شورهام. روبرت شورهام، فهو صديق قديم جدًّا لى. أصيب بشلل فى نصفه الأيسر لكنه مازال قادرًا على الكلام ولديه وسائل جيدة تعينه على السمع’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘وذلك بالإضافة إلى كونه واحدًا من أشهر الفيزيائيين فى العالم، إذن فهو واحد من أصدقائك القدامى؟’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘أنا أعرفه منذ كان صبيًّا. أعتقد أن صداقتى معه ووجود الكثير من الأمور المشتركة بيننا واستمتاعنا بالحديث إلى بعضنا قد فاجأك؟’’.

‘‘حسنا، لم أعتقد أن ـــــ’’.

‘‘إن لدينا الكثير لنتحدث عنه؟ هذا صحيح فلا يمكننى أبدًا التعامل مع الرياضيات. ولحسن الحظ لم يحاول ذلك أبدًا عندما كنت فتاة. أعتقد أن الرياضيات كانت سهلة لروبى عندما كان فى الرابعة من عمره، لكنه يقولون هذه الأيام إن ذلك أمر طبيعى تمامًا. وهو لديه الكثير ليتحدث عنه وهو عادة يحبنى لأننى كنت مرحة وأضحكه كثيرًا، بالإضافة إلى كونى مستمعة جيدة أيضًا. وهو يقول بعض الأشياء الممتعة فى بعض الأحيان’’.

قال السير ستافورد فى لهجة جافة: ‘‘إذن أنا أفترض’’.

‘‘الآن، لا تكن مترفعًا. فموليير تزوج خادمته، أليس كذلك؟ وحقق نجاحًا كبيرًا ـــ إذا كان موليير هو من أقصده. إذا كان الشخص مهووسًا بالعقول فلن يحتاج لامرأة مهووسة بالعقول أيضًا ليتكلم معها، لأن الأمر سيكون مرهقًا جدًّا. وسيفضل امرأة تافهة لطيفة تضحكه، فأنا لم أكن قبيحة المظهر فى شبابى’’. وأضافت السيدة ماتيلدا برضا وثقة فى النفس: ‘‘أعلم أننى ليست لدى أية امتيازات أكاديمية، ولست مفكرة على الأقل. لكن روبرت قال لى كثيرًا إننى أمتلك مقدارًا كبيرًا من البداهة والذكاء’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘أنتِ إنسانة محبوبة، فأنا أستمتع بزيارتك وسأتذكر كل الأشياء التى قلتها لى. وأنا أتوقع أن هناك الكثير من الأمور التى يمكنك إخبارى بها، لكن من الواضح أنك لن تفعلى ذلك’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘حتى تأتى اللحظة المناسبة، وأنا أهتم بمصلحتك من كل قلبى. والآن دعنى أعلم ما الذى تفعله من وقت لآخر. هل ستتناول العشاء فى السفارة الأمريكية الأسبوع المقبل؟’’.

‘‘كيف عرفتِ بالأمر؟’’.

‘‘وقد قبلت الدعوة، أليس كذلك؟’’.

‘‘حسنًا، هذا الأمر يعد نوعًا من الواجب’’، ثم نظر إليها بفضول متسائلاً: ‘‘كيف عرفتِ الأمر؟’’.

‘‘أوه، ميلى أخبرتنى’’.

‘‘ميلى؟’’.

‘‘ميلى جين كورتمان، زوجة السفير الأمريكى. كما تعلم فهى مخلوق جذاب جدًّا، فهى صغيرة ورائعة المظهر’’.

‘‘أوه، أنتِ تعنين ميلدريد كورتمان’’.

‘‘هذا اسمها الأصلى، لكنها تفضل مناداتها بميلى جين. كنت أتحدث معها عبر الهاتف بخصوص حفل صباحى خيرى أو ما اعتادت تسميته فينوس الجيب’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘مصطلح جذاب جدًّا’’.

الفصل الثامن

عشاء السفارة

1

تذكر السير ستافورد ناى المصطلح الذى استعملته عمته الكبرى عندما أتت السيدة كورتمان لتقابله وهى تمد يدها لتصافحه. وكانت ميلى جين كورتمان امرأة يتراوح عمرها بين الخامسة والثلاثين والأربعين. ولديها ملامح رقيقة، عينان باللون الأزرق ورأس جميل الشكل وشعر باللون الرمادى المائل إلى الزرقة صُبغ بشكل جميل وممتاز يتلاءم معها. وقد كانت محبوبة جدًّا فى لندن. وزوجها، سام كورتمان، كان رجلاً ضخمًا ثقيل الوزن ومملاً نوعًا ما. فقد كان واحدًا من المتحدثين البطيئين الذين يبالغون فى تأكيد كلامهم. ويشعر الناس بتشتت انتباههم عندما يستغرق السيد كورتمان وقتًا طويلاً فى شرح فكرة تحتاج إلى حمل ذلك التوضيح.

‘‘لقد عدت من الملايو سير ستافورد، أليس كذلك؟ من المؤكد أن الذهاب إلى هناك كان ممتعًا للغاية، رغم أن هذا ليس هو الوقت من العام الذى كنت سأختاره. لكننى متأكدة أننا جميعًا نشعر بالسعادة لرؤيتك عائدًا إلى أرض وطنك. والآن دعنى أخمن، أنت تعرف السيدة ألدبورو والسير جون، والهر فون روكين والفراو فون روكين، والسيد والسيدة ستاجينهام’’.

كان كل هؤلاء أشخاصًا معروفين لستافورد ناى بدرجة أو بأخرى. فقد كان هناك رجل ألمانى وزوجته لم يسبق له مقابلتهما ربما لأن الرجل لم يتقلد منصبه بعد. وكان ستاجينهام هو وزير التأمينات الاجتماعية وزوجته ويعتقد السير دائمًا أنهما زوجان مملان.

‘‘والكونتيسة ريناتا زيركوسكى. أعتقد أنها ذكرت أنكما تقابلتما من قبل’’.

قالت الكونتيسة: ‘‘لابد أن ذلك كان منذ عام مضى، فى آخر مرة كنت فيها فى إنجلترا’’.

وكانت هناك، المسافرة من فرانكفورت مرة أخرى. واثقة من نفسها، هادئة تمامًا، وأصبحت جميلة جدًّا وترتدى شالاً من الفرو الثمين. وكان شعرها مصففًا لأعلى (شعر مستعار؟) وهناك قلادة حول عنقها بها زهرة عتيقة التصميم مصنوعة من الياقوت.

‘‘السنيورا جاسبارو، الكونت رايتنر، السيد والسيدة أربتهنوت’’.

قدمت له السيدة كورتمان ستة وعشرين شخصًا. وعند العشاء جلس السير ستافورد ناى بين الكئيبتين السيدة ستاجينهام والسنيورا جاسبارو. وجلست ريناتا زيركوسكى فى مقابلته.

عشاء فى السفارة. عشاء حضره كثيرًا، وتحمل الكثير من هذا النوع من الضيوف. أعضاء متنوعون من الهيئة الدبلوماسية، ووزراء لوزارات غير هامشية، وواحد أو اثنان من رجال الصناعة، عدد متنوع من رجال المجتمع كانوا محاورين جيدين وأشخاصًا طبيعيين تستمتع بمقابلتهم، باستثناء فرد أو اثنين ـــ وهذا رأى ستافورد ناى ـــ كانا مختلفين عنهم. حتى خلال حديثه مع السنيورا جاسبارو وهى شخصية ساحرة وثرثارة ومتملقة قليلاً؛ كان عقله يسير فى نفس الطريق الذى تسير فيه عيناه رغم أن حركة الأخيرة لم تكن ملحوظة بشكل واضح. وبسير عينيه حول مائدة الطعام، لا يمكنك القول إنه يضع استنتاجات فى عقله. فقد سألها. لماذا؟ لأى سبب ولا سبب بالتحديد. لأن اسمه ظهر بشكل تلقائى على القائمة التى تقدمها السكرتارية من وقت لآخر بشيكات للأعضاء، أو كرجل إضافى أو امرأة إضافية لإكمال عدد الجالسين على المنضدة. وقد كان دائمًا تحت الطلب عند الحاجة إلى شخص إضافى.

وكانت المضيفة الدبلوماسية تقول: "أوه، نعم. سيؤدى ستافورد ناى ذلك بشكل لطيف. ستجلسه بجوار مدام كذا وكذا، أو الليدى كذا".

ولم يطلبوا منه الجلوس على أى منضدة إلا لذلك السبب، وقد تساءل عن سبب ذلك. وهو يعلم بخبرته وجود أسباب خاصة أخرى.

وكانت عيناه المليئتان بالود والاجتماعية واللتان تعطيانك شعورًا عامًا بأنهما لا تنظران إلى أى شىء تحديدًا، مشغولتين.

ومن بين هؤلاء الضيوف كان هناك شخص ما ربما كان مهمًّا. شخص ما يطلبون منه ـــ وليس ليملأ مكانًا وحسب ـــ أن يختار الضيوف الآخرين ليجلسوا حوله أو حولها على المائدة. وتساءل السير أى الضيوف يفعلون معه ذلك؟

بالطبع كان السيد كورتمان يعلم، وربما كانت ميلى جين تعلم أيضًا. فالمرء لا يعلم كيف تسير حال الزوجات، فبعضهن كن دبلوماسيات أفضل من أزواجهن، فقد يعتمدن كثيرًا على سحرهن وتكيفهن مع الظروف واستعدادهن لإسعاد الآخرين ومجاملتهن وكذلك عدم إظهار فضولهن. والبعض الآخر من الزوجات ـــ فكر السير فى نفسه بحسرة ـــ كن بمثابة كوارث لأزواجهن. فرغم أن بعض المضيفات أضفن نقودًا أو وضعًا اجتماعيًّا لأزواجهن، إلا أنهن كن قادرات على قول أو عمل الشىء الخطأ فى أى لحظة وخلق مواقف غير ملائمة. وإذا تطلب الأمر الحماية فسيتطلب الأمر أحد الضيوف أو اثنين أو حتى ثلاثة منهم ليكونوا ما يمكن للمرء تسميتهم بحلالى المشاكل المحترفين.

هل يعنى حفل العشاء هذا أى شىء إلا حدثًا اجتماعيًّا؟ ولاحظ بنظرة سريعة وفاحصة حول مائدة العشاء شخصًا أو شخصين فقط لم يفهما هذا الأمر بشكل كلى. رجل أعمال أمريكى، لطيف لكنه ليس بارعًا اجتماعيًّا. وأستاذ جامعة من إحدى جامعات الغرب الأوسط. والزوجان، الزوج كان ألمانيًّا، أما زوجته فقد كانت تبدو أمريكية جدًّا، وامرأة جميلة وجذابة جدًّا. هل هناك أحد منهم مهم؟ وبدأت الاختصارات تطفو فى عقله، إف. بى. آى، و سى. آى. إيه. ربما كان رجل الأعمال عميلاً للسى. آى. إيه ويحضر الحفل لسبب محدد. فالأمور تسير بمعايير

هذه الأيام وليست المعايير المعتادة. كيف اختفت المعادلة؟ الأخ الأكبر يراقبك الآن. حسنًا، لقد أصبح الأمر أبعد من ذلك الآن. فهناك ابن عم لك من بلاد ما وراء الأطلنطى يراقبك. وهناك رجل أعمال كبير من وسط أوروبا يراقبك. وستكون هناك مشكلة دبلوماسية كبيرة إذ طلبوا منك أن تراقبه. أوه، نعم. فعادة هناك الكثير من الأمور وراء الأشياء فى هذه الأيام. لكن هل كان ذلك مجرد معادلة، طراز آخر؟ هل يمكن للأمر أن يعنى أكثر من ذلك، شيئًا محوريًّا وحقيقيًّا؟ كيف يمكن للمرء أن يعلق على الأحداث فى أوروبا الآن؟ السوق المشتركة. نعم، هذا يكفى تمامًا، فالأمر يتعلق بالتجارة والاقتصاد والعلاقات بين الدول.

كانت هذه هى معالم المشهد التى استطاع الوصول إليها، ولكن ما وراء المشهد، فى الكواليس كان ينتظر فقط أية دلالة، جاهزًا للتحرك فى سرعة إذا تطلب الأمر التحرك السريع وتساءل السير ستافورد ناى ما الذى كان يحدث؟ أقصد فى هذا العالم الكبير وما وراء هذا العالم؟

وقال لنفسه: هناك بعض الأشياء أعرفها، وأشياء أخرى أخمنها، وأشياء أخرى لا أعرف عنها شيئًا على الإطلاق ولا يريد أحد أن أعرف أى شىء عنها.

ولدقيقة ثبتت نظراته على شبيهته التى كانت تجلس فى مواجهته وذقنها مائل للأمام، وتقوس فمها فى ابتسامة مهذبة وتلاقت أعينهما. ولم تخبره هذه العيون ولا هذه الابتسامة بأى شىء. ما الذى تفعله هنا؟ فهى فى مجالها ومحيطها والأمر يلائمها، فهى تعرف ذلك العالم. نعم، فهى تشعر بالراحة هنا. ويمكنه أن يستنتج بدون أى صعوبة مركزها ووضعها فى الحقل الاجتماعى، لكن هل سيخبره ذلك ما مركزها بالضبط؟

فالسيدة الشابة التى كانت ترتدى ملابس فضفاضة وتحدثت له بشكل مفاجئ فى مطار فرانكفورت لها وجه يبدو عليه الذكاء الشديد. هل تلك هى المرأة الحقيقية، أو أحد معارفها الاجتماعيين أو أقاربها؟ هل تمثل إحدى هاتين الشخصيتين؟ بمعنى أن هذا كان دورًا تلعبه؟ وإن كان الأمر كذلك، فأيهما؟ وقد يكون هناك أكثر من هاتين الشخصيتين. وتساءل، فقد كان راغبًا فى كشف ذلك الأمر.

وهل كانت حقيقة أنه يرغب فى رؤيتها مجرد مصادفة عادية؟ ونهضت السيدة ميلى جين ونهضت معها السيدات الأخريات. وفجأة سمع الجميع جلبة عالية، جلبة عالية من خارج المنزل، صيحات وصرخات، وصوت تحطم زجاج إحدى النوافذ، صيحات وأصواتًا بدت كأنها أصوات طلقات نارية من مسدس بكل تأكيد. وتحدثت السنيورا جاسبارو وهى متشبثة بذراع السير ستافورد ناى.

صرخت قائلة: "وماذا ثانية! يا إلهى! هؤلاء الطلبة المريعون. نفس الأمر يحدث فى بلادنا. لماذا يهاجمون السفارات؟ فهم يتعاركون، ويقاومون الشرطة ـــ وينظمون مسيرات، ويهتفون بأشياء حمقاء، ويجلسون فى الشوارع، إلخ. لدينا مثلهم فى روما وميلان. فهم مثل الوباء والحشرات المؤذية فى جميع أنحاء أوروبا. لماذا لا يشعر هؤلاء الشباب بالسعادة قط؟ ما الذى يريدونه؟".

وارتشف ستافورد ناى شرابه واستمع إلى لهجة السيد تشارلز ستاجينهام الثقيلة، الذى كان يأخذ وقته وأكثر من وقته فى حديثه. تمت السيطرة على شغب الطلبة

وبدا الأمر كما لو قامت الشرطة بسحب بعض الأشخاص المتحمسين. فقد كان ذلك شيئًا من تلك الأشياء التى اعتقدها السير ستافورد ناى أمورًا استثنائية ومنبهة إلى وجود خطر ما لكنها الآن تعتبر بمثابة أمور طبيعية.

"قوة شرطة أكبر، هذا ما نحتاج إليه، فوجود قوة شرطة أكبر عددًا لن يستطيع هؤلاء الغلمان التعامل معها. وهم يقولون إن الأمر متشابه فى كل مكان، فقد كنت أتحدث إلى الهر لورفيتز بالأمس ولديهم مشاكلهم وكذلك الفرنسيون، والمشاكل ليست كثيرة فى الدول الاسكندنافيه. ما الذى يريده كل هؤلاء الشباب ـــ أيريدون المشاكل فقط؟ سأخبرك بأننى إذا قمت..."

لكن فى ذلك الوقت كان ستافورد ناى قد حول انتباهه إلى شىء آخر مع الإبقاء على مظهره المتابع لحديث تشارلز الذى كان يشرح ما كان سيقوم به، وهو الأمر الذى يمكن توقعه مسبقًا بكل سهولة.

"يصيحون بخصوص فيتنام وكل هذه الأمور. ما الذى يعرفه أىٌّ منهم عن فيتنام. فلم يذهب أحدهم من قبل إلى هناك، أليس كذلك؟".

قال السير ستافورد ناى: "تفكيرنا مختلف فى هذا الأمر".

"هذا المساء، أخبرنى رجل ما بأن لديهم الكثير من المشاكل فى كاليفورنيا. فى الجامعات ـــ إن كان لدينا سياسة عقلانية..."

والآن انضم الرجال إلى النساء فى غرفة الاستقبال. وتحرك ستافورد ناى بسمو وبشكل بطىء، فقد وجد المناخ العام عديم الهدف مفيدًا جدًّا فى تلك الليلة، وجلس بجوار سيدة ثرثارة ذهبية الشعر تعرفه جيدًا وهى الوحيدة التى يمكنها قول شىء ما جدير بالاستماع إليه فيما يتعلق بالأفكار أو الفكاهة، لكنها كانت تتعرف على مرافقيها بشكل مفرط فى حدود المعارف. وسألها السير ستافورد ناى أسئلة غير مباشرة، وبدون أن تدرك السيدة الطرق التى أدار بها الحديث فقد راح يسمع بعض الملاحظات عن الكونتيسة ريناتا زيركوفسكى.

"مازالت جميلة وحسنة المظهر، أليس كذلك؟ وهى لا تأتى كثيرًا إلى هنا هذه الأيام. ففى أغلب الأوقات تكون فى واشنطن أو تلك الجزيرة الرائعة. أتعلم الجزيرة التى أقصدها؟ ليست مينوركا، بل هى واحدة من جزر البحر المتوسط الأخرى. فقد تزوجت أختها من هذا الملك التافه، على الأقل أعتقد أنه كذلك، وهو ليس يونانيًّا بل سويدى فاحش الثراء على ما أعتقد. وبالطبع فهى تقضى الكثير من الوقت فى جبال الدولوميت بإيطاليا ـــ أو قرب ميونيخ ـــ، وهى عاشقة للموسيقى كما كانت دائمًا. وتقول إنكما تقابلتما من قبل، أليس كذلك؟".

"نعم، منذ عام أو عامين على ما أعتقد".

"أوه، نعم. أعتقد أنكما تقابلتما عندما كانت فى إنجلترا من قبل. يقولون إنها كانت تعمل فى الشأن التشيكوسلوفاكى، أو ربما المشكلة البولندية. الأمر صعب جدًّا أليس كذلك؟ أعنى كل هذه الأسماء. فهناك العديد من حروف السين والكاف فى الأسماء هناك، والأسماء غريبة وصعبة النطق. وهى أديبة جيدة، أتعلم، فهى تقدم العرائض ليوقع عليها الأشخاص لتوفر ملاذًا للكُتَّابِ هنا أو فى أى مكان آخر.

وهذا ليس ما يهتم به أى شخص، أقصد ما الذى يهتم به الناس فى هذ الأيام غير دفع ضرائبهم الخاصة. وقد جعلت تصريحات السفر الأمور أفضل قليلاً. أعنى أن عليك أن تحصل على المال قبل أن تسافر به إلى الخارج. لا أعلم طريقة يستطيع بها أى فرد الحصول على أموال الآن، لكن هناك الكثير من الأموال. نعم، فهناك الكثير منها''.

ونظرت لأسفل نظرة راضية إلى يدها اليسرى، وكانت ترتدى فيها خاتمى سوليتير أحدهما ماسى والآخر زمردى، الأمر الذى يثبت إنفاق مبلغ محترم من المال ـــ على الأقل ـــ عليها.

وكانت الليلة على وشك الانتهاء، وقد عرف أشياء قليلة عن مسافرة فرانكفورت أكثر مما كان يعرف من قبل. وهو يعلم أن لديها واجهة بدت له منمقة للغاية. وكانت مهتمة جدًّا بالموسيقى. نعم، فقد قابلها فى أوبرا فيستفال هول. وهى مغرمة بالرياضات التى تمارس فى الهواء الطلق. ولها أقارب أغنياء يمتلكون جزرًا فى البحر المتوسط. وتعطى نقودًا لتدعم الأدباء المحتاجين. وفى الواقع، هى شخصية لديها علاقات جيدة، ولها يد فى الحقل السياسى. من الواضح أنها دبلوماسية عالية لكن من الممكن أن تكون منضمة إلى مجموعة ما. وهى شخص يتنقل من مكان إلى آخر ومن دولة إلى أخرى. وتتنقل بين الأغنياء، والموهوبين، وحول العالم الأدبى.

ولدقيقة أو دقيقتين فكر فى الجاسوسية، فقد بدت تلك هى أكثر الإجابات مناسبة. لكنه لم يكن مقتنعًا بتلك الإجابة تمامًا.

وانتهت الأمسية، وأتى دوره فى توديع مضيفته، وكانت ميلى جين جيدة جدًّا فى أداء وظيفتها.

''لقد كنت أتطلع للحديث معك منذ فترة طويلة وأرغب فى أن أسمع عن الملايو. أتعلم، فأنا لا أعرف أى شىء عن هذه الأماكن الموجودة فى آسيا، فأنا أخلط بينها. أخبرنى، ما الذى حدث هناك؟ أكان هناك أى شىء ممتع أم كان هناك شىء ما يسير بشكل خاطئ؟''.

''أعتقد أن بإمكانك أن تخمن إجابة هذا السؤال''.

''حسنًا، أخمن أنها كانت مملة جدًّا. لكن ربما لا يسمح لك بقول ذلك''.

''أوه، نعم. يمكننى التفكير فى ذلك وقوله. فلم يكن الأمر يناسبنى كما تعلمين''.

''إذن، فلماذا ذهبت؟''.

''حسنًا، أنا دائمًا مغرم بالسفر وأحب رؤية الدول المختلفة''.

''أنت شخص مثير للاهتمام فى الكثير من الأحوال. فى الواقع، الحياة الدبلوماسية بالكامل تعتبر حياة مملة للغاية، أليس كذلك؟ ليس علىَّ قول ذلك، أنا أقول ذلك لك فقط فيما بيننا''.

عينان زرقاوان للغاية، مثل عشبة الجريس فى الغابات. اتسعت العينان ونزل الحاجبان الأسودان الموجودان فوقها لأسفل تجاه جانبى مقدمة الرأس وارتفعت

أطراف الحاجبين الداخلية لأعلى. وجعل ذلك الوضع وجهها يبدو كوجه قطة فارسية جميلة. وتساءل فى نفسه ما الذى تشبهه ميلى جين. فصوتها الناعم كان كصوت شخص قادم من الجنوب، وبالنسبة لرأسها الجميل الصغير فقد كان شكل وجهها من الجانب يلائم صورة موضوعة على عملة معدنية ـــ ما الذى تشبهه ميلى جين بالضبط؟ لا، أيها الأحمق، فهى سيدة تستطيع استعمال أسلحتها الاجتماعية عند الحاجة إليها، وتستطيع أن تسحر من أمامها إن رغبت فى ذلك، ويمكنها الانسحاب لتصبح غامضة. فإذا أرادت أى شىء من أى شخص فهى ماهرة فى الحصول عليه. وقد لاحظ النظرة الهادفة التى كانت تنظر بها إليه الآن. أهى تريد شيئًا منه؟ لا يعلم. لا يعتقد أن الأمر كذلك. ثم قالت: ‘‘هل قابلت السيد ستاجينهام؟’’.

‘‘أوه، نعم. فقد كنت أتحدث معه على مائدة الطعام فلم أقابله من قبل’’.

قالت ميلى جين: ‘‘يقال إنه شخص مهم جدًّا. فهو رئيس البى. بى. إف كما تعلم’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘على المرء معرفة كل هذه الأشياء. البى. بى. إف، والدى. سى. فى، والإل. واى. إتش. وكل هذا العالم من الحروف الأولية’’.

قالت ميلى جين: ‘‘أمر كريه، كل هذه الحروف الأولية وليس هناك شخصيات ولا أشخاص على الإطلاق، بل مجرد حروف أولية. يا له من عالم كريه! هذا ما أفكر فيه بعض الأوقات. عالم كريه. أريده أن يتغير، يتغير إلى حد بعيد ـــ ‘‘.

هل كانت تعنى ذلك؟ فكر لدقيقة أنها قد تعنى ذلك. أمر مشوق ...

2

كان ميدان جروسيفنور هو الهدوء بعينه. فقد كانت هناك آثار من الزجاج المكسور. وكان هناك بيض، وطماطم مسحوقة ومهروسة وبقايا معدن لامع. لكن بأعلى، كانت السماء تنعم بالسلام والهدوء. ومرت سيارة وراء سيارة أمام باب السفارة لتقل الضيوف العائدين إلى منازلهم. وكانت الشرطة موجودة فى أحد الجوانب لكن بدون أن تظهر، فقد كان كل شىء تحت السيطرة. وتحدث أحد الضيوف الدبلوماسيين إلى أحد ضباط الشرطة. وعاد مهمهمًا: ‘‘لم يلقوا القبض على الكثيرين، بل قبضوا على ثمانية. وسيطلق سراحهم فى شارع بو، صباح غدٍ، فهم ليسوا بالحصيلة الكثيرة أو القليلة. وبالطبع فقد كان بيترونيلا هنا، وستيفان وحشوده. حسنًا، أعتقد أنهم سيتعبون ويملون من هذا فى يوم ما’’.

قال صوت عميق ورنان فى أذن السير ستافورد ناى: ‘‘أنت لا تعيش بعيدًا عن هنا، أليس كذلك؟ يمكننى أن أوصلك فى طريقى’’.

‘‘لا، لا. يمكننى السير جيدًا. السفارة تبعد عن المنزل عشر دقائق أو شيئًا مثل هذا’’.

‘‘قالت الكونتيسة زيركوسكى: ‘‘أؤكد لك أن ذلك لن يمثل أى مشكلة لى’’، ثم أضافت: ‘‘أنا أقيم فى سانت جيمس تاور’’.

كان سانت جيمس تاور أحد الفنادق الحديثة.

‘‘أنت كريمة ولطيفة جدًّا’’.

كانت تنتظرهم سيارة مستأجرة كبيرة وغالية. وفتح السائق الباب، ودخلت الكونتيسة ريناتا داخل السيارة وتبعها السير ستافورد. وهى من قالت عنوان السير ستافورد ناى للسائق. وانطلقت السيارة.

قال لها: ‘‘إذن تعرفين أين أسكن؟’’.

‘‘لِمَ لا؟’’.

تساءل ما الذى تعنيه هذه الإجابة: لِمَ لا؟

وقال: ‘‘ولِمَ لا بالطبع، فأنت تعرفين الكثير، أليس كذلك؟’’، ثم قال مضيفًا: ‘‘كانت إعادتك لجواز سفرى لطفًا منك’’.

‘‘اعتقدت أن ذلك يجنبك بعض المضايقات وربما كان من الأفضل لو أحرقته. فأنا أفترض أنك قد استخرجت واحدًا جديدًا’’.

‘‘افتراضك صحيح’’.

‘‘ستجد عباءتك ذات غطاء الرأس فى درج دولاب ملابسك السفلى، فقد تم وضعها هناك الليلة. واعتقدت أن شراء واحدة أخرى ربما لن يرضيك، وبالتأكيد فالعثور على واحدة مشابهة قد لا يكون أمرًا ممكنًا’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘الآن ستزيد قيمة هذه العباءة لدىَّ أكثر لأنها مرت بمغامرات محددة’’، ثم أردف قائلاً: ‘‘فقد أدت غرضها’’.

وتعالى صوت محرك السيارة فى سكون الليل.

قالت الكونتيسة زيركوسكى:

‘‘نعم فقد أدت غرضها، فها أنا هنا ـــ حية ...’’.

لم يقل السير ستافورد ناى أى شىء. فقد كان يفكر، سواء كان تفكيرًا صحيحًا أو خاطئًا، إنها تريده أن يسألها، ويضغط عليها ليعرف أكثر عما كانت تفعله ومصيرها الذى هربت منه. أرادته أن يظهر الفضول، لكن السير ستافورد لم يفعل ذلك، وقد استمتع بذلك.

وسمع ضحكتها الرقيقة للغاية. وقد تخيل بالفعل، وهذا ما فاجأه، إنها كانت ضحكة سعادة، ضحكة رضا، وليس ضحكة فرد فى موقف محرج.

ثم قالت: ‘‘هل استمتعت بأمسيتك؟’’.

‘‘حفلة جيدة على ما أعتقد، فالحفلات التى تنظمها ميلى جين دائمًا تكون جيدة’’.

‘‘حسنًا إذن، فأنت تعرفها جيدًا؟’’.

‘‘عرفتها منذ أن كانت فتاة فى نيويورك قبل زواجها. فينوس الجيب’’.

نظرت إليه نظرة دهشة ومفاجأة.

‘‘هل هذا الاسم الذى تطلقه عليها؟’’.

‘‘فى الواقع لا. بل قاله لى أحد أقربائى كبار السن’’.

‘‘نعم، فهذا ليس بالوصف الذى توصف به امرأة هذه الأيام. لكن أعتقد أنه يلائمها تمامًا. لكن فقط -’’.

‘‘فقط ماذا؟’’.

‘‘فينوس مغرية، أليس كذلك؟ لكن هل هى طموحة أيضًا؟’’.

‘‘أتعتقدين أن ميلى جين كورتمان طموحة؟’’.

‘‘أوه، نعم. ذلك أمر لا يقبل النقاش’’.

‘‘وهل تعتقدين أن كونها زوجة السفير الأمريكى شىء غير كافٍ ليرضى طموحها؟’’.

قالت الكونتيسة: ‘‘أوه، لا. هذا مجرد البداية’’.

لم يجب عليها، فقد كان ينظر للخارج عبر نافذة السيارة. فقد بدأ بالحديث ثم توقف عن الحديث. ولاحظ نظرتها الخاطفة له لكنها كانت صامتة أيضًا. ولم ينقطع صمتهما إلا عند مرورهما على جسر على نهر الثيمز عندما قال لها:

‘‘إذن فأنت لا توصلينني إلى المنزل ولستِ ذاهبة إلى سانت جيمس تاور فنحن نعبر نهر الثيمز. وقد تقابلنا هنا من قبل، إلى أين تأخذيننى؟’’.

‘‘هل تمانع؟’’.

‘‘أعتقد ذلك’’.

‘‘نعم، أرى أنك قد تمانع’’.

‘‘بالطبع فأنتِ تتبعين الأسلوب السائد، فالاختطاف هو الموضة هذه الأيام، أليس كذلك؟. لقد اختطفتنى، لماذا؟’’.

‘‘لأننى ـــ كما حدث من قبل ـــ أحتاج إليك’’، ثم أردفت: ‘‘وآخرون يحتاجون إليك’’.

‘‘بالطبع’’.

‘‘وهذا لا يسعدك’’.

‘‘كان سيسعدنى أكثر لو كنت قد سألتنى’’.

‘‘حسنًا، أكنت ستأتى لو طلبت منك؟’’.

‘‘ربما نعم، وربما لا’’.

‘‘آسفة’’.

‘‘أتساءل عن سبب كل ذلك’’.

وانطلقوا بالسيارة فى سكون الليل. لم تكن السيارة تسير فى ريف موحش، بل كانت تسير فى الطريق الرئيسى. وكان السير ستافورد ناى يعلم ما طريقهم فمن وقت لآخر كانت أضواء السيارة تقع على اسم أو معلم على الطريق. ومروا بالأجزاء العمرانية الأولى من ساسيكس. وأحيانًا اعتقد أنهم أخذوا منعطفًا أو طريقًا جانبيًّا لم يكن بالطريق المستقيم مطلقًا، لكنه لم يكن متأكدًا من ذلك. وكان على وشك سؤال مرافقته هل يحدث ذلك لأن هناك من يتتبعهم من لندن. لكنه ثبت بشدة على اتباع سياسة الصمت. فقد كانت هى من عليه الحديث وإعطاء المعلومات. وقد وجدها السير ـــ حتى بعد المعلومات الإضافية التى تمكن من الحصول عليها ـــ شخصية غامضة.

كانوا يتوجهون إلى الريف بعد حفل العشاء فى لندن. وكان السير قد تأكد تمامًا من أنهم من ذلك النوع الذى ينتمى لمستويات أكثر ثراء من أن تستأجر سيارة. ومن الواضح أن ذلك الأمر مخطط له مسبقًا، فذلك أمر منطقى وليس هناك أى شىء مثير للشك أو غير متوقع بهذا الخصوص. وقال لنفسه: عما قريب سأعلم إلى أين نحن ذاهبون. إلا إذا كانوا سيذهبون بالسيارة إلى الساحل، وقد كان يرى أن ذلك أيضًا أمر ممكن. رأى كلمة هالسمير مكتوبة على لافتة بالطريق. والآن فهم على حدود جودالمينج. كان ذلك الأمر واضحًا. الريف الغنى من الضواحى الثرية. غابات مقبولة ونزل جميلة. وانعطفت السيارة فى عدة منعطفات جانبية وفى النهاية أبطأت السيارة، وبدا أنهم قد وصلوا إلى وجهتهم. بوابات. منزل صغير مطلى باللون الأبيض. ووراء البوابات يوجد طريق للسيارات وزهور على كلا جانبى هذا الطريق، ودخلوا من البوابة ووقفت السيارة أمام المنزل. وهمهم السير ستافورد ناى ‘‘ستوك بروكر تودور’’.

ونظرت إليه رفيقته متسائلة.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘هذا مجرد تعليق، لا تعيريه اهتمامًا. فقد فهمت أننا قد وصلنا إلى وجهتنا التى اخترتها’’.

‘‘وأنت لا يعجبك مظهر هذه الوجهة’’.

قال السير ستافورد ناى وهو يتابع بعينيه شعاع مصابيح السيارة الأمامية ليلقى نظرة على المنزل: ‘‘يبدو على الأرضيات أنه يتم الاعتناء بها جيدًا، ويتطلب الاهتمام بهذه الأماكن والمحافظة عليها أموالاً كثيرة. يمكننى القول إن هذا منزل مريح ليعيش المرء فيه’’.

‘‘مريح لكنه ليس جميلاً. ويمكننى القول إن الرجل الذى يعيش بالداخل يفضل الراحة على الجمال’’.

قال السير ستافورد: ‘‘ربما كان ذلك تفكيرًا حكيمًا. وربما يقدر الجمال فى بعض الأوقات، بعض أنواع الجمال’’.

وتوقفت السيارة أمام رواق مضاء جيدًا. وخرج السير ستافورد ناى ومد يده ليساعد رفيقته. وصعد السائق درجات السلم ورن جرس الباب. ونظر بتساؤل

للسيدة وهى تصعد درجات السلم.

‘‘هل ستطلبيننى الليلة مرة أخرى، يا سيدتى؟’’.

‘‘لا، سنتصل فى الصباح عندما نحتاج إليك’’.

‘‘مساء الخير. مساء الخير، سيدى’’.

وسمعوا صوت خطوات أقدام بالداخل ثم انفتح الباب. وتوقع السير ستافورد أن يفتح لهم واحد من الخدم، لكن كان أمامهم واحدة من تلك الخادمات الصارمات، رمادية الشعر، رفيعة الشفتين، يبدو أنها تتمتع بالكفاءة وموثوق بها. شىء نفيس ويصعب الحصول عليه هذه الأيام. جديرة بالثقة، ويمكنها أن تكون عنيفة وعدوانية.

قالت ريناتا: ‘‘يؤسفنى أننا تأخرنا قليلاً’’.

‘‘سيدى فى المكتبة. وقد طلب منى ضرورة دخولك إليه أنت والسيد المرافق لك عند وصولكما’’.

الفصل التاسع

المنزل القريب من جودالمينج

قادتهم الخادمة عبر درجات السلالم الواسعة. وقال ستافورد ناى فى نفسه نعم المنزل مريح جدًّا. ورق حائط يحمل تصميمات تعود لعصر الملك جيمس الأول، سلم مصنوع من خشب البلوط ومنحوت بشكل قبيح، لكن درجات السلم كانت جيدة. وصور تم اختيارها بشكل مناسب لكن لا تعبر عن أى اهتمام أو ذوق فنى. واعتقد السير أن هذا منزل رجل غنى، رجل ذوقه ليس سيئًا ولكنه تقليدى. سجادة سميكة جيدة مطبوع عليها ثمار ملونة بألوان مستساغة.

وفى الطابق الأول، توجهت الخادمة الشبيهة بالقذيفة إلى الباب الأول وفتحته، ثم تراجعت للخلف لتسمح لهم بالدخول، دون أن تذكر أسماء الحاضرين لمن بالغرفة. دخلت الكونتيسة أولاً وتبعها السير ستافورد ناى. وسمع صوت باب الحجرة يغلق بهدوء وراءه.

كان هناك أربعة أشخاص فى الحجرة. وكان هناك مكتب كبير مغطى تمامًا بالأوراق، والوثائق، كما كانت هناك خريطة أو اثنتان مفرودتان إلى جانب ما بدا أنه بعض الأوراق الأخرى، وهى الأوراق التى كانت تدور حولها مناقشتهم، ووراء المكتب كان يجلس رجل ضخم بدين له وجه بالغ الاصفرار. وقد سبق للسير ستافورد ناى رؤية هذا الوجه من قبل، إلا أنه لم يكن قادرًا على تذكر الاسم. فهو رجل قابله السير بشكل عابر. إنه يعرفه، من المؤكد أنه يعرفه. لكن لماذا ـــ لماذا لا يتذكر الاسم؟.

وبصعوبة، نهض الشخص الجالس واقفًا على قدميه. وصافح الكونتيسة ريناتا.

وقال: "لقد وصلتِ، رائع".

"نعم. والآن دعنى أقدم لك السير ستافورد ناى، رغم أننى أعتقد أنك تعرفه بالفعل يا سيد روبنسون".

بالطبع، ومض شىء فى عقل السير ستافورد ناى كالكاميرا. هذا الاسم يناسب اسمًا آخر. بيكواى. فليس من الصدق أن يقول إنه يعلم كل شىء عن السيد روبنسون. فهو لا يعلم عن السيد روبنسون إلا ما يسمح السيد روبنسون بمعرفته. فاسمه، كما يعلم الجميع، كان روبنسون، رغم أنه قد يكون له اسم ذو أصل أجنبى. لم يفكر أحد فى شىء من هذا القبيل، كما جاءت معرفة السير ستافورد به أيضًا من مظهره الشخصى: مقدمة الرأس العالية، العينين السوداوين الكئيبتين، والفم الكبير الواسع، والأسنان شديدة البياض ـــ ربما تكون أسنانًا صناعية لكنها أسنان جيدة يقال عنها كما فى قصص الجنيات "هى الأفضل لآكلك بها، أيها الطفل!".

وكان يعرف أيضًا ما الذى يمثله السيد روبنسون، هناك كلمة واحدة تصف السيد روبنسون، كان يمثل المال، المال من كل أوجهه، المال الدولى والمال المنتشر فى مختلف أنحاء العالم، الموارد المالية الخاصة، المعاملات البنكية، وليست النقود

بالطريقة التى ينظر بها الشخص العادى للنقود. كان بلا شك رجلاً شديد الثراء، لكن لم يكن هذا هو الأمر المهم. فقد كان واحدًا من المتحكمين فى حركة المال، الجماعة الكبيرة من أصحاب البنوك. ربما كان ذوقه الشخصى بسيطًا، لكن السير ستافورد ناى شك فى هذا الأمر. فقد كانت طريقة السيد روبنسون فى الحياة هى التمتع بمستوى معقول من الراحة الذى قد يصل إلى حد الرفاهية. لكن ليس أكثر من ذلك. لذلك فوراء جميع الأعمال الغامضة كانت تكمن قوة المال.

قال السيد روبنسون وهو يصافحه: ‘‘سمعت عنك منذ يوم أو يومين من صديقنا بيكواى’’.

قال السير ستافورد لنفسه: الآن اتضح الأمر، لأنه تذكر أن الكولونيل بيكواى كان موجودًا فى المرة الوحيدة التى قابل فيها السيد روبنسون قبل هذه المرة. والآن هناك مارى آن (أو الكونتيسة زيركوسكى؟) والكولونيل بيكواى جالسان فى الغرفة المليئة بدخان السجائر، وكانت عيناه نصف مغلقتين وهو إما على وشك النوم أو مستيقظ للتو، وكان هناك السيد روبنسون بوجهه الكبير الأصفر ـــ من المؤكد وجود نقود معه فى مكان ما ـــ وتحولت نظرته للأشخاص الثلاثة الآخرين الموجودين فى الحجرة لأنه يريد أن يرى إن كان يعرفهم وما الذى يمثلونه، أو يخمن ذلك على الأقل.

فى حالتين على الأقل لم يكن فى حاجة إلى التخمين. فالرجل الجالس على الكرسى الضخم الطويل المجاور للمدفأة، كان رجلاً عجوزًا يحيط به الكرسى كالإطار الذى يحيط بالصور، كان وجهًا معروفًا فى جميع أنحاء إنجلترا. بالتأكيد مازال الوجه معروفًا رغم أنه لم يعد يظهر هذه الأيام إلا نادرًا. رجل مريض، عاجز، لا يظهر إلا فى مناسبات نادرة وبشكل بسيط، ويقال إن تلك المرات القليلة تسبب له الكثير من الألم ولا يقوم بعدها إلا بصعوبة. اللورد أولتماونت. وجه هزيل وضعيف، وأنف بارز، وشعر رمادى تراجع قليلاً عن مقدمة رأسه وأصبح طويلاً للخلف بشكل يشبه عرف فرس رمادى؛ ولديه أذنان بارزتان إلى حد ما استعملهما رسامو الكاريكاتير فى عصره، ولديه نظرة عميقة وثاقبة كالمسبار، تسبر بعمق ما تنظر إليه. وفى تلك اللحظة كانت العينان تنظران إلى السير ستافورد ناى. ومد يده إلى السير ستافورد ناى عندما سار السير ستافورد تجاهه.

قال اللورد أولتماونت، بصوت خافت، صوت رجل عجوز، صوت بعيد: ‘‘أنا لا أنهض، فظهرى لا يسمح لى بذلك. أظن أنك راجع للتو من الملايو، أليس كذلك ستافورد ناى؟’’.

‘‘بلى’’.

‘‘أكان الأمر جديرًا بذهابك؟ أتوقع أنك تعتقد أن الأمر لم يكن جديرًا بذلك. وربما تكون محقًا. ومع ذلك فعلينا تحمل مثل هذه الأمور الزائدة فى حياتنا، هذه الزخارف اللازمة لتزيين أفضل أنواع الأكاذيب الدبلوماسية. ويسرنى حضورك أو إحضارك إلى هنا الليلة. أعتقد أن ذلك من فِعل مارى آن؟’’.

قال ستافورد ناى لنفسه: إذن فهذا ما يناديها به أو أعتقد ذلك. وكان ذلك هو ما ناداها به هورشام. فقد كانت معهم بلا شك. وبالنسبة لأولتماونت، ما الذى يؤيده

هذا الرجل هذه الأيام؟ إنه يؤيد إنجلترا وسيظل يؤيد إنجلترا حتى يُدفَن مع عظماء الوطن أو فى ضريح تابع للدولة أيًّا كان ما سيختاره. فهذا الرجل كان ومازال يمثل إنجلترا، ويعرف إنجلترا، ويمكننى القول إنه يعلم قيمة كل رجل دبلوماسى وموظف حكومى فى إنجلترا تمامًا، حتى وإن لم يتحدث معهم مطلقًا من قبل.

قال اللورد أولتماونت:

‘‘هذا هو زميلنا، السير جيمس كليك’’.

لم يكن السير ستافورد ناى يعرف كليك، ولم يعتقد أنه سمع به من قبل. نوع عصبى لا يهدأ. ونظرات حادة مليئة بالشك لا تستقر على شىء طويلاً. فهو لديه حماسة كلب صيد ينتظر الأمر. جاهز للبدء من مجرد نظرة من عين سيده.

ولكن من يكون سيده؟ أولتماونت أم روبنسون؟

ثم استقرت عينا ستافورد ناى على الرجل الرابع، والذى كان قد انتصب واقفًا من جلسته على المقعد المجاور للباب. كان لديه شارب كثيف وحاجبان مرفوعان وكان متيقظًا ومنطويًا على نفسه، وكان فى تعامله معك يعطيك شعورًا بأنه مألوف لك، إلا أنك تبقى غير قادر على التعرف عليه.

قال السير ستافورد ناي: ‘‘إذن هذا أنت. كيف حالك يا هورشام؟’’.

‘‘سعيد برؤيتك هنا يا سير ستافورد’’.

وأدرك ستافورد، بنظرة سريعة فى المكان، أن هذا الاجتماع عبارة عن اجتماع مندوبين.

وكانوا قد أعدوا مقعدًا لريناتا ليس ببعيد عن النار ولا عن لورد أولتماونت، الذى مدت له يدها اليسرى فصافحها فى حرارة، قبل أن يقول:

‘‘تخوضين المخاطر يا طفلتي، الكثير من المخاطر’’.

قالت وهى تنظر إليه: ‘‘أنت من علمنى ذلك، وهذا فقط أسلوب الحياة الوحيد المتاح’’.

أدار لورد أولتماونت رأسه إلى ستافورد ناي، وقال له:

‘‘ولكن لم أكن أنا من علمك كيفية اختيار رجلك. إنك تتمتعين بعبقرية خاصة فى هذا الأمر، ثم نظر إلى ستافورد ناي، وقال له: ‘‘أعرف عمتك الكبرى، أو عمتك الأكبر، أليست هى من أتكلم عنها؟’’.

قال ستافورد ناى فورًا: ‘‘عمتى الكبرى ماتيلدا’’.

‘‘نعم. إنها هي. إنها واحدة من سيدات الحقبة الفيكتورية عتيقات الطراز. لا بد أنها فى التسعينات الآن’’.

واستمر قائلاً:

‘‘أنا لا أراها كثيرًا، ربما مرة أو اثنتين فى السنة. إلا أنها تبهرنى فى كل مرة ـــ الحيوية المتدفقة، والتى تفوق جسدها قوة. فقط أفراد الحقبة الفيكتورية وبعض

أفراد الحقبة الإدواردية الذين يعرفون كيف يبدون كذلك".

قال السير جيمس كليك: "هل أحضر لك شرابا يا ناي؟ ماذا تفضل؟".

"بعض العصير الطبيعي".

بينما أشارت الكونتيسة برأسها علامة على الرفض.

أحضر جيمس كليك الشراب لناي، وجلس إلى المائدة بالقرب من السيد روبنسون. لم يكن ستافورد ناى ينوى أن يكون من يبدأ الحديث، وبدا أن العينين الداكنتين للرجل الجالس وراء المكتب قد فقدتا كآبتهما للحظة؛ إذ التمعتا لوهلة، قبل أن يقول:

"أية أسئلة؟".

قال سير ستافورد ناي: "الكثير جدًّا. ألن يكون من الأفضل أن تقدموا لى بعض التفسيرات، ثم علىَّ أن ألقى الأسئلة فيما بعد؟".

"أهذا ما تفضله؟".

"قد يسهل هذا الأمورَ".

"حسنًا، سنبدأ ببعض العبارات البسيطة التى توضح حقائق. ربما طُلِبَ منك أو لم يُطْلَب منك أن تأتى إلى هنا، فإذا لم يكونوا قد طلبوا منك ذلك، فإنه من المحتمل أن تكون هذه الحقيقة قد شوهت قليلاً".

قالت الكونتيسة: "يفضل السير دائمًا أن يلقى الأسئلة، فقد قال لى ذلك".

قال السيد روبنسون: "بالطبع".

"تعرضت للاختطاف"، قال ستافورد ناى ذلك، ثم أضاف: "أعلم أن الأمر تم بشكل أنيق للغاية. بواحدة من أفضل طرقنا الحديثة".

أبقى على حس الفكاهة فى طريقة كلامه.

قال السيد روبنسون: "وبالطبع، فذلك الأمر يثير سؤالاً لديك".

"مجرد كلمة صغيرة من خمسة أحرف، لماذا؟".

"تمامًا. لماذا؟ أقدر بلاغتك ولباقتك. هذه لجنة خاصة ـــ لجنة تحقيق. تحقيق عالمى النطاق".

قال السير ستافورد ناى: "يبدو الأمر مشوقًا".

قال اللورد أولتماونت: "إنه أكثر من مشوق. بل هو أمر خطير وعاجل. الليلة فى هذه الحجرة معنا أربع طرق حياة مختلفة، فنحن نمثل الأفرع المختلفة. فقد تقاعدت عن المشاركة النشطة فى شئون هذه الدولة، لكننى مازلت مرجعية استشارية. فقد استشارونى وطلبوا منى الإشراف على هذا التحقيق الخاص عما يدور فى العالم فى تلك السنة بالذات لأن هناك شيئًا يحدث. فجيمس هنا لديه مهمته الخاصة به،

وهو بمثابة ذراعى اليمنى وكذلك فهو متحدثنا الرسمى. رجاء يا جيمى، اشرح المخطط العام للسير ستافورد".

بدا للسير ستافورد نای أن كلب الصيد قد انتفض.

أخيرًا! أخيرًا يمكننى الحديث والاستمرار فى هذا الأمر! ومال للأمام قليلاً وهو جالس فى مقعده.

"إذا حدثت أشياء فى هذا العالم فعليك النظر إلى سبب لها. فالإشارات الخارجية عادة تسهل رؤيتها، لكنها ليست بالمهمة ـــ أو هذا ما يعتقده الرئيس"، وأنحنى للورد أولتماونت ـــ "والسيد هورشام. والأمر دائمًا يسير بنفس الطريقة. خذ مصدرًا طبيعيًّا كشلال مياه كبير سيعطيك قوة كهربائية. تكتشف اليورانيوم من حجر أكسيد اليورانيوم وذلك سيعطيك قوة نووية لم تحلم بها أو تعرفها من قبل. وعندما تعثر على الفحم والمعادن تعطيك وسائل النقل، والقوة، والطاقة. فهناك قوى فى العمل تعطيك أشياء محددة. لكن وراء كل منها هناك شخص يتحكم فيها. سيكون عليك معرفة من يتحكم فى القوى التى تفرض هيمنتها ببطء على كل دولة فى أوروبا، وبعض أجزاء آسيا. ويمكن وضع أفريقيا بشكل أقل احتمالاً لوجود مثل هذه القوى فيها، لكنْ هناك احتمال كبير لوجود تلك القوى الإقليمية فى الأمريكتين الشمالية والجنوبية. سيكون عليك الدخول فى كواليس الأمور التى تحدث وتعرف القوة الدافعة التى تحركها. وهناك شىء واحد يجعل الأشياء تحدث وهو المال".

وأومأ برأسه ناحية السيد روبنسون.

"وأعتقد أن السيد روبنسون: يعلم عن النقود ما لا يعلمه شخص آخر فى هذا العالم".

قال السيد روبنسون "الأمر بسيط للغاية، فهناك تحركات عديدة تحدث فى العالم والنقود هى التى تحركها. فعلينا معرفة من أين تأتى هذه الأموال. من الذى يتعامل معها؟ من أين يحصلون عليها؟ وإلى أين يرسلونها؟ ولماذا؟ فقد كان جيمس محقًّا عندما قال: إننى أعلم الكثير عن النقود! أكثر من أى شخص على وجه الأرض الآن. إذن فهناك ما يمكنك تسميته بالاتجاهات. وهى كلمة نستعملها كثيرًا هذه الأيام! الاتجاهات أو الميول ـــ وهناك كلمات أخرى كثيرة لها نفس الاستعمال، وهى لا تعنى نفس الشىء لكنها كلمات على علاقة ببعضها. ويمكننا القول إن هناك اتجاهًا يبرز نحو التمرد. انظر للتاريخ وستجد ذلك الأمر يحدث مرارًا وتكرارًا، يكرر نفسه مثل جدول زمنى، يتكرر فى قالب محدد. فالرغبة فى التمرد، وطرق التمرد، وشكل التمرد ليست شيئًا خاصًّا بأى دولة بعينها. فإذا ثار التمرد فى دولة ما فسيثور فى الدول الأخرى بدرجة أكثر أو أقل. هذا هو ما تعنيه أيها السير، أليس كذلك؟"، واستدار نصف استدارة إلى اللورد أولتماونت قائلاً: "هذه هى الطريقة التى شرحت لى بها الأمور تقريبًا".

"نعم، أنت تعبر عن الأشياء بشكل جيد جدًّا يا جيمس".

"إنه قالب، قالب ينشأ ويبدو أمرًا حتميًّا. ويمكنك التعرف عليه أينما وجدته. ففى البلاد الأوروبية كانت هناك فترة سادت فيها رغبة واتجاه نحو توجيه حملات

عسكرية. فقد صعد الناس من جميع أنحاء أوروبا على متن السفن ليحاربوا فى الشرق. ومن الواضح أن ذلك يعد مثالاً ممتازًا على السلوك المقصود. لكن لماذا ذهبوا؟ ذلك محور اهتمام التاريخ كما تعلم، أن ترى سبب ظهور هذه الرغبات والقوالب. وعادة لا تكون الإجابة مادية دائمًا. فكل الأشياء قد تسبب التمرد، الرغبة فى الحرية، حرية الخطابة، وحرية العبادة، ثانية تظهر سلسلة من القوالب المترابطة معًا. وأدى ذلك إلى قيام الأشخاص بالهجرة إلى الدول الأخرى، لصياغة أفكار جديدة عادة يكون لها نفس طغيان الأفكار الموجودة التى تركوها وراء ظهورهم. لكن فى كل ذلك، إذا نظرت بدقة كافية، وبحثت جيدًا فى كل هذا فيمكنك أن تحدد ما الذى أدى إلى نشوء هذا ـــ سأستعمل نفس المصطلح ـــ القالب وقوالب أخرى عديدة. فى بعض الأحيان يكون الأمر مثل الإصابة بعدوى فيروسية، فالفيروس يمكن أن ينتقل حول العالم، وعبر البحار، وفوق الجبال. ويمكنه الانطلاق ونشر العدوى. وهو يسير بشكل ظاهر ويبدأ فى العمل. لكن حتى الآن، الفرد لا يستطيع التأكد إن كان هذا الأمر صحيحًا أم لا. ربما تكون هناك أسباب أدت إلى حدوث هذه الأشياء. يمكن أن نسير إلى مسافة أبعد ونقول إن هناك أشخاصًا، سواء كانوا شخصًا واحدًا، أو عشرة أشخاص، أو عدة مئات من الأشخاص يمكن أن يكونوا السبب أو هم من حركوا السبب. إذن فهى ليست الهدف النهائى الذى على الفرد التطلع له. بل هم أول الأشخاص الذين يحركون القضية. لديك قناعاتك القومية والدينية، ورغباتك فى الحرية، وجميع القوالب الأخرى لتحرك التمرد. والعودة إلى المنطقة النائية، والرؤى والأحلام. وقد أدرك أحد الحكماء ذلك عندما كتب: ''يجب أن يحلم رجالكم كبار السن الأحلام، ويرى شبابكم الرؤى''. ومن الأقوى بين الاثنتين؟ فالأحلام ليست مدمرة، لكن الرؤى قد تفتح عوالم جديدة لك، ويمكن للرؤى تدمير العوالم الموجودة بالفعل ...''.

واستدار جيمس كليك تجاه اللورد أولتماونت فجأة قائلاً: ''لا أعلم إن كان الأمر مرتبطًا أيها السير، لكنك أخبرتنى فى إحدى المرات بقصة عن شخص فى سفارة برلين. امرأة''.

''أوه تلك المرأة؟ نعم فقد وجدت الأمر مشوقًا فى ذلك الوقت. نعم، فالأمر له صلة بما نتحدث عنه الآن. كانت سيدة ماهرة وبارعة ومثقفة من زوجات أحد العاملين بالسفارة. وكانت تلك السيدة متشوقة جدًّا لكى تذهب إلى ألمانيا وتسمع حديث الفوهرر. بالطبع، أنا أتحدث عن وقت يسبق عام 1939 مباشرة. فقد كانت شديدة التشوق لتعرف ما الذى يمكن أن تفعله الخطابة. ولماذا كان الجميع متأثرين؟ لذلك فقد ذهبت. وعادت لتقول: ''الأمر غير طبيعى، ما كنت لأصدق هذا الأمر أبدًا. بالطبع أنا لا أفهم الألمان جيدًا لكننى تحمست معهم أيضًا. وعرفت الآن سر وجود هذا العدد الكبير. أقصد أفكاره كانت رائعة رائعة ...فهى تلهبك. أقصد الأشياء التى قالها. بمعنى، أنك تشعر بأنه توجد طريقة أخرى للتفكير، فسينشأ عالم جديد بالكامل إذا تبعه الفرد. أوه، لا يمكننى أن أشرح لكم جيدًا، لكن إن حضرتم معى لرؤية ما يحدث فسترون بشكل أفضل الأفضل الذى أحاول إخباركم به''.

''أخبرتها بأن ذلك فكرة جيدة جدًّا. وأتت إلىَّ فى اليوم التالى وقالت: ''لا أعلم إن كنتَ ستصدق ذلك. فقد بدأت فى كتابة الأشياء التى سمعتها، الأشياء التى قالها هتلر. وما قصدته هذه الكلمات ـــ حسنًا، كانت مخيفة ـــ لم يكن هناك أى شىء

لتدوينه، يبدو أنى لا أستطيع تذكر جملة واحدة مثيرة أو محفزة. أتذكر بعض الكلمات لكنها لا تعنى نفس الأشياء عندما دونتها. فهى مجرد كلمات عديمة المعنى. فأنا لا أفهم ما الأمر''.

''وهذا يظهر لك واحدًا من أعظم الأخطار التى لا يتذكرها الفرد، لكنه موجود. فهناك أشخاص قادرون على أن ينقلوا للآخرين حماسهم المتدفق، فهو نوع من رؤية الحياة والأحداث. ويمكنهم فعل ذلك رغم أن ذلك ليس ما يقولونه بالضبط، فهى ليست الكلمات التى تسمعها، ولا حتى الفكرة التى تصفها. بل هى شىء آخر. فهى القوة المغناطيسية التى يحصل عليها عدد قليل جدًّا من الرجال بعدما يطلقون فكرة ما، أو ينتجون ويؤسسون رؤية خاصة بهم. وقد تكون قوتهم المغناطيسية الشخصية نغمة صوتهم، وربما نظرية ما تأتى مباشرة من داخلهم. لا أعلم، لكن هذا الشىء موجود''.

''ويكون لهؤلاء الأشخاص القوة. فللقوَّاد العظماء هذه القوة، وأيضًا لديهم قوة روح شريرة. ويمكن خلق الإيمان فى حركات محددة، أو أشياء محددة ليتم تنفيذها، أشياء سينتج عنها جنة جديدة وأرض جديدة، وسيؤمن بها الأشخاص ويعملون ويصارعون بل ويموتون من أجلها''.

ثم خفض صوته وهو يقول: ''لقد صاغ جان سمتس ذلك فى عبارة. فقال القيادة، مع قوة إبداعية عظيمة، يمكنها أن تصبح أمرًا شيطانيًّا''.

عدل ستافورد ناى من جلسته.

''أفهم ما تعنيه. فما تقوله مثير ويمكننى أن أرى أن ما تقوله ربما يكون صحيحًا''.

''لكنك تعتقد أن حديثى مبالغ فيه، أليس كذلك؟''.

قال ستافورد ناى: ''لا أعلم ما علىَّ فعله، فالأشياء التى تبدو مبالغًا فيها عادة لا تكون مبالغًا فيها على الإطلاق. بل هى فقط الأشياء التى لم تسمع أحدًا يقولها من قبل. وبذلك فأنت تراها غير مألوفة بحيث تفعل أى شىء بخصوصها ماعدا قبولها. بالمناسبة، أيمكننى توجيه سؤال بسيط؟ ما الذى يفعله المرء بخصوص هذه الأشياء؟''.

قال اللورد أولتماونت''إذا شعرت بالشك فى أن هذا النوع من الأشياء يحدث بالفعل، يجب أن تعثر على بعض المعلومات عنها، عليك التصرف مثل نمس كيبلينج: اذهب واستكشف الأمر. اعرف من أين تأتى الأموال، ومن أين تأتى الأفكار، ومن أين تأتى الآليات التى تدار بها الأمور، إن قلنا عليها ذلك. من الذى يوجه هذه الآلات؟ كما تعلم فهناك رئيس للهيئة، وقائد أعلى. فهذا هو ما نحاول فعله. نحن نرغب فى أن تنضم إلينا وتساعدنا''.

كانت تلك من المرات القليلة فى حياة السير ستافورد التى شعر فيها بالذهول. فمهما كان ما شعر به فى بعض المواقف السابقة، فقد تمكن دائمًا من إخفاء الحقيقة. لكن كان الأمر مختلفًا تلك المرة. فدارت نظراته بين الرجال الموجودين فى الغرفة. فنظر إلى السيد روبنسون بوجهه شديد الصفرة وفمه الملىء بالأسنان التى

تظهر من ابتسامته؛ وإلى السير جيمس كليك الذى اعتبره السير ستافورد ناى متحدثًا ثرثارًا لكن من المؤكد أن له فائدته؛ وأطلق عليه فى عقله لقب كلب السيد. ونظر إلى اللورد أولتماونت، الذى يحيط مسند الكرسى الفخم حول رأسه كصورة موضوعة فى إطار. فلم تكن الإضاءة شديدة فى الحجرة. فأعطته مظهرًا وقورًا كأنه زاهد، من القرن الرابع عشر. رجل عظيم، نعم، فأولتماونت كان واحدًا من رجال الماضى العظماء. ولم يكن لدى ستافورد ناى أى شك فى ذلك، لكنه الآن رجل عجوز جدًّا، وقد أدرك ستافورد أن هذا هو سبب الحاجة لوجود جيمس كليك، وسبب اعتماد لورد أولتماونت عليه. ونظر خلفهم إلى المخلوق الغامض اللطيف الذى أحضره إلى هنا، الكونتيسة ريناتا زيركوسكى المعروفة بمارى آن، المعروفة بدافنى ثيودوفانوس. ولم يخبره وجهها بأى شىء، فهى لم تكن تنظر إليه. وأخيرًا نظر إلى السير هنرى هورشام من الأمن.

واندهش قليلاً عندما لاحظ أن هنرى هورشام كان ينظر إليه وهو يبتسم.

وقال السير ستافورد ناى ــ متخليًا عن الأسلوب الرسمى وتحدث كتلميذ مدرسة فى الثامنة عشرة من عمره ــ : ‘‘لكن انظر هنا، ما هذا المكان الذى جئت إليه بحق السماء؟ وما الذى أعرفه؟ بصراحة شديدة، كما تعلمون فأنا لست مميزًا بأى شكل فى وظيفتى الخاصة بى. ولا يفكرون فىَّ كثيرًا بوزارة الخارجية. لم يفكروا أبدًا’’.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘نحن نعلم ذلك’’.

وكان ذلك هو دور السير جيمس كليك فى الابتسام، وقد فعل ذلك بالفعل.

وقال ملاحظًا: ‘‘ربما كان ذلك أفضل’’، وأضاف معتذرًا عندما عبس اللورد أولتماونت فى وجهه: ‘‘آسف، أيها السير’’.

قال السيد روبنسون: ‘‘هذه لجنة تحقيق، ليس هذا سؤالاً عما فعلته فى الماضى، أو عن رأى الأشخاص فيك. فما نقوم بفعله هو تعيين أعضاء لجنة للتحقيق. وعددنا ليس بالكبير. ونحن نطلب منك الانضمام إليها لأننا نعتقد أن لديك خصائص معينة قد تساعدنا فى التحقيق’’.

نظر السير ستافور ناى إلى رجل الأمن: ‘‘ما رأيك يا هورشام؟ لا يمكننى تصديق أنك توافق على هذا؟’’.

قال هنرى هورشام: ‘‘ولِمَ لا؟’’.

‘‘أحقًّا؟ ما ‘‘خصائصى’’، كما تسميها؟ بصراحة شديدة، عن نفسى، لا يمكننى الاعتقاد فيها’’.

قال هورشام: ‘‘السبب أنك لست ممن يعتقدون فى فكرة البطل. فأنت من النوع الذى يرى الأوهام. فأنت لا تنظر إلى كل شخص بناء على تقييمه لنفسه أو تقييم العالم له. بل تنظر إليهم وفقًا لتقييمك الخاص’’.

وردت فى ذهن السير عبارة هذا ليس بفتى جاد باللغة الفرنسية. سبب غريب ليتم اختياره لوظيفة صعبة وكثيرة المطالب’’.

وقال: ‘‘علىَّ تحذيركم، هذا هو خطئى الرئيسى، ولوحظ كثيرًا علىَّ وهو ما كلفنى الكثير من الوظائف الجيدة، وأعتقد أن ذلك معروف للجميع. ويمكننى القول إننى لست من النوع الجاد من الشباب لأتولى وظيفة مهمة مثل هذه’’.

قال السيد هورشام: ‘‘سواء صدقتنى أم لا، فهذا سبب من الأسباب التى وقع عليك الاختيار بسببها. ألست محقًّا، عزيزى اللورد؟’’. ونظر تجاه اللورد أولتماونت.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘خدمات عامة! دعنى أخبرك بأن واحدًا من أكثر العيوب الخطيرة فى الحياة العامة هو أخذ الأشخاص الذين يتولون مناصب فى الخدمات العامة الأمور بجدية شديدة. ونحن نشعر بأنك لن تفعل ذلك. على أية حال فمارى آن تعتقد ذلك’’.

وحول السير ستافورد نارى وجه نحوها. إذن فها هى، لم تعد كونتيسة وعادت مارى آن ثانية.

ثم قال لها: ‘‘أرجو أن تسمحى لى بسؤالى هذا، لكن من أنتِ بالفعل؟ أقصد، هل أنت كونتيسة حقيقية؟’’.

‘‘بدون شك. أو جيبورين كما يقولها الألمان. فوالدى كان رجلاً من عائلة عريقة، رياضيًّا جيدًا، وراميًا جيدًا، ولديه قلعة رومانسية للغاية لكنها متداعية قليلاً فى بافاريا، ولكنها لا تزال قائمة للآن ولطالما ذهبت إليها، لدىَّ اتصالات فى هذا الجزء الكبير من العالم الأوروبى الذى لايزال متعصبا إلى حد بعيد فيما يتعلق بمنشأك. فتجد كونتيسة فقيرة رثة الملابس تجلس على المنضدة وفى نفس الوقت تجد رجلاً أمريكيًا غنيًا يمتلك ثروة خرافية من الدولارات واقفًا ينتظر فى البنك’’.

‘‘وماذا عن دافنى ثيودوفانوس؟ من أين أتى هذا الاسم؟’’.

‘‘إنه اسم مفيد لجواز السفر. فوالدتى يونانية’’.

‘‘ومارى آن؟’’.

كانت تلك هى الابتسامة الأولى التى رآها السير على وجهها. وتوجهت نظراتها إلى اللورد أولتماونت ومنها إلى السيد روبنسون.

ثم قالت: ‘‘ربما لأننى امرأة تقوم بجميع الأعمال، أذهب للأماكن، وأبحث عن الأشياء، وأحمل أشياء من دولة إلى أخرى، وأغطى على الأمور، فأنا أفعل أى شىء وأذهب إلى أى مكان وأقضى على الفوضى’’. ونظرت إلى اللورد أولتماونت ثانية: ‘‘هل أنا محقة عمى نيد؟’’.

‘‘صحيح تمامًا يا عزيزتى. فأنت دائمًا لنا مارى آن وستكونين دائما كذلك’’.

‘‘هل كنت تأخذين شيئًا ما على متن هذه الطائرة؟ أعنى تأخذين شيئًا مهمًّا من دولة إلى أخرى؟’’.

‘‘نعم، كان الجميع يعرف أننى أحمله. ولو لم تكن وافقت على إنقاذى ولم تشرب العصير الذى قد يكون مسممًا وإعطائى عباءتك ذات الألوان الزاهية لأتنكر فيها ــ حسنًا، تقع الحوادث فى بعض الأوقات ــ ما كنت قد وصلت إلى هنا’’.

‘‘ما الذى كنت تحملينه ـــ أم ليس علىَّ السؤال؟ هل يجب علىَّ عدم معرفة هذه الأشياء؟’’.

‘‘هناك العديد من الأشياء التى لن تعرفها مطلقًا. وهناك العديد من الأشياء لن يسمح لك بالسؤال عنها. وأعتقد أنى سأجيب عن سؤالك هذا. ستكون إجابة محدودة جدًّا إذا ما سُمِح لى بذلك’’.

ونظرت ثانية إلى اللورد أولتماونت.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘أثق فى حكمك على الأمور، استمرى’’.

قال جيمس كليك المتطفل: ‘‘أعطيه المعلومات’’.

قال السيد هورشام: ‘‘أعتقد أن عليك معرفة ذلك. فلن أخبرك، فأنا من الأمن. أخبريه، مارى آن’’.

‘‘جملة واحدة. كنت أحضر شهادة ميلاد. هذا كل ما فى الأمر. لن أخبرك بأى شىء أكثر من ذلك ولن يفيدك توجيه أى أسئلة إضافية’’.

نظر ستافورد ناى للجميع.

‘‘حسنًا. سأنضم إليكم. فقد شعرت بالإطراء نتيجة لطلبكم هذا. أين سنذهب بعد ذلك؟’’.

قالت ريناتا: ‘‘غدًا، سأغادر أنا وأنت. سنذهب إلى أوروبا. فربما سمعت، أو عرفت، عن مهرجان موسيقى فى بافاريا. وهو شىء جديد لم ينطلق إلا خلال العامين الماضيين. وهو يحمل اسمًا ألمانيًّا كبيرًا يعنى ‘‘مجموعة المغنين الشبان’’ وتدعمه حكومات دول عديدة. وهو مختلف عن المهرجانات التقليدية ومنتجات بيرويت. وتمثل الموسيقى الحديثة أغلب الموسيقى التى يتم تقديمها فى هذا المهرجان ـــ ويتم إعطاء فرصة سماع ألحان الملحنين الشباب الجدد. وهناك من يقدر هذا المهرجان، ورغم ذلك فهناك آخرون ينكرون ويحتقرون هذا المهرجان’’.

قال السير ستافورد: ‘‘نعم، لقد سمعت عنه. هل سنحضره؟’’.

‘‘لدينا مقاعد محجوزة لحفلتى اثنين من المشاركين’’.

‘‘هل لهذا المهرجان أى مغزى خاص فى تحقيقنا؟’’.

قالت ريناتا: ‘‘لا، بل هو ما يمكن لك تسميته مخرجًا ومدخلاً ملائمًا ومبررًا. فنحن سنذهب إلى المهرجان لسببين أحدهما ظاهرى والآخر حقيقى، وسنغادر المهرجان فى الخطوة التالية وفقًا لسياق الأحداث’’.

ونظر حوله قائلاً: ‘‘هل هناك أية تعليمات؟ هل لدىَّ أى تعليمات بخصوص تحركاتى؟ هل هناك من سيوجهنى ويرشدنى؟’’.

‘‘ليس بالمعنى الذى تقصده بهذه المصطلحات. فأنت ذاهب فى رحلة استكشافية وستعلم أشياء بمرور الوقت. فستذهب كما أنت، لا تعلم إلا ما تعرفه فى الوقت الحالى. وستذهب كمحب للموسيقى، ربما كدبلوماسى محبط كان يأمل فى منصب

ما فى دولته ولم يعثر عليه. وعلى الجانب الآخر فلن تعرف أى شىء، وذلك أكثر أمنًا لك''.

''لكن هل إجمالى نشاطنا فى الوقت الحالى يقع فى هذا الجزء من العالم؟ فى ألمانيا، وبافاريا، والنمسا، وتيرول؟''.

''إنه أحد مراكز اهتمامنا''.

''إذن فهو ليس بالمركز الوحيد؟''.

''فى الواقع، هو ليس المركز الرئيسى. فهناك نقاط أخرى فى العالم مختلفة الأهمية والفائدة. لكن بالنسبة لمدى أهمية كل نقطة فهذا ما سنكتشفه''.

''أليس من حقى أن أعرف أى شىء بخصوص المراكز الأخرى؟''.

''بشكل سطحى فقط. وأحد هذه المراكز والذى نعتقد أنه أكثر المراكز أهمية يقع مركز إدارته فى أمريكا الجنوبية، وهناك مركزان للإدارة فى الولايات المتحدة أحدهما فى كاليفورنيا والآخر فى بلتيمور. وهناك مركز فى السويد وآخر فى إيطاليا التى تزايد فيها النشاط بشكل كبير فى الأشهر الستة الأخيرة. وتوجد مراكز أصغر فى كل من البرتغال وإسبانيا. وهناك مراكز فى باريس بكل تأكيد. وهناك أماكن أخرى فى العالم مثيرة للاهتمام، بدأت تدخل فى مرحلة الإنتاج، يمكنك القول إنها مراكز لم تصل بعد للتطور الكامل''.

''أتقصدين الملايو أو فيتنام؟''.

''لا. لا، فكل هذا كان من الماضى. فقد كانت تلك الصرخة الداعية للعنف وسخط الطلبة وأشياء أخرى كثيرة''.

''ويجب أن تفهم أن ما يتم تعزيزه وتنميته هو ذلك التنظيم المتنامى من الشباب فى كل مكان ضد نظام حكومتهم؛ ضد عادات آبائهم، وضد الأفكار التى نشأوا عليها ولم يعتنقوها عن اقتناع. فهناك الرغبة المتنامية فى الإباحية، والرغبة المتنامية فى العنف، العنف ليس كوسيلة لكسب المال بل العنف لحب العنف نفسه. ونحن نؤكد هذا الأمر بشكل خاص، وسبب ذلك هم الأشخاص الذين نعتبرهم من أهم الأشياء وأكثرها مغزى''.

''وماذا عن المخدرات؟''.

''لقد تطورت دائرة المخدرات ونمت بشكر ممنهج. وقد تم جمع مبالغ ضخمة بتلك الطريقة، لكن الأمر لا يوجهه دافع المال، أو هذا ما نعتقده''.

نظروا جميعًا إلى السيد روبنسون الذى هز رأسه ببطء.

ثم قال: ''لا، يبدو الأمر كذلك. فهناك بعض الأشخاص تم القبض عليهم وتقديمهم للعدالة. وسيلحق بهم مروجو المخدرات. لكن هناك أكثر من تهريب المخدرات وراء كل هذا. فتجارة المخدرات من الطرق الشريرة لجنى المال. لكن هناك ما هو أكثر من ذلك''.

''لكن من ...''، توقف ستافورد ناى ولم يكمل كلامه.

قال السيد روبنسون: ‘‘من وماذا ولماذا وأين؟ أدوات الاستفهام الأربع. هذه هى مهمتك، سير ستافورد. فهذا ما عليك التوصل إليه أنت ومارى آن. لن يكون الأمر سهلاً، وتذكر أن المحافظة على الأسرار من أكثر الأشياء صعوبة فى العالم’’.

نظر السير ستافورد باهتمام إلى وجه السيد روبنسون السمين الأصفر. ربما كان سر سيادة السيد روبنسون على عالم الاقتصاد أنه يحفظ سره. وابتسم السيد روبنسون مرة أخرى وظهرت أسنانه البيضاء اللامعة.

ثم قال: ‘‘إذا كنت تعرف فدائمًا ما يكون هناك إغراء شديد لتظهر أنك تعرفه؛ بعبارة أخرى: الحديث عنه. ليس بسبب أنك تريد إعطاء معلومات، وليس لأنك ستحصل على مقابل نتيجة لتقديمك المعلومات. بل أنت من تريد إظهار مدى أهميتك. نعم، الأمر بهذه البساطة’’، ثم أردف السيد روبنسون وعيناه نصف مغلقتين: ‘‘فى الواقع كل شىء فى العالم شديد البساطة جدًّا، وهذا ما لا يفهمه الناس’’.

ونهضت الكونتيسة وفعل السير ستافورد مثلها تمامًا.

قال السيد روبنسون: ‘‘آمل أن تناموا وترتاحوا جيدًا، فأنا أعتقد أن هذا المنزل مريح للغاية’’.

همهم ستافورد نای أنه كان متأكدًا تمامًا من ذلك وأنه على وشك إثبات وجهة نظره. وراح فى النوم بمجرد أن وضع رأسه على الوسادة.

الكتاب الثانى

رحلة إلى سيجفريد

الفصل العاشر

سيدة القلعة

1

خرجا من مهرجان مسرح الشباب إلى هواء الليل المنعش. وكان هناك مطعم مضيء أسفل التل ومطعم آخر أصغر من السابق على الجانب الآخر من التل. اختلفت أسعار المطاعم بشكل طفيف، لكن لم يكن أى منها باهظًا فى تكاليفه. وكانت ريناتا ترتدى فستان سهرة من القطيفة السوداء، وكان السير ستافورد ناى يرتدى رابطة عنق بيضاء وملابس سهرة كاملة.

همهم ستافورد ناى إلى رفيقته: ‘‘جمهور مميز للغاية، من المؤكد أن المهرجان تكلف الكثير من المال، وأغلب الجمهور من الشباب، من المؤكد أنه لا يمكنهم دفع ثمن التذكرة’’.

‘‘أوه! يمكن إدراك ذلك ـــ إنه أمر تسهل ملاحظته’’.

‘‘دعم لنخبة الشباب؟ هل الأمر هكذا؟’’.

‘‘نعم’’.

وسارا تجاه المطعم الواقع على الجانب المرتفع من التل.

‘‘حددت إدارة الحفل ساعة استراحة لتناول وجبة طعام، هل هذا صحيح؟’’.

‘‘هى ساعة من الناحية النظرية، لكنها ساعة والربع من الناحية العملية’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘يمكننى القول إن أغلب هذا الجمهور، بل جميعه تقريبًا محبون للموسيقى’’.

‘‘أغلبهم، ذلك أمر مهم كما تعلم’’.

‘‘ما الذى تقصدينه بكلمة مهم؟’’.

أضافت قائلة: ‘‘الحماس، أن يكون صادقًا بكل المقاييس’’.

‘‘مثلاً يجب أن يكون ممارسو العنف ومنظموه محبين له، وراغبين فيه، ويتشوقون إليه. والانجذاب فى كل حركة للضرب والإصابة والتدمير. والأمر نفسه مع الموسيقى. فيجب أن تقدر الأذن كل لحظة من التناغم والجمال. ولا يمكن أن يكون هناك أى تظاهر فى هذه اللعبة’’.

‘‘أيمكنك مضاعفة الأدوار ـــ أتقصدين أن بمقدرتك دمج العنف وحب الموسيقى أو الفن؟’’.

‘‘أعتقد أن الأمر عادة لا يكون سهلاً، لكن نعم. فهناك الكثيرون يمكنهم ذلك. فى الواقع، سيكون الأمر أكثر أمنًا إن لم يكن عليهم دمج الأدوار’’.

‘‘هل من الأفضل إبقاء الأمور بسيطة، كما يقول صديقنا البدين السيد روبنسون؟ دعى محبى الموسيقى يحبوا الموسيقى، ودعى ممارسى العنف يحبوا العنف. هل هذا ما تقصدينه؟’’.

‘‘أعتقد ذلك’’.

‘‘أستمتع بالأمر كثيرًا فى اليومين اللذين قضيناهما هنا، وليلتى الموسيقى اللتين استمتعنا بهما، ولم أستمتع بكل الموسيقى لأن ذوقى ليس حديثا بالشكل الكافى. لكننى أجد ملابسهم مثيرة للانتباه’’.

‘‘أتتحدث عن الإنتاج المسرحى؟’’.

‘‘لا، لا. فى الواقع كنت أتحدث عن الجمهور. فأنا وأنتِ قديما الطراز. أنتِ أيتها الكونتيسة فى رداء مجتمعك وأنا برابطة عنقى الأبيض وبذلتى الرسمية ذات الذيل لسنا مرتاحين فيهما. والآخرون، أثوابهم الحريرية الناعمة، وقمصان الرجال المزخرفة ذات الأشرطة، والقطيفة وقصة الشعر ورفاهية الطبقة العليا، رفاهية القرن الثامن عشر، أو يمكنكِ القول إنها رفاهية عصر الملكة إليزابيث أو صور فان ديك’’.

‘‘نعم، أنت محق’’.

‘‘ومع ذلك، فأنا لست قريبًا لما يعنيه كل هذا. فلم أتعلم أى شىء. ولم أتوصل إلى أى شىء’’.

‘‘عليك أن تكون صبورًا. فهذا عرض ثرى يلقى الكثير من الدعم، مطالب به. ربما طلبه الشباب ودعمه ...’’.

‘‘من؟’’.

‘‘لا نعلم حتى الآن، لكننا سنعرف’’.

‘‘أنا سعيد للغاية أنك واثقة من ذلك’’.

ودخلا المطعم وجلسا. وكان الطعام جيدًا رغم أنه لم يكن معدًّا بصورة فاخرة أو جمالية على الإطلاق.

ومرة أو مرتين تحدث إليهما أحد معارفهما أو أصدقائهما. وعبر شخصان ممن تعرفوا على السير ستافورد نای عن سعادتهما ومفاجأتهما لرؤيته. وكانت ريناتا دائرة أكبر من المعارف بسبب معرفتها لعدد أكبر من الأجانب، منهم امرأة أنيقة، ورجل أو رجلان اعتقد ستافورد نای أنهم ألمانيون أو نمساويون فى الغالب فقد تحدث معهم بعض الكلمات العارضة. والأشخاص بتعدد جنسياتهم وغاياتهم كانوا إما ناقدين أو مقدرين لنجاح الموسيقى. ولم يضيع أى شخص وقتًا لأن فترة استراحة الطعام لم تكن طويلة.

ورجعا إلى مقعديهما ليستمعا إلى العرضين الموسيقيين التاليين. شِعر سيمفونى، التفكك فى سعادة، ألحان ملحن شاب جديد، سولكونوف، وبعد ذلك الفخامة الوقورة للحن الموسيقيين الألمان.

وخرجا ثانية فى الليل. وكانت بانتظارهما السيارة التى كانت تحت تصرفهما لتأخذهما ثانية لفندق صغير لكنه يقتصر على الصفوة فى شارع القرية. وتمنى ستافورد ناى ليلة طيبة لريناتا، التى تحدثت إليه بصوت خفيض قائلة:

‘‘الرابعة صباحًا، كن مستعدًّا’’.

وذهبت مباشرة إلى حجرتها وأغلقت الباب، وذهب ستافورد إلى حجرته.

وسمع طرقًا خفيفًا بالأصابع على بابه قبل الساعة الرابعة من الصباح التالى بثلاث دقائق. وفتح السير الباب ووقف مستعدًّا.

قالت له: ‘‘هيّا، فالسيارة بانتظارنا’’.

2

تناولا الغداء فى ملهى قرب الجبل. كان الجو لطيفًا وكان منظر الجبل جميلاً. وتساءل السير ستافورد ناى من وقت لآخر ما الذى كان يفعله هنا. فقد كان يفهم أقل القليل من رفيقة سفره، فقليلاً ما كانت تتحدث. ووجد نفسه يتأمل فى وجهها. إلى أين تأخذه؟ ما هدفها الحقيقى؟ وفى النهاية، والشمس على وشك الغروب تقريبًا، قال لها:

‘‘إلى أين سنذهب؟ أيمكننى السؤال؟’’.

‘‘نعم، يمكنك السؤال’’.

‘‘لكنك لن تجيبى، أليس كذلك؟’’.

‘‘يمكننى الإجابة. يمكننى إخبارك بعض الأشياء، لكن هل ستعنى لك أى شىء؟ يبدو لى أننا لو ذهبنا إلى مكان بدون إمدادك بتفسيرات (لا تعنى شيئًا فى حقيقة الأمر)، فسيكون انطباعك الأول أكثر قوة وتأثيرًا’’.

نظر إليها مرة أخرى بتفكير عميق، كانت ترتدى معطفًا من الصوف بالفرو ــ ملابس أنيقة للسفر مصنوعة بالخارج.

قال بتفكير: ‘‘مارى آن’’.

كان هناك سؤال غامض فى كلامه.

قالت: ‘‘لا، ليس فى هذه اللحظة’’.

‘‘آه. مازلتِ الكونتيسة زيركوسكى’’.

‘‘حتى هذه اللحظة مازلتُ الكونتيسة زيركوسكى’’.

‘‘هل أنتِ تقومين بدورك الحقيقى فى العالم؟’’.

‘‘بصورة أو بأخرى، فقد نشأت كطفلة فى هذا الجزء من العالم. وقد اعتدنا القدوم إلى هنا لجزء من السنة فى الخريف إلى قلعة لا تبعد إلا عدة أميال عن هنا’’.

ابتسم قائلاً: ‘‘يا لها من كلمة لطيفة. قلعة. تبدو كلمة قوية’’.

‘‘ليست بهذه القوة فى أيامنا هذه، فهى متهدمة تقريبًا’’.

‘‘هذا الريف الذى نشأ فيه هتلر، أليس كذلك؟ فنحن لسنا بعيدين عن بيرختسجادين، أليس كذلك؟’’.

‘‘إنها تقع فى الشمال الشرقى من هنا’’.

‘‘هل قَبِلَ أقاربك وأصدقاؤك هتلر؟ هل آمنوا به؟ ربما ليس علىَّ توجيه أسئلة مثل هذا السؤال’’.

‘‘كانوا يكرهونه وكل ما دعا إليه، لكنهم قالوا ‘‘هايل هتلر’’. فقد رضخوا لما حدث فى دولتهم. هل كان بوسعهم فعل شىء آخر؟ ما الذى كان بوسع أى شخص آخر فعله فى هذه الفترة؟’’.

‘‘نحن نسير تجاه دولوميت، أليس كذلك؟’’.

‘‘هل يهمك مكاننا، أو إلى أين نحن ذاهبان؟’’.

‘‘حسنًا، هذه رحلة استكشافية، أليس كذلك؟’’.

‘‘بلى، لكنها ليست استكشافًا جغرافيًّا. فنحن ذاهبان لنقابل شخصية ما’’.

نظر ستافورد ناى إلى منظر الجبال الرائعة التى تصل إلى السماء قائلاً: ‘‘تجعلينني أشعركما لو كنا ذاهبين لزيارة رجل الجبل العجوز الشهير’’.

‘‘أستاذ القتلة الذى أبقى أتباعه تحت تأثير المخدرات، لذلك ماتوا من أجله بكل صدق، وقتلوا رغم أنهم يعرفون أنهم سيقتلون أيضًا، لكنهم كانوا يؤمنون بأنهم على حق’’.

توقفت لدقيقة ثم قالت:

‘‘الخطباء الساحرون! أعتقد أنهم كانوا هنا دائمًا عبر العصور. أشخاص يجعلونك تؤمن بهم وتكون جاهزًا للموت من أجلهم’’.

‘‘الشهداء؟ اللورد أولتماونت؟’’.

‘‘لماذا ذكرت اللورد أولتماونت؟’’.

‘‘رأيته على ذلك النحو فجأة فى هذه الليلة. منحوتا بالصخر فى صخرة تذكارية ربما ترجع للقرن الثالث عشر’’.

‘‘سيكون على أحدنا الموت، ربما أكثر’’.

أوقفته عما كان يوشك قوله.

‘‘هناك شىء آخر أفكر فيه فى بعض الأوقات. مقطع شعرى يقول فيه البطل لأصدقائه: ‘‘أنتم رفقائى وأصدقائى، ومع ذلك فأحدكم شيطان’’. لذلك فعلى كل الاحتمالات أحدنا شيطان’’.

‘‘أتعتقدين أن ذلك صحيح؟’’.

‘‘ذلك أمر مؤكد بشكل كبير فهناك شخص نثق به ونعرفه جيدًا لكنه ينام ليلاً ولا يحلم بالاستشهاد بل يحلم بثلاثين قطعة من الفضة ويستيقظ شاعرًا بأثرها فى راحة يده’’.

‘‘حب المال؟’’.

‘‘الطموح يوارى هذا المعنى بشكل أفضل. كيف يتعرف المرء على شيطان؟ كيف للمرء أن يعرفه؟ ربما يبرز الشيطان فى الزحام، ويكون مثيرًا ـــ يعلن عن نفسه ـــ ويمارس القيادة والزعامة’’.

صمتت لدقيقة ثم قالت بصوت ينم عن التفكير العميق:

‘‘كانت لى صديقة فى السلك الدبلوماسى أخبرتنى كيف قالت لسيدة ألمانية عن مدى تأثرها بأداء مسرحية الآلام فى أوبرا ميرجاو. لكن السيدة الألمانية ردت عليها ساخرة: ‘‘أنت لا تفهمين. فنحن الألمان لا نحتاج لبطل! فنحن معنا أدولف هتلر، فهو أعظم من أى بطل عاش على هذه الأرض’’. وقد كانت تلك السيدة سيدة لطيفة وعادية للغاية. لكن هذا هو ما شعرت به، وشعر به أعداد كبيرة من الناس. فقد كان هتلر خطيبًا ساحرًا يتحدث ويستمعون له ويقبلون ساديته، وفظائع الجيستابو’’.

وهزت كتفيها وقالت بصوتها الطبيعى: ‘‘والأمور كلها متشابهة، فمن الحماقة أن تقول ما قلته للتو؟’’.

‘‘ما الذى قلته؟’’.

‘‘عن رجل الجبل العجوز، أستاذ القتلة ورئيسهم’’.

‘‘هل تخبريننى بأن رجل الجبل العجوز هنا؟’’.

‘‘لا. ليس رجل الجبل العجوز، بل قد تكون هنا سيدة الجبل العجوز’’.

‘‘سيدة الجبل العجوز؟ كيف تبدو؟’’.

‘‘سترى هذا المساء’’.

‘‘ما الذى ستفعله هذا المساء؟’’.

قالت ريناتا: ‘‘سندخل فى المجتمع’’.

‘‘يبدو لى أن وقتًا طويلاً قد مر منذ أن كنتِ مارى آن’’.

‘‘سيكون عليك الانتظار حتى نقوم برحلة جوية ثانية’’.

قال ستافورد ناى بتفكير عميق: ‘‘أعتقد أن العيش فى مكان مرتفع سيكون له أثره السيئ على معنويات الفرد’’.

‘‘هل تقصد اجتماعيًّا؟’’.

‘‘لا، بل جغرافيًّا. فإذا كنتِ تعيشين فى قلعة على قمة جبل وتطلين على العالم من تحتك، حسنًا، سيجعلك ذلك تحتقرين العامة، أليس كذلك؟ فأنتِ الأعلى والأعظم.

فهذا ما شعر به هتلر فى بيرختسجادين، وربما يكون ذلك ما يشعر به الكثيرون ممن يتسلقون الجبال وينظرون لأسفل على رفقائهم من المخلوقات الموجودة فى الوديان بأسفل".

قالت له ريناتا محذرة: "يجب أن تكون حذرًا الليلة، فالموقف سيكون خطيرًا وحساسًا".

"هل لديكِ أية تعليمات؟".

"ستدعى أنك رجل ساخط، ضد القوانين، وضد العالم التقليدى. أنت ثائر، لكنك ثائر سرى. هل يمكنك القيام بذلك؟".

"يمكننى المحاولة".

ازداد المكان على جانبى الطريق وحشة. وانعطفت السيارة ومرت بطرق وعرة عبر الجبال والقرى، فى بعض الأوقات يريان منظرًا غير واضح تلمع فيه الأضواء على النهر وتظهر قمم المبانى من مسافة بعيدة.

"إلى أين سنذهب، مارى آن؟".

"إلى عش النسر".

وأخذ الطريق منعطفًا أخيرًا، يمر بقلب الغابة مباشرة. ومن وقت لآخر اعتقد السير ستافورد ناى أنه لمح غزالاً أو حيوانات من هذا القبيل. وأيضا رأى رجالاً يرتدون سترات من الجلد ويحملون البنادق، فقال لنفسه إنهم الحراس. وأخيرًا وصلوا إلى قلعة ضخمة مبنية على صخرة. واعتقد أن بعض أجزائها كانت مدمرة جزئيًا رغم أن أغلبها تم ترميمه وإعادة بنائه. كانت القلعة ضخمة وفخمة لكن لم يكن هناك أى شىء جديد فيها أو فى الرسالة التى تبثها للناظرين إليها. فقد كانت تمثل قوة الماضى، قوة من العصور الماضية.

قالت ريناتا: "كانت تلك فى الأساس دوقية ليختنشتولز الكبرى. وقد بنى الدوق لودفيج الكبير هذه القلعة فى عام 1790".

"ومَنْ يعيش هنا الآن؟ مَنْ الدوق الكبير الحالى؟".

" لقد رحلوا جميعًا وانتهوا".

"ومن الذى يعيش هنا الآن".

قالت ريناتا: "شخص لديه قوة يومنا الحالى".

"النقود؟".

"نعم، الكثير منها".

"هل سنقابل السيد روبنسون، هل طار كل هذه المسافة ليحيينا؟".

"أؤكد لك أن السيد روبنسون هو آخر شخص تتوقع رؤيته هنا".

قال ستافورد ناى: ‘‘يا للأسف. أنا أحب السيد روبنسون. فهو شخص ذو شأن، أليس كذلك؟ من هو حقًّا ـــ ما جنسيته؟’’.

‘‘لا أعتقد أن هناك من يعرف، فكل شخص يقول شيئًا مختلفًا بخصوص هذا الأمر. يقول البعض إنه تركى، وآخرون قالوا إنه أرمنى، وآخرون يقولون إنه هولندى، وآخرون يقولون إنه مجرد رجل بريطانى عادى. ويقول البعض إن والدته كانت جارية شركسية، وآخرون يقولون إنها دوقة روسية، وآخرون يقولون إنها بيجوم هندية وغيرها من الأقاويل. لكن لا أحد يعرف. وقد أخبرنى شخص ما بأن والدته كانت هى السيدة ماكيلان من اسكتلندا. وأعتقد أن ذلك مجرد كلام مثل باقى الآراء’’.

وسارا تحت رواق واسع قائم على أعمدة. وأتى رجلان يرتديان زى الخدم ونزلا السلالم. وانحنيا بصورة مبالغ فيها وهما يرحبان بالضيف. وتم حمل حقائبهما؛ فقد كان معهما كمية كبيرة من الحقائب. وفكر ستافورد ناى أن يبدأ بسؤال عن سبب الطلب منه أن يحضر معه الكثير من الحقائب والأغراض، لكنه كان قد بدأ يفهم الحاجة إليها من وقت لآخر. وسيكون هناك حاجة إليها هذا المساء. فقد بدت عليه علامات التساؤل وأخبرته رفيقته بالأمر.

وتقابلا قبل العشاء، فقد استدعاهما صدى صوت ناقوس ضخم. وتوقف فى الردهة منتظرًا أن تأتى إليه لينزلا السلالم معًا. كانت ترتدى فستان سهرة جيد التفصيل مصنوعًا من القماش الأحمر الناعم، وعقدًا من الياقوت حول رقبتها وتاجًا من نفس الياقوت الأحمر ـــ أيضًا ـــ فوق رأسها. وسبقهم أحد الخدم وقاد طريقهما. ثم فتح الباب معلنًا:

‘‘جرافين زيركوسكى، السير ستافورد ناى’’.

قال السير ستافورد ناى لنفسه: ‘‘ها قد وصلنا، وآمل أن نأخذ دورنا’’.

ونظر لأسفل برضا إلى الياقوت والمجوهرات المرصعة على قميصه. وبعد دقيقة وجد نفسه يشهق شهقة تعجب ودهشة. فمهما كان ما توقع رؤيته فلم يكن هناك شىء مما رآه يمكن توقعه. كانت حجرة ضخمة للغاية مبنية بأسلوب الروكوكو، والمقاعد والأرائك والأشياء المعلقة على الحائط مصنوعة من أفخر الأقمشة وأفخم الزخارف. وعلى الجدران كانت هناك صور لم يتمكن من التعرف على طرازها من الوهلة الأولى، ولكن لأنه مغرم باللوحات، فقد أدرك على الفور طبيعتها أنها بريشة سيزان، وماتيس، وربما رينوار. فهى لوحات قيمتها لا تقدر بثمن.

وكانت هناك سيدة ضخمة للغاية جالسة على الكرسى الكبير الذى يبدو كالعرش. وقال ستافورد ناى لنفسه إنها امرأة حوت، فليس هناك أى كلمة أخرى لتصفها. امرأة عظيمة وضخمة وسمينة منغمسة فى الدهون. وتشعر بأن بذقنها ذقنان، أو ثلاثة ذقون، لا بل أربعة ذقون تقريبًا. وكانت ترتدى فستانًا من الستان. وعلى رأسها كان هناك إكليل مثل التاج مصنوع من الأحجار الكريمة. وكانت يداها، اللتان استقرتا على يد الكرسى المزخرفة، ضخمتين أيضًا. يدان ضخمتان كبيرتان سمينتان بأصابع عظيمة وضخمة وسمينة وليس لها شكل محدد. ولاحظ وجود

خاتم من الأحجار الكريمة فى كل إصبع من أصابعها وفكر فى نفسه قائلاً إن كل حجر من هذه الأحجار لابد أن يكون فريدًا من نوعه. ياقوت، زمرد، ياقوت أزرق، ماس، وحجر أخضر باهت لا يعرفه، ربما كان العقيق، وكان هناك حجر أصفر إن لم يكن التوباز فهو الألماس الأصفر. كان يرى أنها رهيبة غارقة فى بدانتها. وكان وجهها عبارة عن كتلة دهون بيضاء وضخمة ومتجعدة مبللة باللعاب. ووضح فى وجهها عينان سوداوان صغيرتان كالزبيبة الموضوعة على سطح كعكة كبيرة. عينان حادتان للغاية، تنظران فى العالم وتقيمانه، وتقيمان السير ستافورد ولا تقيمان ريناتا. فقد كانت ريناتا هنا بالأمر والتعيين فليس لها حرية الاختيار. فقد وجهت إلى ريناتا أوامر بجلب السير إلى هنا. وتساءل عن السبب. لم يكن بإمكانه التفكير فى السبب لكنه كان متأكدًا من شىء ما. فقد كانت نظرات السيدة موجهة إليه هو. فقد كانت تقيمه، وتقدره. هل كان هو ما أرادته؟ هل هو كذلك، نعم الأمر كذلك، هل هو كما طلب العميل؟.

وفكر قائلاً: سيكون علىَّ التأكد من أننى أعلم ما الذى تريده، سيكون علىَّ بذل أفضل ما فى وسعى وإلا ... وإلا يمكنه أن يتخيل أنها قد ترفع يدًا سمينة مرصعة بالخواتم وتقول لأحد الرجال طوال القامة مفتولى العضلات الواقفين: ‘‘خذوه وارموه من فوق سور القلعة’’. اعتقد ستافورد نای أن الأمر مضحك فتلك الأشياء لا تحدث هذه الأيام. أين أنا؟ ما نوع العرض، أو الحفلة التنكرية، أو الأداء المسرحى الذى أشارك فيه؟.

‘‘لقد أتيتِ فى وقتك تمامًا يا طفلتى’’.

كان الصوت أجش خفيضًا يبدو أن صاحبته مصابة بالربو وبه بعض علامات القوة وربما الجمال. انتهى هذا الأمر الآن. فقد تقدمت ريناتا للأمام وانحنت انحناءة خفيفة. وأمسكت باليد السمينة وقبلتها.

‘‘دعينى أقدم لكِ السير ستافورد نای. جرافين شارلوت فون فالدسوسين’’.

امتدت اليد السمينة ناحيته. وانحنى لها بطريقة أنيقة. ثم قالت له شيئًا فاجأه.

‘‘أنا أعرف عمتك الكبرى’’.

نظر إليها مذهولاً، وأدرك على الفور أنها كانت تستمتع بذلك، لكنه أدرك أيضًا أنها كانت تتوقع أن يفاجئه هذا الأمر. وضحكت، كانت ضحكة مزعجة. وليست جذابة.

‘‘يمكننا أن نقول إننى كنت أعرفها جيدًا. فقد مرت سنوات كثيرة جدًا منذ آخر مرة رأيتها. كنا فى سويسرا معًا، فى لوزان كفتيات. ماتيلدا. الليدى ماتيلدا بلدوين وايت’’.

قال ستافورد نای: ‘‘يالها من أخبار مدهشة لأعود بها إلى عمتى’’.

‘‘هى أكبر منى. هل هى بصحة جيدة؟’’.

‘‘نظرًا لسنها فهى فى صحة جيدة جدًّا. فهى تعيش فى الريف بكل هدوء. ولديها التهاب المفاصل، الروماتيزم’’.

‘‘أوه نعم، كل أمراض الشيخوخة. يجب أن تحصل على جرعات من البنج الموضعى. هذا ما يفعله الأطباء هنا. وهذا شىء مُرضٍ جدًّا. هل تعلم أنك تزورنى؟’’.

قال السير ستافورد نای: ‘‘أعتقد أنها ليس لديها أدنى فكرة عن ذلك، فهى تعلم أننى ذاهب لمهرجان عن الموسيقى الحديثة’’.

‘‘آمل أن تكون قد استمتعت به؟’’.

‘‘أوه، بشدة. إنه مهرجان رائع فى قاعة الأوبرا، أليس كذلك؟’’.

‘‘واحد من أروع المهرجانات. تبًّا! فقد جعل هذا المهرجان مهرجان بيرث مثل مدرسة شاملة! أتعلم ما تكلفة بناء بيت الأوبرا هذا؟’’.

ذكرت مبلغًا من ملايين الماركات. وأخذت هذه الأرقام أنفاس السير ستافورد ولكن لم يكن هناك أى داعٍ لكى يخفى مشاعره. وكانت سعيدة بالأثر الذى تركه حديثها عليه.

وقالت: ‘‘بالمال، إذا كان الفرد يعلم ذلك، إن كانت له القدرة، إن كانت له قدرة على التمييز، ما الذى لا تستطيع النقود فعله؟ يمكن أن تعطى للفرد أفضل الأشياء’’.

قالت الكلمتين الأخيرتين باستمتاع شديد، وضمت شفتيها لبعضهما، وهذا ما وجده السير ستافورد أمرًا كريهًا ونذير شؤم فى الوقت نفسه.

قال وهو ينظر إلى الجدران من حوله: ‘‘أرى ذلك واضحًا هنا’’.

‘‘هل أنت مهتم بالفن؟ نعم، أرى ذلك. هناك على الجدار الشرقى توجد أفضل لوحة لسيزان فى العالم اليوم. يقول البعض إن ـــ أوه، لا يمكننى تذكر اسمها الآن، إن اللوحة الموجودة فى ميتروبوليتان بنيويورك أفضل منها. وهذا ليس صحيحًا. فأفضل ما رسمه ماتيس، وسيزان، وكل ما رسمته المدارس العظيمة موجود هنا. فى عش النسر الجبلى الخاص بى’’.

قال السير ستافورد: ‘‘مدهش، مدهش للغاية’’.

وتم تقديم مشروبات لهم، ولاحظ السير ستافورد نای أن سيدة الجبل العجوز لم تشرب أى شىء. وقال لنفسه ربما لا تريد المخاطرة بضغط زائد على دمها يضاف إلى وزنها الكبير.

سألت أنثى التنين الجبلى: ‘‘وأين قابلت هذه الطفلة؟’’.

هل كان ذلك فخًّا؟ لم يكن يعلم، لكنه كان قد اتخذ قراره.

‘‘فى السفارة الأمريكية بلندن’’.

‘‘آه، نعم، فهذا ما سمعت. وكيف حال ـــ آه، لقد نسيت اسمها الآن ـــ أوه نعم، ميلى جين، وريثتنا الجنوبية؟هل تعتقد أنها جذابة؟’’.

‘‘أكثر النساء جاذبية. فقد حققت نجاحًا عظيمًا فى لندن’’.

‘‘وكيف وجدت الكئيب قليل البراعة سام كورتمان، السفير الأمريكى؟’’.

قال ستافورد نای بأدب: ‘‘أنا متأكد أنه رجل حصيف وموثوق به’’.

ضحكت ضحكة خافتة.

‘‘آه، أنت متحدث لبق، أليس كذلك؟ حسنًا، هو يبلى بلاء حسنًا. فهو ينفذ ما يطلب منه كما على السياسى الجيد أن يفعل. ومن الممتع جدًّا أن تكون سفيرًا فى لندن، ويمكن لميلى جين أن تقوم بذلك من أجله. آه، يمكنها أن تجعله سفيرًا على أى سفارة فى العالم، بكيس نقودها الممتلئ. فوالدها يمتلك نصف بترول تكساس، ويمتلك أيضًا أراضى ومناطق مناجم الذهب وكل شىء. وهو رجل فظ وقبيح المنظر ـــ لكن كيف تبدو ميلى جين؟ إنها تبدو كسيدة أرستقراطية لطيفة وضئيلة. ولا يبدو عليها السماجة أو الثراء. وذلك يعد مهارة كبيرة منها، أليس كذلك؟’’.

قال ستافورد نای: ‘‘فى بعض الأوقات لا يمثل الأمر أية مشاكل’’.

‘‘وأنت؟ ألست ثريًّا؟’’.

‘‘كنت أتمنى ذلك’’.

‘‘هل وزارة الخارجية غير مجزية هذه الأيام؟’’.

‘‘أوه، حسنًا. لن أقول إن الأمر كذلك ... فبعد كل شىء، فالفرد يذهب إلى أماكن ويقابل أشخاصًا ممتعين ويرى العالم، يرى شيئًا مما يحدث’’.

‘‘شيئًا، نعم. لكن ليس كل شىء؟’’.

‘‘سيكون ذلك صعبًا للغاية’’.

‘‘هل رغبت قبل ذلك فى رؤية ـــ كيف أعبر عن الأمر ـــ ما يحدث وراء كواليس الحياة؟’’.

قال بلهجة خالية من التعبيرات: ‘‘يكون لدىَّ فكرة فى بعض الأوقات’’.

‘‘لقد سمعت أحدهم يقول إنك فى بعض الأوقات تكون لديك فكرة عن أشياء ما. ربما ليست الأفكار التقليدية؟’’.

قال ستافورد نای ضاحكًا: ‘‘مرت علىَّ أوقات شعرت فيها بأننى مثل الفتى السيئ فى العائلة’’.

وضحكت شارلوت العجوز ضحكة خفيفة.

‘‘أحيانًا لا تمانع الاعتراف بالأشياء، أليس كذلك؟’’.

‘‘ولماذا التظاهر؟ فالناس عادة يعلمون ما تخفيه’’.

نظرت إليه.

‘‘ما الذى تريده من حياتك، أيها الشاب؟’’.

هزّ كتفيه. ومرة ثانية كان عليه أن يرتجل الإجابة.

ثم قال: ‘‘لاشىء’’.

‘‘دعك من هذا وأخبرنى بالحقيقة، هل علىَّ تصديق ما قلته؟’’.

‘‘نعم، يمكنك تصديق ذلك. فأنا لست طموحًا، هل يبدو علىَّ الطموح؟’’.

‘‘لا، وأنا أعترف بذلك’’.

‘‘أطلب فقط الاستمتاع، والحياة فى راحة، والأكل والشرب باعتدال، وأن يكون لى أصدقاء يمتعوننى’’.

انحنت السيدة العجوز للأمام. وفتحت عينيها وأغلقتهما ثلاث مرات. ثم تحدثت بصوت مختلف تمامًا. كان مثل الملاحظات الهامسة.

‘‘أيمكنك الكره؟ هل أنت قادر على الكراهية؟’’.

‘‘الكراهية مضيعة للوقت’’.

‘‘أرى ذلك. فليست هناك أية خطوط لعدم الرضا فى وجهك. ومن الواضح أن هذا حقيقى. على كل حال، أعتقد أنك جاهز لأن تسلك طريقًا محددًا سيوصلك إلى مكان محدد وستسير فيه مبتسمًا كما لو كان الأمر لا يعنيك، لكن رغم ذلك إذا وجدت المرشدين والمساعدين المناسبين فستحصل على ما تريده فى النهاية إذا كنت قادرًا على الرغبة’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘بالنسبة للرغبة، من لا يستطيع؟’’، وهزّ رأسه برفق شديد مكملاً حديثه: ‘‘ترين الكثير، الكثير جدًّا’’.

فتح الخدم الباب.

‘‘العشاء جاهز’’.

كانت المراسم رسمية بشكل دقيق. وكان يحيط بهم جو ملكى. فقد فتحت الأبواب الضخمة فى أقصى نهاية الحجرة لتظهر من ورائها حجرة طعام رسمية ساطعة الأضواء مدهونة السقف، الذى تدلت منه ثلاث نجفات ضخمة الحجم. واقتربت سيدتان فى منتصف العمر من النبيلة، واحدة على كل جانب. وكانت السيدتان ترتديان ملابس السهرة الرسمية، وكان شعرهما مصففًا جيدًا ومعقوصًا من الخلف، وكانت كل منهما ترتدى دبوسًا ماسيًّا مزخرفًا. وعلى كل حال فقد أوليتا السير ستافورد ناى نوعًا من الحراسة المحسوسة. واعتقد أنهما ليستا بحارستى أمن بل ربما تكونان ممرضتين مرافقتين ذواتى مستوى مرتفع مسئولتين عن الصحة، والحمام، والتفاصيل الأخرى شديدة الخصوصية فى حياة جرافين شارلوت. وبعد انحناءتين تعبران عن الاحترام، وضعت كل واحدة منهما ذراعها تحت كتف ومرفق السيدة الجالسة. وبدقة الممارسة الطويلة وبمساعدة الجهد الذى كان واضحًا أنه أقصى ما يمكنهما فعله أوقفتا السيدة على قدميها بشكل فخم.

قالت شارلوت: ‘‘سنذهب إلى الداخل لتناول العشاء’’.

وقادت الطريق بمساعدة مرافقتيها. وعلى قدميها بدت ككتلة من الجيلى المرتعش، ومع ذلك فمازالت تبدو ضخمة. لا يمكنك تخيلها فى عقلك إلا كسيدة

عجوز سمينة. فقد كانت شخصًا ما، تعرف أنها شخص ما، يبدو أنها شخص ما. وسار هو ورينانا وراء الثلاثة.

وبدخولهم من باب غرفة الطعام، شعر بأنها قاعة مأدبة وليست غرفة طعام. فقد كان هناك حراس شخصيون، شباب طوال بهيو الطلعة ذوو شعر ذهبى. وارتدوا نوعًا من الزى الموحد. وبدخول شارلوت سمعوا صوت صليل السيوف لقيام أحد الشباب بسحب سيفه ثم فعل مثله الجميع. ورفعوها لأعلى ليسمحوا لهم بالمرور، وتركت مرافقتيها وسارت بمفردها حتى وصلت إلى كرسى ضخم على رأس مائدة الطعام الطويلة مزخرف بحلى ذهبية ومزركش بخيوط تنجيد ذهبية أيضًا. اعتقد ستافورد ناى أن الأمر أشبه بمسيرة زواج لأحد ضباط البحرية أو الحربية. وكانت مسيرة حربية بالتأكيد لكن ينقصها العريس.

كان جميعهم شبابًا ببنيان جسمانى قوى وضخم. وقال ستافورد ناى لنفسه إنه لا يوجد أى شاب فيهم فوق الثلاثين. وكان مظهرهم جيدًا وصحتهم واضحة. ولم يبتسموا، بل كانوا جادين تمامًا فقد كانوا ـــ فكر فى كلمة ليصفهم بها ـــ نعم، متفانين، ربما ليس مثل مسيرة عسكرية بل دينية. وظهر مساعدو الخدم، مساعدون عتيقو الطراز ينتمون إلى ماضى القلعة، ربما إلى ما قبل حرب 1939. كان الأمر مثل إنتاج ضخم لمسرحية تاريخية. وتجلس الملكة فى هذا المشهد على كرسى أو عرش أو أيًّا كان ما ترغب فى تسميته موجود على رأس المائدة. سيدة عجوز ـــ مميزة بوزنها الزائد على الحد وقبحها الواضح غير العادى ـــ وليست ملكة أو إمبراطورة. من كانت هذه المرأة؟ وما الذى تفعله هنا؟ ولماذا؟

لِمَ كل هذه الحفلة التنكرية، ولِمَ هؤلاء الحراس الشخصيون، ربما حراس أمن شخصيون؟ وأتى متناولو الطعام الآخرون إلى المنضدة. وانحنوا للشىء الرهيب الضخم الجالس على العرش فى صدارة المائدة ثم جلسوا فى أماكنهم. وكانوا يرتدون ملابس سهرة عادية. ولم يتم تقديمهم.

وكان ستافورد ناى يقدر الأشخاص بعد سنوات طويلة من معاملتهم. فهناك أنواع مختلفة، أنواع مختلفة كثيرة وعظيمة. المحامون ـــ كان متأكدا من ذلك ـــ الكثير من المحامين. وربما محاسبون أو مصرفيون؛ فرد أو اثنان من ضباط الجيش بملابس من لون واحد. اعتقد السير أنهم كانوا من أهل البيت لكنهم كانوا أيضًا يكنون مشاعر عدائية للتقليدية بمصطلح ‘‘من يجلسون تحت الملح’’.

وأتى الطعام. رأس بقرة ضخمة فى مرق متبل، ولحم غزال، وحساء ليمون بارد ومنعش، وكومة كبيرة من المخبوزات ـــ والكثير من الحلوى المخبوزة بشكل أزهار جميلة.

وأكلت السيدة الضخمة، بنهم وبجوع مستمتعة بطعامها. وأتى صوت جديد من الخارج. صوت محرك قوى لسيارة رياضية، ومرت السيارة من أمام النافذة ومر ضوؤها الأبيض السريع على النافذة. ثم صاح أحد الحراس من داخل الغرفة، صيحة عظيمة ‘‘هايل! هايل! هايل فرانز!’’.

وتحرك الحراس الشباب بتلقائية السلوك العسكرى المحفوظ عن ظهر قلب. ونهض الجميع على أقدامهم، باستثناء السيدة العجوز التى جلست بدون حراك،

ورفعت رأسها لأعلى وهى جالسة على مقعدها. وهكذا فكر ستافورد فى دخول عنصر إثارة جديد إلى داخل الغرفة.

واختفى الضيوف الآخرون، أو سكان المنزل الآخرون أيًّا كانوا، بشكل ذكَّره بالسحالى التى تختبئ فى شقوق الجدران. وشكل الحراس شكلاً جديدًا فقد رفعوا سيوفهم وحيوا راعيتهم فأحنت لهم رأسها بعرفان ثم أخمدوا سيوفهم واستداروا، فقد أعطيت لهم الأوامر وخرجوا من باب الغرفة. وتبعتهم بعينيها، ثم سقطت عيناها على ريناتا وبعدها ستافورد ناى.

قالت: ‘‘ما رأيك فيهم؟ أولادى، نعم، أولادى. هل لديك كلمة يمكنك أن تصفهم بها؟’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘أعتقد ذلك، مهيبون’’. تحدث لها بأسلوب من يخاطب إحدى الملكات: ‘‘مهيبون سيدتى’’.

‘‘آه’’، ثم أحنت رأسها. وابتسمت وتعددت التجاعيد فى وجهها كله. وجعلتها الضحكة تبدو كالتمساح بالضبط.

امرأة رهيبة، لا تطاق، مأساوية. هل يحدث كل ذلك بالفعل؟ لا يمكنه تصديق ذلك. ماذا يمكن أن يكون ذلك إلا قاعة مهرجان أخرى بإنتاج ضخم.

فتحت الأبواب ثانية. ودخل رجلان ضخما الجثة ذوا شعر ذهبى، وفى هذه المرة لم يسحبا سيفيهما بل قاما بالغناء. الغناء بنغمة وصوت غير طبيعيين.

وشعر السير ستافورد ناى بسعادة لا تُصَدَّقُ بعد سنوات طويلة من غناء البوب. فهذه أصوات مدربة جيدًا. ولا يقومون بالصياح الأجش. فمن الواضح أنهم مدربون على يد أساتذة فى فن الغناء. لا يسمح لهم بشد أحبالهم الصوتية لكى لا يصبح صوتهم غريبًا. ربما يكونون أبطالاً جددًا لعالم جديد، لكن ما غنوه لم يكن بالموسيقى الجديدة. فقد كانت موسيقى سبق له سماعها. فهذا استعداد ومقدمة برايسليد، من المؤكد وجود أوركسترا خفية فى مكان ما هنا فى شرفة خارجية أعلى هذه الغرفة. كانت ترتيبات واستعدادات أو تعديلات لموضوعات فاجنرية مختلفة. ومرت برايسليد إلى الأصداء البعيدة لموسيقى الراين.

وصنع فيلق الصفوة ممرًا مزدوجًا من المتوقع أن يمر شخص ما فيه. هذه المرة لم تكن الإمبراطورة العجوز. فقد جلست على كرسيها تنتظر القادم أيًّا كان.

وفى النهاية وصل، وتغيرت الموسيقى بوصوله. وبدأت فى تلحين اللحن الذى يعرفه ستافورد ناى عن ظهر قلب وهو لحن سيجفريد الشاب. نداء بوق سيجفريد، المرتفع فى شبابه وانتصاره، فهو يمثل براعة عالم جديد أتى سيجفريد الشاب ليغزوه.

ومن الباب، دخل سائرًا بين الخطوط التى كانت واضحة أنها خطوط أتباعه، شخص كان هو أكثر الشباب الذين رآهم ستافورد ناى وسامة على الإطلاق. كان ذا شعر ذهبى، وعينين زرقاوين، وجسد متناسق، وتم خلط كل هذا كما لو كانت موجة صنعها الساحر بصولجانه السحرى وبدا كأنه أتى للتو من عالم الأساطير.

الأساطير، الأبطال، البعث، النشور، كانت كل هذه الأشياء موجودة. جماله، قوته، ثقته التى لا يمكن تصورها وعنجهيته.

وخطا خطوات واسعة عبر صفى حراسه حتى وقف أمام القبيحة الجالسة على عرشها؛ وركع على ركبة واحدة، ورفعت يدها إلى شفتيه، ثم نهض على قدميه ورفع يده محييًا ونطق الصيحة التى سمعها ستافورد ناى من الآخرين. ‘‘هايل!’’، لم تكن لهجته الألمانية جيدة، لكن ستافورد ناى اعتقد أنه قد ميز المقاطع: ‘‘هايل إلى الأم العظيمة!’’.

ثم أخذ البطل الشاب الوسيم يجول بنظراته فى جنبات المكان. كان يبدو أنه يعرف ريناتا بشكل طفيف وأنها لا تمثل له أهمية، وإن لم يبد عليه الاهتمام، لكن عندما تحولت نظراته إلى ستافورد ناى كان هناك اهتمام وتقدير شديدان. اعتقد ستافورد ناى أنه الحذر، الحذر! يجب أن يقوم بدوره الآن. يلعب الدور المتوقع منه. فقط ـــ ماذا كان دوره بحق السماء؟ ما الذى كان يفعله هنا؟ ما المفترض أن يفعله هو أو الفتاة هنا؟ لماذا أتيا إلى هنا؟

تحدث البطل.

قال: ‘‘إذن، لدينا ضيوف!’’، ثم أضاف مبتسمًا بغرور شاب يعلم أنه أفضل من أى شخص فى العالم بشكل كبير: ‘‘مرحبًا بالضيوف، مرحبًا بكل منكما’’.

وفى مكان ما عميق بالقلعة سمعوا قرع ناقوس عظيم. لم يكن صوتًا جنائزيًا، لكن كان للقرع جو نظامى. شعور باستدعاء كاهن دير إلى وظيفة مقدسة. قالت شارلوت العجوز: ‘‘يجب أن ننام الآن. اخلدوا للنوم وسنتقابل صباح الغد الساعة الحادية عشرة’’.

ونظرت إلى ريناتا والسير ستافورد ناى.

‘‘سيدلونكما على مكان غرفتيكما، آمل أن تناما جيدًا’’.

كان هذا بمثابة انسحاب على الطريقة الملكية.

رأى ستافورد ناى ريناتا ترفع ذراعها بالتحية الفاشية، لكنها لم تكن موجهة إلى شارلوت بل إلى الفتى ذى الشعر الذهبى. وأعتقد أنها قالت: ‘‘هايل فرانز جوزيف’’. رد لها التحية بمثلها وقال ‘‘هايل!’’.

وتحدثت شارلوت إليهم.

‘‘هل يسركم أن نبدأ صباح يوم غد بركوب الخيل فى الغابة؟’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘أفضل ذلك بين كل الأنشطة الأخرى’’.

‘‘وأنت، يا طفلتى؟’’.

‘‘نعم، أنا أيضًا’’.

‘‘جيد جدًّا. سيتم تجهيز هذا الأمر. تصبحان على خير. يسرنى الترحيب بكما هنا. اسندنى بذراعك، فرانز جوزيف. سنذهب إلى المخدع الصينى. فلدينا الكثير

لمناقشته وسيكون عليك الرحيل صباح الغد فى وقت ملائم".

ورافق الخدم ريناتا وستافورد ناى إلى غرفتيهما. وتردد ناى لدقيقة على عتبة الباب. هل من الممكن الحديث مع ريناتا كلمة أو كلمتين الآن؟ لكنه نبذ هذه الفكرة. فطالما كانا موجودين فى هذه القلعة فمن الأفضل توخى الحذر. لا أحد يعرف ـــ فربما تكون كل غرفة بها ميكروفون للتجسس.

ومع ذلك فعاجلاً أم آجلاً سيكون عليه توجيه أسئلة. فقد ظهرت أشياء جديدة وهناك شعور سيئ بالتوجس فى عقله. فقد تم إقناعه وإغواؤه فى شىء ما. لكن ما هذا الشىء؟ ومن الذى يفعله؟

كانت غرف النوم مرتبة جيدًا، وإن كانت كئيبة. فالستائر الغالية المصنوعة من الستان والقطيفة كان بعضها قديمًا تصدر عنه رائحة تعفن خفيفة لطفتها رائحة التوابل. وتعجب من قدرة ريناتا على الإقامة فى هذا المكان كل تلك المرات.

الفصل الحادى عشر

الشاب والمحبوبة

بعد تناول طعام الإفطار فى الصباح التالى بغرفة إفطار صغيرة أسفل السلالم، وجد السير ستافورد ناى ريناتا تنتظره. وكانت الخيول واقفة عند الباب.

وقد أحضر كل منهما ملابس لركوب الخيل معه. فقد توقعا بذكاء أى شىء يبدو أنهما قد يحتاجان إليه.

وركبا الخيل عبر الممشى المؤدى إلى خارج القلعة. وتحدثت ريناتا مع السائس حديثًا مطولاً بعض الشىء.

"لقد سأل عما إذا كنا نرغب فى أن يرافقنا، لكنى رفضت. فأنا أعرف الطرق هنا بشكل جيد جدًّا".

"فهمت، هل جئتِ إلى هنا من قبل؟".

"لم آت إلى هنا كثيرًا فى السنوات الأخيرة. لكن فى طفولتى كنت أعرف هذا لمكان جيدًا".

نظر إليها نظرة رقيقة. لكنها لم تبادله نفس النظرة. ونظر إلى وجهها وهى تمتطى صهوة فرسها بجواره ـــ الأنف الرفيع المعقوف، والرأس المرفوع بفخر شديد على رقبتها النحيلة. ولاحظ أنها تجيد ركوب الخيل.

ورغم ذلك، فقد شعر بعدم الراحة هذا الصباح ولم يكن يعرف سببًا لذلك ...

وعاد بذاكرته إلى صالة المطار والمرأة التى جلست بجواره، وزجاجة العصير الموضوعة على المنضدة ... ما كان شىء من هذا سيحدث ـــ لا الآن، ولا بعد ذلك. فهناك مخاطرة وقد قبل بها. لماذا، رغم أن ذلك كان من وقت طويل، يثير ذلك عدم الراحة فى نفسه الآن؟

جروا بالخيول لفترة قصيرة بعد جولة بين الأشجار. كانت الغابات جميلة. ورأى حيوانات ذات قرون على البعد. هذا المكان بمثابة جنة لرجل رياضى، وجنة لطريقة العيش القديمة، جنة تحتوى على ـــ ماذا؟ أفعى؟ كما كانت فى البداية ـــ أفعى فى الجنة. وأرخى الزمام فأبطأت الخيول وسارت. وكان هو وريناتا بمفردهما ـــ لم يكن هناك ميكرفونات، ولا جدران لها آذان ـــ فقد أتى وقت أسئلته.

سألها بإلحاح: "من هى؟ ما هى؟".

"من السهل الإجابة عن ذلك، إجابة سهلة لدرجة يصعب معها تصديق الإجابة".

قال: "حسنًا؟".

‘‘هى البترول، والنحاس، ومناجم ذهب فى جنوب أفريقيا. وأسلحة فى السويد. ومخلفات اليورانيوم فى الشمال. والتقدم النووى، ومناطق واسعة بها معدن الكوبلت. فهى تمثل وتملك كل هذه الأشياء’’.

‘‘ورغم ذلك فلم أسمع عنها، ولا أعرف اسمها، لا أعرف ـــ ‘‘.

‘‘هى لا ترغب أن يعلم أحد اسمها’’.

‘‘وهل يمكن للفرد الحفاظ على مثل هذا الأمر سرًّا؟’’.

‘‘بسهولة، وذلك إذا كان لديك نحاس وبترول ومخلفات نووية وأسلحة وباقى الأشياء الأخرى بشكل كافٍ. فيمكن للنقود الإعلان أو الحفاظ على الأسرار وكتم الأمور وطمسها’’.

‘‘لكن من هى بالفعل؟’’.

‘‘كان جدها أمريكيًّا من كبار المسئولين عن السكك الحديدية على ما أعتقد. من كبار تجار شيكاغو القذرين. الأمر يبدو كالتنقيب فى التاريخ واكتشاف بعض الأشياء. وتزوج من سيدة ألمانية أتوقع أنك قد سمعت عنها. بيج بليندا واعتادوا على تسميتها بهذا الاسم. وكانت الوريثة الوحيدة لوالدها الذى كان يمتلك تجارة الأسلحة وشحن السفن وثروة صناعية كبيرة’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘ومن بين هذين الاثنين تكوَّنت ثروة لا يمكن تصديقها ونفوذ أيضًا. هل هذا ما تعنينه؟’’.

‘‘نعم. فهى لم ترث الأشياء التى تعرفها فقط، فهى تجنى ثروة طائلة أيضًا. فقد ورثت الذكاء وأصبحت رأسمالية كبيرة بجهودها أيضًا. تمتلك مبالغ كبيرة من الأموال وقامت باستثمارها. تأخذ نصيحة الآخرين وآراءهم لكنها فى النهاية لا تستعمل إلا رأيها. وهى فى ازدهار دائمًا وتضيف إلى ثروتها التى أصبحت خرافية بشكل يصعب تصديقه. فالنقود تصنع نقودًا’’.

‘‘نعم، يمكننى فهم ذلك. على الثروة الزيادة إذا كان هناك ما يتيح ذلك. لكن ما الذى أرادته؟ ما الذى لديها؟’’.

‘‘قلتها للتو، القوة’’.

‘‘وهل تعيش هنا؟ أو هل هى -؟’’.

‘‘إنها تزور الولايات المتحدة والسويد لكن ليس بشكل دائم. فهى تفضل البقاء هنا، فى مركز شبكة مثل عنكبوت ضخم يتحكم فى الخيوط. خيوط التمويل. وخيوط أخرى أيضًا’’.

‘‘عندما قلتِ، خيوط أخرى -‘‘.

‘‘الفنون. الموسيقى، الصور، الكتاب. المخلوقات البشرية ـــ شباب البشر’’.

‘‘نعم. ربما يعلم الفرد ذلك. هذه الصور، إنها مجموعة رائعة’’.

‘‘هناك معارض لكثير من هذه اللوحات فى الدور العلوى بالقلعة. هناك لوحات لرمبرانت وجيتوس ورافائيل، وهناك حقائب من المجوهرات ـــ مجموعة من أكثر المجوهرات روعة فى العالم’’.

‘‘كل هذا يخص سيدة عجوزًا قبيحة وضخمة. وهل هى راضية بعد كل هذا؟’’.

‘‘ليس بعد، لكنها فى طريقها’’.

‘‘إلى أين تذهب، ما الذى تريده؟’’.

‘‘هى تحب الشباب. فهذا نمط قوتها ونفوذها. التحكم فى الشباب. فالعالم ملىء بالكثير من الشباب الثوار فى لحظتنا هذه. ويساعدها على ذلك الفلسفة الحديثة، والفكر الحديث، وكتاب وآخرون تمولهم وتتحكم فيهم’’.

‘‘لكن الآن كيف يمكنـ -’’. توقف ولم يكمل حديثه.

‘‘لا يمكننى إخبارك لأننى لا أعلم. إنها شبكة هائلة. وهى من تدعمها وتدعم الكثير من الجمعيات الخيرية شديدة الفضول، والمثاليين ومحبى الخير المخلصين، وتقدم منحًا لا حصر لها للطلبة والفنانين والكتاب’’.

‘‘وتقولين إن الأمر ليس -’’.

‘‘لا، الأمر لم ينته بعد. فهى ثورة عظيمة يتم التخطيط لها. وهناك من يؤمن بها، فهى الأرض والجنة الجديدة. فهذا ما وعدنا به القادة منذ آلاف السنين. ووعدتنا به الأديان، ووعدنا به من جاءوا ليعلمونا القانون. ووعدنا به السياسيون. الجنة البسيطة سهل الوصول إليها كما يؤمن بها القتلة ووعد بها الرجل العجوز قائد القتلة أتباعه وأعطاها لهم من وجهة نظرهم الخاصة’’.

‘‘هل هى وراء المخدرات أيضًا؟’’.

‘‘نعم. بدون أى قناعة بالطبع. بل هى مجرد طريقة لجعل البشر ينصاعون لإرادتها. وهى طريقة أيضًا لتدمير البشر، الضعفاء منهم. هؤلاء الذين تعتقد أنهم غير صالحين رغم أنها قد وعدتهم من قبل بالجنة الموعودة. وهى لا تتعاطى المخدرات ـــ فهى قوية. لكن المخدرات تدمر الأشخاص الضعفاء بشكل أكثر سهولة وطبيعية من أى شىء آخر’’.

‘‘والنفوذ؟ ماذا عن النفوذ؟ لا يمكنك عمل كل شىء بالدعاية’’.

‘‘لا بالطبع. فالدعاية هى المرحلة الأولى وراءها عدد وافر من الأسلحة. أسلحة تحرم دولاً وأماكن أخرى. شاحنات وبنادق وأسلحة نووية تذهب إلى أفريقيا والبحار الجنوبية وأمريكا الجنوبية. ففى أمريكا الجنوبية هناك الكثير من الأمور التى يتم بناؤها. وقوى الشباب من الرجال والنساء التى يتم ترتيبها وإعدادها. مستودع ذخائر ضخم ـــ من طرق الحرب الكيمائية-’’.

‘‘إنه كابوس! كيف عرفتِ كل هذا يا ريناتا؟’’.

‘‘جزء مما عرفته وصلنى على شكل معلومات، والجزء الآخر عرفته لأننى شاركت بفاعلية فى أثبات تلك الأمور’’. ‘‘لكن أنتِ. ماذا عنك أنتِ وهى؟’’.

‘‘عادة يكون هناك شىء تافه وراء جميع المشاريع العظيمة والضخمة’’، وضحكت فجأة ثم أكملت حديثها: ‘‘فمرة كانت تحب جدى. قصة حمقاء. وكان يعيش فى الجزء الخاص به من العالم، فلديه قلعة تبعد ميلاً أو ميلين من هنا’’.

‘‘هل كان رجلاً نابغًا؟’’.

‘‘ليس تمامًا. كان مجرد رجل رياضى جيد للغاية، وسيم، مثير وجذاب للغاية فى أعين النساء. وبسبب ذلك فهى حاميتى وأنا واحدة من أتباعها، فأنا أنفذ أوامرها فى أماكن مختلفة من العالم’’.

‘‘وهل تفعلين ذلك؟’’.

‘‘ما الذى تقصده بذلك؟’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘أنا أتعجب’’.

وقد كان يتعجب بالفعل، ونظر إلى ريناتا وفكر فى المطار مرة ثانية. فقد كان يعمل من أجل ريناتا، كان يعمل مع ريناتا. وقد أحضرته إلى هذه القلعة. فمن الذى أمرها بأن تجلبه إلى هنا؟ هل هى شارلوت الكبيرة الضخمة الجالسة فى وسط شبكتها العنكبوتية؟ وهو لديه سمعة بأن يكون غير ثابت وحكيم فى بعض الأوساط السياسية. ربما يكون مفيدًا لهؤلاء الأشخاص لكنه مفيد بمقدار قليل وحقير. وفكر فجأة وسط ضباب من علامات الاستفهام: ريناتا؟ التى خاطرت معها فى مطار فرانكفورت. لكننى كنت محقًّا وحدث ما حدث. ولم يحدث أى شىء لى. ثم قال لنفسه: لكن على أية حال من هى؟ ماذا هى؟ لا أعلم. لا يمكننى التأكد من ذلك. لا يمكن للفرد أن يثق فى أى شخص بالعالم هذه الأيام. أى فرد بشكل عام. ربما كان لديها أوامر بإحضارى إلى هنا. وإحضارى فى قبضة يدها، لذلك ربما يكون ما حدث فى مطار فرانكفورت مدبرًا له جيدًا، وتماشى ذلك مع حسى بالمخاطرة، وسيجعلنى ذلك متأكدًا منها وواثقًا فيها.

قالت: ‘‘لنركب الخيول مرة ثانية. فقد سرنا بها مسافة طويلة’’.

‘‘ألم أسألك من قبل من أنتِ فى كل هذا؟’’.

‘‘أنا أتلقى أوامر’’.

‘‘ممن؟’’.

‘‘هناك معارضة، عادة توجد معارضة. هناك أشخاص دائمًا يكون لديهم شكوك إزاء ما يحدث، وعما يحدث لتغيير العالم، وعن كيفية تحقيق الثروة والمال والسلاح والمثالية والكلمات العالية العظيمة. هناك من يقولون إن كل ذلك لن يحدث’’.

‘‘وهل أنت معهم فى ذلك؟’’.

‘‘أقول ذلك’’.

‘‘ما الذى تعنينه بذلك، ريناتا؟’’.

قالت: ‘‘أقول ذلك’’.

قال: ‘‘هذا الشاب الذى دخل علينا فى الليلة الماضية -’’.

‘‘فرانز جوزيف؟’’.

‘‘هل هذا اسمه؟’’.

‘‘هذا هو الاسم المعروف به’’.

‘‘لكنَّ له اسمًا آخر، أليس كذلك؟’’.

‘‘أتعتقد ذلك؟’’.

‘‘هو سيجفريد الشاب، أليس كذلك؟’’.

‘‘أتراه كذلك؟ هل أدركت ما هو، وما الذى يسانده؟’’.

‘‘أعتقد ذلك. الشباب، شباب بطولى. شباب آرى، من المؤكد أنه من الشباب الآرى فى هذا الجزء من العالم. ما زالت تلك الفكرة موجودة، الجنس الأعظم، الرجل الخارق. يجب أن يكونوا من أصول آرية’’.

‘‘نعم، فهذه الفكرة بقيت منذ عهد هتلر. وعادة لم تظهر كثيرًا ــ فى أماكن أخرى من العالم ــ ولا يتم التأكيد على تلك النقطة كثيرًا. وكما أقول لك فأمريكا الجنوبية هى أحد المعاقل. وكذلك بيرو وجنوب أفريقيا’’.

‘‘ما الذى يفعله سيجفريد الشاب؟ ما الذى يفعله بجانب أن يبدو وسيمًا ويقبل يد حاميته؟’’.

‘‘أوه، إنه خطيب بارع. فهو يتحدث وسيتبعه أتباعه حتى الممات’’.

‘‘هل هذا صحيح؟’’.

‘‘هو يؤمن بذلك’’.

‘‘وماذا عنك؟’’.

‘‘أعتقد أنى قد أصدق ذلك’’. ثم أضافت قائلة: ‘‘كما تعلم، فالخطابة مخيفة للغاية. ما الذى يمكن أن يفعله الصوت، ما الذى يمكن أن تفعله الكلمات، ولا يجب أن تكون الكلمات مقنعة فقط، بل الطريقة التى يقولها بها، فصوته يرن مثل الجرس، وتصرخ النساء ويغمى عليهن عندما يتحدث إليهن ــ وسترى ذلك بنفسك’’.

‘‘رأيت حراس شارلوت الشخصيين يرتدون ملابس تنكرية ــ الأشخاص هذه الأيام يحبون ارتداء الملابس التنكرية. وستراهم فى جميع أنحاء العالم بملابسهم التى اختاروها، مختلفين فى أماكن مختلفة، بعضهم بشعر طويل ولحى، والفتيات بملابس نومهن البيضاء يتحدثن عن السلام والجمال، وعن العالم الرائع، عالم الشباب الذى سيكون ملكهم عندما يدمرون ما يكفى من العالم. كانت دولة الشباب الأصلية غرب البحر الأيرلندى، أليس كذلك؟ هى مكان بسيط للغاية، دولة شباب مختلفة عما نخطط له الآن ــ كانت رمالاً فضية وضوء الشمس والغناء فى الأمواج ...

‘‘لكن الآن نحن نريد الفوضى، وإشعال الحرائق والتدمير. والفوضى لا تفيد إلا من يثيرونها. إنها مخيفة، ومدهشة أيضًا ـــ بسبب عنفها، لأنها تجب الألم والمعاناة ـــ’’.

‘‘إذن فهذه هى رؤيتك لعالم اليوم؟’’.

‘‘بعض الأوقات’’.

‘‘وما الذى علىَّ فعله بعد ذلك؟’’.

‘‘تأتى مع مرشدتك. فأنا مرشدتك مثل فيرجيل مع دانتى، سآخذك إلى الجحيم وأريك الأفلام السادية المنسوخة بشكل جزئى من العهد القديم، وأريك عبادة القسوة والألم والعنف. وسأريك أحلام الجنة العظيمة الخاصة بالسلام والجمال. ولن تعلم أصل وحقيقة الأشياء. لكن سيكون عليك تكوين وجهة نظر’’

‘‘هل يجب علىَّ الثقة بكِ يا ريناتا؟’’.

‘‘هذا خيارك. يمكنك الهروب منى إذا أردت أو يمكنك البقاء معى ومشاهدة العالم الجديد ـــ العالم الذى فى طور الإنشاء الآن’’.

قال السير ستافورد نای بعنف: ‘‘أوراق اللعب’’.

نظرت إليه متسائلة.

‘‘مثل أليس فى بلاد العجائب. البطاقات، أوراق اللعب تتطاير جميعها فى الهواء. الملك والملكة والولد وكل هذه الأوراق’’.

‘‘تقصد ـــ ما الذى تعنيه بالضبط؟’’.

‘‘أقصد أن ذلك غير حقيقى، بل نعتقده ونؤمن به. الأمر اللعين بالكامل هو الذى جعلنا نعتقد بعض الأمور’’.

‘‘من أحد الجوانب، نعم’’.

‘‘جميع المتنكرين يقومون بأدوار ويشاركون فى العرض. أنا أقترب من معنى وكينونة الأشياء، أليس كذلك؟’’.

‘‘ بلى من جانب، ونعم من جانب آخر’’.

‘‘هناك شىء واحد أريد أن أسألك عنه لأنه يحيرنى. لماذا أمرتك شارلوت الضخمة بإحضارى إلى هنا؟ ما الذى تعرفه عنى؟ ما الفائدة التى تعتقد أنها ستجنيها من ورائى؟’’.

‘‘لا أعلم تمامًا ـــ ربما نوع من السمو ـــ العمل من وراء واجهة. وهذا الأمر يناسبك تمامًا’’.

‘‘لكنها لا تعلم أى شىء عنى!’’.

‘‘أوه، هذا!’’، وفجأة قهقهت ريناتا ضاحكة: ‘‘الأمر مضحك حقًّا ـــ نفس الكلام الفارغ يتكرر ثانية’’.

‘‘لا أفهمك يا ريناتا’’.

‘‘لا ـــ لأن الأمر بسيط للغاية. فسيفهم السيد روبنسون ذلك’’.

‘‘أيمكنك أن توضحى لى ما الذى تتحدثين عنه؟’’.

‘‘نفس الأمور القديمة ـــ ’’ ليس المهم من أنت، ولكن المهم من تعرف’’. فقد كانت عمتك الكبرى ماتيلدا وشارلوت الكبيرة فى المدرسة معا ـــ ‘‘.

‘‘أتقصدين ـــــ’’.

‘‘فتيات يجلسن معًا’’.

حدق إليها، ثم ألقى رأسه للخلف وقهقه ضاحكًا.

الفصل الثانى عشر

مهرج البلاط

غادرا القلعة فى منتصف اليوم بعدما ودعا مضيفتهما. ثم سارا بالسيارة إلى الطريق السريع، تاركين القلعة فوقهما بأعلى وفى النهاية وصلا بعد ساعات طويلة من القيادة إلى حصن فى دولوميتس ـــ مدرج فى الجبال تعقد فيه اجتماعات وحفلات ومجالس مجموعات الشباب المختلفة.

وقد أحضرته ريناتا ـــ مرشدته ـــ إلى هنا، ومن مقعده على الصخرة الجرداء شاهد وسمع ما يحدث. وفهم أشياء أكثر عما كانت تتحدث عنه قبل ذلك فى هذا اليوم. هذا العدد الكبير يجتمع، بنشاط وحيوية مثل باقى التجمعات كبيرة العدد سواء دعا إليها زعيم فى ميدان ماديسون، بنيويورك أو فى ظلال منتدى اجتماعى فى ويلز أو فى ملعب كرة قدم أو فى المسيرات التى تهاجم السفارات والشرطة والجامعات وكل هذه الأمور.

أحضرته ريناتا إلى هنا لتريه معنى عبارة واحدة: ''سيجفريد الشاب''.

وتحدث فرانز جوزيف ـ إن كان هذا هو اسمه ـــ إلى الجمهور. وكان صوته يرتفع وينخفض بجودته الغريبة المثيرة، وسحره العاطفى، كان لكل ذلك أثره على هذا الجمهور المتأوه ـــ الذى يئن تقريبًا ـــ من الشباب والشابات. فكل كلمة نطق بها بدت كأنها تحمل معنى له تأثير غير معقول. فقد استجابت معه الجماهير كالأوركسترا. وصوته كان مثل عصا المايسترو. والآن، ما الذى قاله الفتى؟ ما رسالة سيجفريد الشاب؟ لم يكن هناك ما يستطيع أن يتذكره بعد ما انتهى التجمع، لكنه علم أنه قد تأثر، ووعد بأشياء، وأثيرت حماسته. والآن انتهى الأمر. فقد تدفق الجمهور حول المسرح الحجرى يصيحون ويصرخون. كان بعض الفتيات يصرخن بكل حماس. وأغشى على بعضهن. وقال السير ستافورد لنفسه ما هو عالم هذه الأيام. فكل شىء يستعمل طوال الوقت لإثارة المشاعر. ولكن ماذا عن النظام؟ التقييد؟ لم يعد أى من هذه الأشياء يهم. لم يعد شىء يهم غير الإحساس.

لمست مرشدته ذراعه وتنحيا جانبًا عن الجمهور. ووجدا سيارتهما وسائقهما الذى أخذهما عبر طرق عرفها السير ستافورد ناى جيدًا لمدينة صغيرة وفندق صغير على جانب الجبل، حيث كانت هناك غرفتان محجوزتان باسميهما. ثم سارا خارجين من الفندق بمحاذاة الجبل عبر طريق ممهد جيدًا حتى وصلا إلى مقعد، وجلسا فى هدوء لبضع دقائق. ثم قال ستافورد ناى بعد ذلك: ''أوراق اللعب''.

ولخمس دقائق أو ما يقاربها جلسا ينظران إلى الوادى ، ثم تحدثت ريناتا قائلة: ''حسنًا؟''.

''ما الذى تسأليننى عنه؟''.

''ما رأيك فيما أريته لك؟''.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘أنا لست مقتنعًا’’.

تنهدت تنهيدة عميقة وغير متوقعة.

‘‘هذا ما كنت آمل أن تقول’’.

‘‘ليس هناك شىء صحيح من ذلك، أليس كذلك؟ فهذا عرض ضخم. عرض أنتجه منتج ما ـــ بل ربما مجموعة كاملة من المنتجين’’.

‘‘هذه المرأة الوحشية تدفع للمنتجين، تؤجرهم ويعملون لديها. لم نر المنتج. فما رأيناه اليوم هو مؤدٍّ مسرحى’’.

‘‘ما رأيك فيه؟’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘هو ليس حقيقيًّا أيضًا، فهو مجرد ممثل. ممثل من الدرجة الأولى، تم إعداده بشكل جيد’’.

ثم فاجأه صوت ما، كان ذلك صوت ضحك ريناتا. ونهضت من مقعدها ويبدو عليها الإثارة، والسعادة المفاجئة ويبدو عليها لمحة من السخرية فى الوقت نفسه.

قالت: ‘‘أعلم ذلك، أعلم أنك ستفهم. أعلم أنك تقف بقدميك على أرض صلبة. فدائمًا أنت تعرف أشياء بخصوص أى شىء يقابلك فى حياتك، أليس كذلك؟ فقد عرفت الخداع، وعرفت كل شىء وكل شخص على حقيقته’’.

‘‘ليست هناك حاجة للذهاب إلى ستراتفورد ورؤية مسرحيات شكسبير لتعرف ما الدور الذى تقوم به، يجب أن يكون للملوك والرجال العظماء مهرجون فى بلاطهم ـــ مهرج الملك الذى يخبر الملك الحقيقة ويتحدث عن التفكير السليم ويمزح ويسخر من الأشياء التى تحدث للأشخاص الآخرين’’.

‘‘إذن، هذا ما أنا عليه، أليس كذلك؟ هل أنا مهرج البلاط؟’’.

‘‘ألا تشعر بذلك؟ فهذا ما نريده ـــ هذا ما نحتاج إليه. ‘‘ورق كرتون’’ قلتَ ‘‘ورق لعب’’. عرض ضخم وفاخر ومنتج جيدًا! وكم كنت محقة. لكن الناس يتم خداعهم. فهم يعتقدون أن هناك شيئًا ما رائعًا أو شيطانيًّا أو شيئًا بالغ الأهمية. بالطبع هذا الشىء ليس كذلك ـــ فقط ـــ على الفرد اكتشاف كيف يعرض الأمور للناس، هذا كل ما فى الأمر، والأمر سخيف بالكامل، مجرد أمر سخيف للغاية. وهذا ما نوشك أنا وأنت على فعله’’.

‘‘هل فكرتك أننا نفضح زيف جميع الأمور فى النهاية؟’’.

‘‘أتفق معك أن الأمر يبدو غير مألوف. لكن أتعرف عندما يرى الناس أن شيئًا ما غير حقيقى فهذا مجرد خداع ضخم، حسنًا -’’.

‘‘هل أنتِ على وشك إلقاء موعظة عن الفطرة السليمة؟’’.

قالت ريناتا: ‘‘بالطبع لا، فلن يستمع أحد إلى ذلك، أليس كذلك؟’’.

‘‘ليس فى الوقت الحالى’’.

‘‘لا، سيكون علينا تقديم الدلائل ـــ والوقائع ـــ والحقيقة ـــ’’.

‘‘هل لدينا مثل هذه الأشياء؟’’.

‘‘نعم، ما جلبته معى عبر فرانكفورت ـــ الشىء الذى ساعدتنى فى إحضاره سالما إلى إنجلترا’’.

‘‘لا أفهم ـــ’’.

‘‘ستعرف فيما بعد. الآن لنا دور لنلعبه. ونحن جاهزان وراغبان فى ذلك، وهناك مبدأ نريد غرسه. فنحن نعشق الشباب. نحن تابعان لسيجفريد الشاب ومؤمنان به’’.

‘‘يمكنك التعامل مع ذلك الأمر بدون أى شك. أما أنا فلست واثقًا فى نفسى. فلم أكن ناجحا جدًّا لأى شىء. أما مهرج البلاط فهو غيرى، فهو مخادع عظيم. ولن يُقدر أى شخص ذلك الآن، أليس كذلك؟’’.

‘‘بالطبع لن يقدروا. لا. لا تظهر هذا الجانب من نفسك، إلا عندما تتحدث عن أساتذتك ومن هم أفضل منك مثل الدبلوماسيين والسياسيين، وزارة الخارجية، المؤسسة، وكل الأمور الأخرى. وقتها ستصبح ساخطًا، وحقودًا وحسودًا وشريرًا بعض الشىء’’.

‘‘ما زلت لا أرى دورى فى هذه الحملة العالمية’’.

‘‘هذا تعبير قديم جدًّا، لكنه تعبير يفهمه ويقدره الجميع. وهناك شىء فيه يخصك. فهذا هو خطك. فأنت لم يتم تقديرك فى الماضى، لكن سيجفريد الشاب وكل ما ينادى به وكل أتباعه يعقدون الآمال عليك. لأنك تعطيه كل المعلومات الداخلية التى يريدها عن دولتك، وسيعدك بمناصب القوة والنفوذ فى الأيام الجيدة التى ستأتى’’.

‘‘أنت تلمحين إلى أنها حركة العالم. هل هذا صحيح؟’’.

‘‘بالطبع. مثل أحد هذه الأعاصير التى لها أسماء مثل فلورا أو آنى الصغيرة. فهى تأتى من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، لكنها تأتى من أى مكان وتدمر كل شىء. فهذا هو ما يريده الجميع فى أوروبا وآسيا وأمريكا، وربما فى أفريقيا، رغم عدم وجود الكثير من الحماس فى تلك القارة. فهم حدثيو العهد بالقوة والمال وهذه الأمور. أوه نعم، فهى حركة العالم. يديرها الشباب وكل حماسهم وحيويتهم. لا يعلمون شيئًا وليس لديهم خبرة لكن لديهم الرؤية والحيوية ومدعومون بالمال. أنهار وأنهار متدفقة من المال. وهناك الكثير من المواد لذلك، فقد طلبنا شيئًا آخر وحصلنا عليه. لكن كما أن الأمر مبنى على الكراهية فلا يمكن لها الوصول إلى أى مكان. لا يمكن لها أن تتحرك من على سطح الأرض. ألا تذكر عام 1919 عندما خرج كل فرد متحمسًا قائلاً الاشتراكية: هى الحل وأن مبدأ الماركسية سينتج عنه جنة جديدة على أرض جديدة. وتبعها الكثير من الأفكار النبيلة. ولكن الآن كما ترى، فمن ينفذ هذه الأفكار؟ عمومًا فهم نفس البشر منذ قديم العصور. يمكنك خلق عالم ثالث الآن ـــ أو هكذا يعتقد الجميع ـــ لكن العالم الثالث سيكون به نفس البشر الموجودين فى العالم الأول أو الثانى أيًّا كان اسمه. وعندما يكون لديك نفس البشر يديرون الأمور فسيسيرونها بنفس الطريقة. كل ما عليك هو النظر للتاريخ’’.

‘‘هل يهتم أحد بالنظر إلى التاريخ هذه الأيام؟’’.

‘‘لا، فهم يفضلون النظر إلى مستقبل غامض. فى فترة ما كان العلم هو الإجابة عن كل شىء. فمعتقدات أتباع فرويد ستكـون هى الإجابة التالية على بؤس البشرية. فهم ليسوا إلا بشرًا لديهم مشاكل عقلية. وإذا قال أى شخص إن المصحات العقلية ستكون ممتلئة بسبب الكبت فلن يجد من يصدقه’’.

قاطعها ستافورد ناى:

قائلاً: ‘‘أريد أن أعرف شيئًا ما’’.

‘‘ما هو؟’’.

‘‘أين سنذهب بعد ذلك؟’’.

‘‘إلى أمريكا الجنوبية، وربما باكستان أو الهند. ومن المؤكد أننا سنذهب إلى الولايات المتحدة، فهناك الكثير من الأشياء الممتعة التى تحدث وخصوصًا فى كاليفورنيا ـــ ‘‘.

تنهد السير ستافورد ناى: ‘‘الجامعات؟ لقد مللت منها فهى تكرر نفسها بشكل كبير’’.

وجلسا صامتين لبضع دقائق. كانت الشمس على وشك المغيب وكانت قمة الجبل ملونة باللون الأحمر.

وقال السير ستافورد ناى بلهجة المشتاق:

‘‘إذا كان لدينا بعض الموسيقى الآن ـــ فى هذه اللحظة ـــ أتعلمين ما كنت سأطلبه؟’’.

‘‘أكنت ستطلب المزيد من الموسيقى الفاجنرية؟ أم حررت نفسك من حب فاجنر؟’’.

‘‘لا ـ أنت محقة تمامًا ـ موسيقى فاجنر أكثر. وكنت سأتخيل هانز ساش جالسًا تحت شجرته العجوز قائلاً عن العالم: ‘‘مجنون، مجنون، كله مجنون ـــ’’.

‘‘نعم ـــ هذه الجملة تعبر عن الوضع. إنها موسيقى محببة إلىَّ أيضًا. لكننا لسنا مجانين بل نحن عاقلون’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘عقلاء تمامًا، وهنا تكمن الصعوبة. فهناك أكثر من شىء واحد أريد أن أعرفه’’.

‘‘حسنًا’’.

‘‘ربما لن تخبرينى. لكن علىَّ أن أعرف. هل هناك أى متعة ومرح سينتج عن هذا العمل المجنون الذى نحاول عمله؟’’.

‘‘بالطبع، لماذا لا يكون هناك متعة ومرح؟’’.

‘‘مجنون، مجنون، كله مجنون ـــ لكننا سنستمتع به كاملاً. هل ستكون حياتنا طويلة، مارى آن؟’’.

قالت ريناتا: ‘‘ربما لا’’.

‘‘إنها الروح السائدة والغالبة على الفرد والجماعة. أتفق معك تمامًا يا رفيقتى ومرشدتى. وهل سينبثق عالم جديد بعد كل جهودنا هذه؟’’.

‘‘لا أعتقد ذلك، لكنه قد يكون عالمًا أكثر كرمًا وطيبة. فالعالم الحالى ملىء بالمعتقدات بدون أى كرم أو طيبة’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘جيد، إلى الأمام!’’.

الكتاب الثالث

فى البلاد وخارجها

الفصل الثالث عشر

مؤتمر فى باريس

كان هناك خمسة رجال يجلسون فى إحدى الغرف بمدينة باريس، وقد شهدت تلك الحجرة عددًا كبيرًا من الاجتماعات التاريخية فى السابق. ولكن هذا الاجتماع كان يختلف عن سابقيه فى الكثير من النواحى، إلا أنه لم يكن يبدو أنه سيكون أقل منها من الناحية التاريخية.

وكان المسيو جروسيين يترأس هذا الاجتماع، والمسيو جروسيين كان رجلا قلقًا يفعل أقصى ما بوسعه ليجعل الأمور تمضى بسهولة، كما كان له أسلوب ساحر ساعده كثيرًا فى الماضى. إلا أنه لم يشعر بأن هذا الأسلوب كان يساعده كثيرًا هذا اليوم. وقد وصل السنيور فيتللى بالطائرة من إيطاليا قبل ساعة مضت وكانت إيماءاته عصبية وأسلوبه غير متزن.

وكان السنيور فيتللى يقول: ‘‘لقد تخطى الأمر الحدود، تخطى الأمر حدود أى شىء يمكن للفرد تخيله’’.

قال المسيو جورسيين: ‘‘هؤلاء الطلاب، ألا نعانى جميعنا من هذا الأمر؟’’.

‘‘الأمر أكثر من الطلاب، فالأمر يتخطاهم. ما الذى يمكننا مقارنته بهذا الأمر؟ سرب من النحل. كارثة طبيعية شديدة بشكل تجاوز مقدرة أى فرد على التخيل. فهم يخرجون فى مسيرات ويمتلكون بنادق آلية وحصلوا على الطائرات من مكان ما. إنهم يعتزمون السيطرة على شمال إيطاليا بالكامل. لكن الأمر كله جنون! فهم مجرد أطفال لا أكثر. ومع ذلك فلديهم طائرات ومتفجرات. وعددهم فى مدينة ميلانو يفوق عدد أفراد الشرطة. أنا أسألكم ما الذى يمكننا فعله؟ هل نستعين بالحربية؟ الجيش أيضًا فى حالة تمرد. يقولون إنهم مع الشباب. ويقولون إنه لا يوجد مكان فى العالم إلا وتسود فيه الفوضى. إنهم يتحدثون عن شىء يطلقون عليه العالم الثالث، لكن لا يمكن لذلك أن يحدث’’.

تنهد المسيو جروسيين قائلاً: ‘‘الأمر شائع جدًّا ويحظى بانتشار كبير بين الشباب. الفوضى، الاعتقاد فى الفوضى. ونحن نعلم جيدًا من أيام الجزائر، ومن كل المشاكل التى عانت منها دولتنا وإمبراطوريتنا الاستعمارية. ما الذى يمكننا فعله؟ نستعين بالجيش؟ فى النهاية سوف نجدهم يدعمون الطلبة’’.

قال المسيو بواسونييه: ‘‘الطلبة، آه، الطلبة’’.

كان المسيو بواسونييه عضوًا فى الحكومة الفرنسية وكانت كلمة ‘‘طالب’’ بغيضة إلى أذنه. وإذا سألته فسيعترف بأنه يفضل الإنفلونزا الآسيوية أو حتى الطاعون الدبلى على الطلبة. فقد كان ذلك مفضلاً لديه عن أنشطة الطلاب. عالم بدون طلاب! كان هذا ما يحلم به المسيو بواسونييه فى بعض الأوقات.

كانت هذه الأحلام أحلامًا جيدة ولا تتحقق كثيرًا.

قال المسيو جروسيين: ‘‘بالنسبة للقضاة، ما الذى حدث لسلطاتنا القضائية؟ الشرطة ـــ نعم، ما زالوا مخلصين لنا لكن السلطات القضائية لن تفرض الأحكام على الشباب الذين سيمثلون للمحاكمة أمامها، الشباب الذين دمروا الممتلكات، الممتلكات الحكومية والممتلكات الخاصة ـــ جميع أنواع الممتلكات. وأريد أن أعرف لِمَ لا تصدر ضدهم أحكام؟وقد قمت باستفسارات واستجوابات مؤخرًا. وقد اقترحت علىَّ رئاسة المقاطعة بعض الأشياء. فهم ينادون بضرورة رفع مستوى معيشة السلطات القضائية وخصوصًا فى المناطق الإقليمية’’.

قال المسيو بواسونييه: ‘‘توقف، يجب أن تنتبه لما تقترحه’’.

‘‘يا إلهى، لِمَ علىَّ أن أكون منتبهًا؟ يجب أن يتم إخضاع الأمور للنقاش الحر. فقد سمعنا عن عمليات احتيال من قبل، عمليات احتيال ضخمة وهناك نقود يتم تشغيلها من حولنا. نقود لا نعلم من أين تأتى لكن أخبرنى والى المقاطعة ـــ وأنا أصدقه ـــ إنهم قد بدءوا يكونون فكرة عن المكان الذى تذهب إليه هذه الأموال. هل يمكننا أن نفكر فى دولة فاسدة تتلقى تمويلاً من مصدر خارجى؟’’.

قال السنيور فيتللى: ‘‘فى إيطاليا أيضًا، فى إيطاليا، نعم يمكننى إخباركم عن أشياء. نعم، يمكننى إخباركم ما الذى نشك فيه. لكن من الذى يفسد العالم؟ مجموعة من رجال الصناعة، أم مجموعة من ملوك المال؟ كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر؟’’.

قال المسيو جروسيين: ‘‘يجب أن يتوقف كل هذا الأمر، يجب اتخاذ إجراء ما بخصوص هذا الموضوع. إجراء عسكرى. إجراء من القوات الجوية. هؤلاء الفوضويون، هؤلاء الناهبون يأتون من جميع الطبقات، ويجب وضع حد لهذا الأمر وإخماده’’.

قال بواسونييه بلهجة يغلب عليها الشك: ‘‘التحكم والسيطرة على الموقف بالغاز المسيل للدموع أثبت نجاحه تمامًا’’.

قال المسيو جروسيين: ‘‘الغاز المسيل للدموع ليس بالأمر الكافى، فيمكننا الوصول إلى نفس النتيجة بإجبار الطلاب على تقشير كميات كبيرة من البصل فتسيل الدموع من أعينهم، لا، فالأمر يتطلب أكثر من ذلك’’.

قال المسيو بواسونييه بصوت مهزوز:

‘‘أنت لا تقترح استعمال أسلحة نووية؟’’.

‘‘الأسلحة النووية؟ يا لها من مزحة! ما الذى سنفعله بالأسلحة النووية. ما الذى سيبقى من تربة فرنسا ومن هواء فرنسا إذا استعملنا هذه الأسلحة؟ يمكننا تدمير روسيا، ونحن نعلم ذلك. ونعلم أيضًا أن روسيا يمكنها تدميرنا’’.

‘‘أنت لا تعنى أن مجموعات من الطلاب المتظاهرين والقائمين بوقفات احتجاجية سيدمرون قواتنا النظامية؟’’.

‘‘هذا هو ما أقصده بالضبط. فلدى تحذيرات من مثل هذه الأشياء، من تخزين الأسلحة والأنواع المختلفة من الأسلحة الكيماوية والأنواع الأخرى. ولدىَّ تقارير

من أحد علمائنا البارزين. لقد انكشفت الأسرار. وقد سرقت مخازن أسلحة سرية. وأنا أسألكم ما الذى سيحدث بعد ذلك، ما الذى سيحدث بعد ذلك؟''.

جاءت إجابة السؤال بشكل غير متوقع وأسرع مما قدر المسيو جروسيين لها. فقد انفتح الباب واقترب كبير سكرتاريته من مديره، ويبدو من تعبيرات وجهه أن الأمر عاجل. ونظر إليه المسيو جروسيين بعدم رضا قائلاً:

''ألم أقل إننى لا أريد أن يقاطعنى أحد؟''.

''نعم، بالطبع سيدى لكن هناك أمرًا غير معتاد''، وانحنى تجاه أذن سيده قائلاً: ''المارشال هنا ويطلب الإذن بالدخول''.

''المارشال؟ أتعنى ـــ''.

أومأ السكرتير برأسه فى حماس عدة مرات ليؤكد أنه يقصد ما فهمه المسيو. ثم نظر المسيو بواسونييه إلى رفاقه فى حيرة.

''هو يطلب الدخول، ولن يقابل طلبه بالرفض''.

نظر الرجلان الآخران إلى جورسيين أولاً، ثم نظروا بعد ذلك إلى الإيطالى العصبى.

قال المسيو كوين وزير الداخلية: ''ألن يكون من الأفضل

أن -''.

توقف عند ''أن'' لأن الباب قد انفتح ودخل منه رجل، رجل معروف للغاية، رجل لا تعد كلمته قانونًا فقط، بل هى فوق قانون دولة فرنسا لسنوات طويلة مضت.

وكانت رؤيته فى تلك اللحظة مفاجئة غير مرحب بها من قبل جميع الجالسين فى الغرفة.

قال المارشال: ''آه، أرحب بكم يا زملائى الأعزاء. لقد أتيت لأساعدكم، فبلدنا فى خطر. ويجب اتخاذ إجراء ما، إجراء فورى! وقد أتيت لأضع نفسى تحت خدمتكم. وأنا أتعهد بالمسئولية الكاملة للتصرف واتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة هذه الكارثة. قد يكون هناك خطر، وأنا أعلم ذلك لكن الشرف فوق الخطر. ونجاة فرنسا وخلاصها فى خطر. فهم يتظاهرون فى هذه الناحية الآن، قطيع كبير من الطلاب، ومن المجرمين الذين تم تحريرهم من السجون وقد ارتكب بعض منهم جريمة القتل. رجال ارتكبوا جريمة حرق البشر. وهم يهتفون بأسماء، ويغنون الأغانى. وينادون بأسماء معلميهم وفلاسفتهم، هؤلاء الذين علموهم ودلوهم على طريق العصيان المسلح. هؤلاء الذين سيأتى دمار ومصير فرنسا المشئوم على أيديهم إذا لم يتم عمل شىء ما. وقد أرسلت أطلب فوجين من الجند. واستنفرت القوات الجوية، وأرسلت برقيات مشفرة إلى حليفتنا المجاورة لنا، وإلى أصدقائى فى ألمانيا لأنها تعتبر حليفتنا الآن فى هذه الكارثة!

يجب قمع كل هذا الشغب والتمرد والعصيان المسلح! الخطر على الرجال والنساء والأطفال والملكيات. وقد بدأت بقمع هذا العصيان بأن أتحدث إليهم كوالدهم، أو قائدهم. فهؤلاء الطلاب، حتى هؤلاء المجرمون، أطفالى. فهم شباب فرنسا. سأذهب لأتحدث معهم عن هذا الأمر. وسيستمعون إلىَّ، ويجب مشاورة حكوماتهم واستكمال دراساتهم تحت رعايتها. فالمنح غير كافية، وحياتهم تفتقر إلى القيادة. وأنا هنا لأعد بتقديم كل ذلك وأنا أتحدث باسمى. وسأتحدث باسمكم أيضًا، اسم الحكومة، فقد فعلتم أقصى ما بوسعكم وتصرفتم بقدر ما تعلمون. لكن الأمر يحتاج إلى قيادة أعلى. الأمر يحتاج إلى قيادتى. ولدىَّ قوائم أخرى من البرقيات المشفرة أريد إرسالها. وهذه الروادع النووية، كما يمكن استعمالها فى مناطق غير معتادة، يمكن استعمالها بشكل معتدل لتنشر الرعب بين العامة ونحن أنفسنا نعلم بعدم وجود أى خطر يحيط بهم. وقد فكرت فى كل شىء. وسيتم تنفيذ خطتى. هيَّا رافقونى يا أصدقائى المخلصين''.

''سيدى المارشال. لا يمكننا السماح ـــ لا يمكنك تعريض نفسك للخطر. يجب علينا ...''.

''لن أستمع إلى أى شىء مما تقوله، فأنا أتقبل قدرى ومصيرى''.

وسار المارشال تجاه الباب.

''فريقى وحراسى الشخصيون المختارون بالخارج. سأذهب الآن لأتحدث إلى هؤلاء المتمردين الشباب، لأخبرهم أين يقع واجبهم''.

عبر الباب ثم اختفى بعظمة ممثل كبير يلعب دوره المفضل.

قال المسيو بواسونييه: ''بالله، هل عنى ما يقوله؟!''.

قال السنيور فيتللى: ''سيخاطر بحياته، من يعلم؟ إنه رجل شجاع. هو نبيل وشجاع، لكن ما الذى سيحدث له؟ ففى الحالة التى تسيطر على الشباب الآن، ربما يقتلونه''.

وخرجت تنهيدة رضا من بين شفتى المسيو بواسونييه وقال محدثًا نفسه: قد يكون الأمر صحيحًا، نعم، قد يكون صحيحًا.

وقال: ''الأمر جائز. نعم، ربما يقتلونه''.

قال المسيو جروسيين بحذر: ''لا يمكن لأى فرد تمنى ذلك بالطبع''.

كان المسيو جروسيين يرغب بذلك ويتمناه. وفكر بتشاؤم طبيعى جعله يعتقد أن الأشياء التى يريد حدوثها لا تتحقق. بالتأكيد كان هناك أكثر من أمر سيئ متوقع. وهذا أمر ممكن جدًّا، كان هذا من بين تقاليد ماضى المارشال، فهو قد ينجح بطريقة أو بأخرى بإقناع مجموعة كبيرة من الشباب الثائر المتعطش للدماء بالاستماع إلى ما يقوله، وقد يثقون فى وعوده، ويصرون على إعادته إلى السلطة التى كانت بين يديه فى فترة ما. وقد حدث شىء مثل هذا مرة أو مرتين خلال مسيرة المارشال المهنية. فجاذبيته الشخصية كانت مثل جاذبية السياسيين قبل أن يلقوا هزيمة فى مكان لا يتوقعون فيه الهزيمة مطلقًا.

ثم قال: ‘‘يجب أن نمنعه’’.

قال السنيور فيتللى: ‘‘نعم، نعم لا يمكن للعالم فقدانه’’.

قال المسيو بواسونييه: ‘‘أخشى شيئًا ما. فلديه العديد من المعارف فى ألمانيا، العديد والعديد منهم وأنتم تعلمون مدى سرعة الأمور العسكرية فى ألمانيا. فربما ينتهزون الفرصة’’.

قال المسيو جروسيين وهو يمسح حبهته: ‘‘يا إلهى، يا إلهى. ما الذى سنفعله؟ ما الذى يمكننا فعله؟ ما هذه الضوضاء؟ أنا أسمع صوت طلقات بنادق، أليس كذلك؟’’.

قال المسيو بواسونييه مهدئًا: ‘‘لا، لا. إن ما تسمعه هو صوت صينية القهوة’’.

قال المسيو جروسيين الذى كان محبًّا كبيرًا للدراما: ‘‘هناك اقتباس يمكننى استعماله إن كنت أتذكره على نحو جيد. اقتباس من إحدى مسرحيات شكسبير ‘‘أيستطيع أى فرد أن يخلصنى من ذلك-’’’’.

قال مسيو بواسونييه:’’’’المفكر المشاغب’’ من مسرحية، بيكيت’’.

‘‘رجل مجنون مثل المارشال أسوأ من المفكر. فعلى الأقل لن يكون المفكر مضرًّا حتى وإن كان أكبر رمز فلسفى فى العالم قد استقبل فوجًا من الطلاب بالأمس فقط، وناداهم بأطفاله’’.

قال المسيو كوين بارتياب: ‘‘رغم ذلك فهى إشارة مؤثرة’’.

قال المسيو جروسيين: ‘‘يمكن للفرد أن يسير بعيدًا ويسهب حتى مع تحركات المفكرين والفلاسفة’’.

الفصل الرابع عشر

مؤتمر فى لندن

جلس السيد سيدريك لازنبى رئيس الوزراء فى مقر مجلس الوزراء فى 10 داونينج ستريت على رأس المنضدة ونظر إلى مجلس وزرائه المجتمع بدون أن تبدو على وجهه أمارات سعادة. وكان التعبير المرسوم على وجهه كئيبًا بكل المقاييس، لكن فى الواقع قد وفر له راحة معينة. وكان قد بدأ يفكر أنه فى خصوصية اجتماعاته بمجلس وزرائه يمكنه أن يُظهر على راحته مشاعره الحقيقية المتمثلة فى الحزن ويتخلى عن هذا المظهر الذى يظهر به أمام العالم، وهو مظهر يغلب عليه التفاؤل الحكيم والراضى، والذى ساعده كثيرًا فى التغلب على الكوارث المختلفة التى تعرض لها فى حياته السياسية.

ونظر حوله إلى جوردون شيتواينـد الذى كان عابسًا، وإلى السير جورج باكهام الذى كان يبدو عليه القلق والتفكير والتساؤل كالعادة، وإلى رباطة جأش الكولونيل مونرو العسكرية، وإلى مارشال الطيران كينوود، وهو رجل مشدود الشفتين لا يجد أى غضاضة فى إظهار عدم ثقته العميقة بالسياسيين. وكان هناك اللواء بحرى بلانت، وهو رجل ضخم الجثة، ينقر بأصابعه على المنضدة ويحسب الدقائق حتى تحين لحظة حديثه.

قال مارشال الطيران: ‘‘يجب على المرء الاعتراف بذلك، فالأمر بالغ السوء. ففى الأسبوع الماضى تعرضت أربعة من طائراتنا للاختطاف، وجهها الخاطفون إلى ميلانو وأنزلوا منها المسافرين وذهبوا بالطائرات إلى مكان آخر. ذهبوا إلى أفريقيا فى الواقع، حيث كان بانتظارهم طيارون ــ طيارون سود’’.

قال الكولونيل مونرو بتفكير عميق: ‘‘القوة السوداء’’.

قال لازنبى مقترحًا: ‘‘أو القوة الحمراء. كما تعلمون فأنا أشعر بأن كل مشاكلنا قد تنشا من روسيا. إذا كان باستطاعتى الاتصال بالروس ــ أفكر فى زيارة شخصية عالية المستوى ــ’’.

قال اللواء بحرى بلانت: ‘‘عليك البقاء فى مكانك، سيدى رئيس الوزراء، عليك ألا تبدأ العمل مع الروس مرة ثانية. فكل ما يرغبون فيه الآن هو إبقاء أنفسهم بعيدًا عن كل هذه الفوضى. فليس لديهم مشاكل مع طلابهم كالتى لدينا. فكل ما يهتمون به هو متابعة الصينيين ليروا ما الذى سيقومون به بعد ذلك’’.

‘‘أعتقد أن التأثير الشخصى ــــ’’.

قال اللواء بحرى بلانت: ‘‘عليك البقاء هنا والاعتناء بدولتك’’، قال عبارته بكل فظاظة، وهو الأمر الذى يتفق مع اسمه الذى يعنى بالعربية ‘‘فظ’’، كما أنه يتفق مع طبيعته المعروفة عنه.

قال جوردون شيتواينـد ناظرا إلى الكولونيل مونرو: ‘‘أليس من الأفضل أن نسمع ـــ أو نحصل على تقرير مناسب عما يحدث بالفعل؟’’.

‘‘هل تريدون حقائق؟ جيد للغاية، الأمر غير مقبول. أفترض أنكم لا تريدون تفاصيل عما يحدث هنا بقدر ما تريدون معرفة موقف العالم بشكل عام، أليس كذلك؟’’.

‘‘صحيح تمامًا’’.

‘‘حسنًا، مازال المارشال فى المستشفى وهناك رصاصتان فى ذراعه. وهناك غضب واضطراب كبير فى الدوائر السياسية. فهناك تنتشر دعاية واسعة لما يسمى بجنود قوة الشباب’’.

قال جوردون شيتواينـد بصوت يبدو عليه القلق: ‘‘أتعنى أنهم يمتلكون أسلحة؟’’.

قال الكولونيل: ‘‘لديهم الكثير منها، ولا أعلم من أين حصلوا عليها. وهناك أفكار ومعلومات محددة بخصوص هذا الأمر، فقد تم إرسال شحنة كبيرة من السويد إلى غرب أفريقيا’’.

قال السيد لازنبى: ‘‘وما الذى سيفعلونه بالسلاح؟ من يهتم؟ دعهم يحصلوا على كل ما يريدون من السلاح فى غرب أفريقيا. يمكنهم أن يبدءوا فى إطلاق النار على بعضهم’’.

‘‘حسنًا، هناك شىء غريب بخصوص هذا الأمر ورد فى تقارير مخابراتنا. هنا توجد قائمة بالأسلحة والمعدات التى تم إرسالها إلى غرب أفريقيا’’. الشىء المثير أنها أرسلت إلى هناك لكنهم قاموا بإرسالها إلى مكان آخر بعد وصولها إلى هناك. تم قبولها وتسجيل الاستلام وتم الدفع أو ربما لم يتم لكن تم إرسال الشحنة خارج البلاد مرة أخرى قبل مرور خمسة أيام. فقد تم إخراجها وتحويل طريقها إلى مكان آخر’’.

‘‘لكن ما الفكرة فى ذلك؟’’.

قال مونرو: ‘‘تبدو الفكرة أن الأسلحة لم تكن وجهتها غرب أفريقيا على الإطلاق. ربما يكون قد تم شحنها من أفريقيا إلى الشرق الأدنى. إلى الخليج العربى واليونان وتركيا. وأيضًا تم إرسال شحنة من الطائرات إلى مصر ومن مصر تم إرسالها إلى الهند ومن الهند تم إرسالها إلى روسيا’’.

‘‘أعتقد أنها أرسلت من روسيا’’.

‘‘ـــ ومن روسيا ذهبت إلى براغ، الأمر كله جنون’’.

قال السير جورج: ‘‘لا أفهم، أنا أتساءل ـــ’’.

‘‘يبدو أن هناك تنظيمًا مركزيًّا ما يقوم بتوجيه الإمدادات مختلفة الأنواع ـــ طائرات، أسلحة، قنابل، القنابل العادية وتلك التى تستعمل فى الحروب الجرثومية والكيماوية. وكل هذه الشحنات تتوجه إلى اتجاهات غير متوقعة. ويتم تسليمها عبر طرق مختلفة ومتنوعة إلى مناطق المشكلات والنزاعات ويستعملها قادة ومنظمات

عسكرية ـــ إذا كنت ترغب فى تسميتهم بذلك الاسم ـــ قوة الشباب. فى الغالب تذهب إلى قادة تنظيمات حرب العصابات الفتية، الفوضويين المحترفين الذين يقومون بتعليم مبادئ الفكر الفوضوى ويقبلون أحدث الموديلات، رغم أننى أشك فى أنهم يدفعون مقابلاً لها''.

قال سيدريك لازنبى مصدومًا: ''أتقصد القول إننا نواجه شيئًا كحرب على نطاق عالمى؟''.

رفع الرجل اللطيف ذو الملامح الآسيوية ـــ الذى كان يجلس عند الطرف البعيد للمائدة ولم يكن قد تكلم بعد ـــ وجهه بابتسامه منغولية وقال:

''هذا ما علىَّ تصديقه، الآن فمن رصدنا للموقف نرى-''.

قاطعه لازنبى:

''سيكون عليك التوقف عن الملاحظة والرصد. فسيكون على الأمم المتحدة حمل السلاح وإنهاء الموقف''.

ظل وجه الرجل الآسيوى هادئًا ولم تبد عليه أى تعبيرات.

ثم قال: ''سيكون هذا مخالفًا لمبادئنا''.

رفع الكولونيل مونرو صوته وبدأ يقدم ملخصه للأمر:

''هناك قتال ونزاع فى بعض الأماكن بجميع الدول. فجنوب شرق آسيا تطالب بالاستقلال منذ مدة طويلة، وهناك أربعة أو خمسة تقسيمات مختلفة للقوى فى أمريكا الجنوبية؛ كوبا وبيرو وجواتيمالا وغيرها. وفيما يتعلق بالولايات المتحدة فأنتم تعلمون أن واشنطن قد ضعفت عمليًّا ـــ فالغرب تم اجتياحه من قبل قوات الشباب المسلحة ـــ وتم فرض الأحكام العرفية فى شيكاغو. أتعلمون ما حدث لسام كورتمان؟ لقد تعرض لإطلاق النار عليه هنا على سلالم السفارة الأمريكية''.

قال لازنبى: ''كان من المفترض أن يكون هنا اليوم ليقدم لنا رؤيته للوضع''.

قال الكولونيل مونرو: ''لا أفترض أن وجوده كان سيساعدنا كثيرًا، إنه فتى لطيف للغاية، لكنه كسول جدًّا''.

قال لازنبى بقلق: ''لكن من وراء كل هذا؟''.

ثم نظر نظرة أمل قائلاً: ''ربما الروس، بالطبع''، فقد كان لايزال يتخيل نفسه ذاهبًا إلى موسكو.

هز الكولونيل مونرو: رأسه قائلاً: ''أشك فى هذا''.

قال لازنبى: ''هذا رأى شخصى''، ولمعت عيناه بالأمل قائلاً: ''هناك مجال جديد تمامًا للنفوذ، ربما الصينيون...''.

قال الكولونيل مونرو: ''ولا الصينيون، لكن أتعلم؟! فى ألمانيا هناك إحياء للفاشية الجديدة على نطاق واسع''.

''أنت لا تعتقد أن الألمان قد ..''.

‘‘لا أعتقد أنهم وراء كل هذا بالضرورة، لكن عندما نتحدث عن الاحتمالات فأنا أعتقد أنهم يمكنهم ذلك بسهولة. فقد قاموا بهذا الأمر من قبل كما تعرف. فقد أعدوا للأشياء منذ سنوات مضت وخططوا لها جيدًا وأصبح كل شيء جاهزًا منتظرًا إشارة البدء. فهم مخططون جيدون، جيدون للغاية. فهم يقومون بعملهم بشكل جيد. أتعلم؟ لا يمكننى منع نفسى من احترامهم وتقديرهم’’.

‘‘لكن ألمانيا تبدو مسالمة للغاية وأحوالها تسير بشكل جيد’’.

‘‘نعم، بالطبع الأمر يتوقف على شيء ما. لكن أتدرك أن أمريكا الجنوبية تسير بشكل جيد مع الألمان ولها علاقات طيبة مع الفاشيين الجدد الشبان، وأن هناك اتحاد شباب كبيرًا فى ألمانيا يسمون أنفسهم الآريين السوبر أو شيئًا من هذا القبيل. أتعلم؟! مازالت هناك بعض الأشياء القديمة مثل الصليب المعقوف والتحية النازية وهناك شخص يدير هذا الموضوع يسمى فوتان الشاب أو سيجفريد الشاب أو شيء من هذا القبيل. هناك الكثير من التفاهات الآرية’’.

سمعوا صوت نقر على الباب ودخل السكرتير إلى الحجرة.

‘‘البروفيسور إيكشتاين هنا سيدى السير’’.

قال سيدريك لازنبى: ‘‘سيكون من الأفضل أن نسمح له بالدخول. على كل حال إن كان هناك شخص بإمكانه إخبارنا عن آخر أسلحتنا البحثية فسيكون إيكشتاين هو هذا الرجل. فربما يكون لدينا شيء خفى يمكنه وضع حد لكل هذه التفاهة’’. إلى جانب كون السيد لازنبى رحالة محترفًا لدول العالم كصانع السلام فلديه مخزون هائل من التفاؤل وهو الشعور الذى نادرًا ما تبرره النتائج.

قال مارشال الطيران: ‘‘يمكننا عمل سلاح سرى فعَّال’’.

يعتبر الكثيرون البروفيسور إيكشتاين أفضل علماء بريطانيا، وعندما تنظر إليه تظن للوهلة الأولى أنه شخص عديم الأهمية. فهو رجل صغير الحجم لديه شارب عتيق الطراز كبير الحجم، ويعانى من الربو، وكان يتصرف كما لو كان يتوق إلى الاعتذار عن وجوده فى المكان الموجود فيه. ويصدر أصواتًا عند كلامه مثل ‘‘آه’’، ‘‘هرمف’’، و’’مر’’ من تحت أنفه ويسعل بشدة مرة أخرى ثم يهز يديه بخجل، وهذا ما فعله عندما تم تقديمه إلى الحضور. وهو يعرف الكثير من الحضور وحياهم بإيماءات عصبية.

وجلس على الكرسى حيث أشاروا إليه، ونظر حوله نظرات مبهمة. ورفع يده إلى فمه وبدأ فى عض أنامله.

قال السير جورج باكهام: ‘‘كبار رؤساء الخدمة العسكرية حاضرون هنا. ونحن كلنا شوق لمعرفة رأيك فيما يمكن عمله’’.

قال البروفيسور إيكشتاين: ‘‘أوه، حقًّا؟ نعم، نعم، حقًّا؟’’.

وساد الصمت.

ثم قال السير جورج: ‘‘العالم يسير بسرعة نحو حالة من الفوضى والثورة’’.

‘‘العالم يبدو كذلك، أليس كذلك؟ على الأقل يبدو كذلك مما قرأته فى الصحف. وأنا لا أثق فيها كثيرًا فليس هناك أى دقة فيما يكتبه الصحفيون’’.

قال سيدريك لازنبى مشجعًا: ‘‘لقد بلغنى أنك قد قمت مؤخرًا باكتشافات مهمة للغاية يا بروفيسور’’.

ابتهج البروفيسور إيكشتاين قليلاً: ‘‘آه، نعم هذا ما حدث. فقد انتهينا من إعداد الحرب الكيماوية القذرة، وأصبحت جاهزة وقتما نحتاج إليها. أنت تعلم ما تحويه هذه المعدات من حرب جرثومية وغازات يتم إرسالها فى أدوات الغاز المعتادة وتلويث الهواء وتسميم مصادر المياه. نعم، أعتقد أن بإمكانك قتل نصف تعداد إنجلترا إذا رغبت خلال ثلاثة أيام’’. ثم فرك يديه قائلاً: ‘‘هل هذا ما تريده؟’’.

بدا على السيد لازنبى الرعب قائلاً: ‘‘لا، بالطبع لا’’.

‘‘حسنًا، هذا ما أعنيه. فالأمر لا يتعلق بامتلاكنا أسلحة فتاكة كافية. فلدينا الكثير وكل شىء لدينا فتاك للغاية. والصعوبة ستكمن فى إبقاء أى فرد على قيد الحياة، بما فى ذلك أنفسنا. أرأيت؟ فالمواطنون كما تعلم دومًا هم المعرضون لأية أخطار. كما تعلم ــ حسنًا ــ نحن، على سبيل المثال’’. ثم ضحك ضحكة خافتة سعيدة.

قال السيد لازنبى مصرًّا: ‘‘لكن ليس هذا ما نريده’’.

‘‘هذا ليس سؤالاً عما تريد، بل هو سؤال عما لدينا. فكل شىء لدينا فتاك للغاية. إذا كنت تريد مسح كل شخص تحت الثلاثين عامًا من الخريطة فأنا أتوقع أن بإمكانك ذلك. أستميحك عذرًا، سيكون عليك أخذ أرواح الكثير من كبار السن أيضًا. أتعلم أن فصل مجموعة عن الأخرى أمر صعب للغاية. بشكل شخصى سأكون ضد هذا الأمر، فنحن لدينا الكثير من الباحثين الشبان. عقولهم دموية لكنهم بارعون’’.

تساءل كينوود فجأة: ‘‘ما الأمر الخطأ الذى حل بالعالم؟’’.

قال البروفيسور إيكشتاين: ‘‘هذه هى النقطة المهمة. نحن لا نعلم شيئًا من موقعنا هذا رغم ما نفعله فى جميع المجالات. نحن نعرف أكثر عن القمر، ونعرف الكثير عن علم الأحياء، ويمكنا إعادة زرع القلب والكبد؛ وأتوقع أن نزرع العقول قريبًا رغم أننى لا أعلم كيف يمكن إنجاز هذا الأمر. لكننا لا نعلم من الذى يفعل ذلك. كما تعلمون، هناك شخص يفعل ذلك. هذا نوع من الأمور شديدة القوة. وقد تم تجميع هذه الأمور بأشكال مختلفة. أنتم تعلمون حلقات الجرائم والمخدرات وكل هذه الأشياء. مجموعة شديدة القوة توجهها مجموعة من العقول العبقرية الماهرة من وراء ستار. والأمر يحدث فى هذه الدولة أو تلك على نطاق أوروبى من وقت لآخر. لكن الأمر يحدث بشكل أكبر فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية ــ نصف الكرة الجنوبى. وأتوقع أن الأمر قد وصل جنوبًا إلى الدائرة القطبية الجنوبية قبل أن ننهى حديثنا’’.

بدا أنه سعيد بهذا الشرح.

‘‘الأشخاص ذوو النوايا السيئة -’’.

‘‘حسنًا، يمكنك اعتبار الأمر كذلك. الحقد من أجل الحقد أو الحقد من أجل المال أو النفوذ. كما تعلمون، فمن الصعب الوصول إلى سبب كل الأحقاد. حتى التابعون المساكين لا يعلمون. فهم يريدون العنف ويحبونه. وهم لا يحبون العالم ولا يحبون اتجاهنا المادى. وهم لا يحبون الكثير من أساليبنا القذرة لجنى المال ولا يحبون الكثير من الخدع التى نقوم بها. فهم لا يحبون رؤية الفقر. بل يريدون عالمًا أفضل. حسنًا، ربما يمكنكم إنشاء عالم أفضل إذا فكرتم فى الأمر فترة كافية. لكن تكون المشكلة ـــ إذا رغبت فى استثناء شىء ما أولاً ـــ أن عليك وضع شىء ما مكانه. الأرض لن يكون بها فراغ ـــ هذا قول قديم لكنه صحيح. أنجز الأمر بسرعة وكأنك تقوم بعملية زراعة القلب. فأنت تأخذ قلبًا وتلقيه بعيدًا، لكن سيكون عليك وضع قلب آخر مكانه، قلب يعمل بشكل جيد. وسيكون عليك التجهيز للقلب الذى ستضعه قبل أن تأخذ القلب المعيب الموجود لدى أحدهم الآن. وأنا أفكر كثيرًا فى ترك هذه الأشياء بمفردها تمامًا، لكن أعتقد بعدم وجود من يستمع لى. وعلى كل حال فالأمر لا يخصنى’’.

قال الكولونيل مونرو مقترحًا: ‘‘غاز؟’’.

بدا على البروفيسور إيكشتاين الابتهاج.

‘‘أوه، لدينا جميع أنواع الغازات مخزنة. أتعلم، إن بعضها غير ضار. يمكننا القول روادع معتدلة. ونحن لدينا كل هذه الأشياء’’. وابتسم مثل بائع خردوات لطيف.

تساءل السيد لازنبى مقترحًا: ‘‘أتقترح الأسلحة النووية؟’’.

‘‘لا تلق نكاتًا كهذه! هل تريد تلويث بريطانيا والقارة كلها بالإشعاع؟’’.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘إذن، فأنت لا يمكنك مساعدتنا’’.

قال البروفيسور إيكشتاين: ‘‘ليس قبل أن تعلموا عن هذا الشىء أكثر مما تعلمون الآن. حسنًا، أنا آسف. لكن يجب أن أؤكد لكم أن أغلب الأشياء التى نعمل عليها هذه الأيام خطيرة’’. وأكد الكلمة: ‘‘خطيرة بالفعل’’.

ونظر إليهم بقلق، كما قد ينظر عم غاضب إلى مجموعة أطفال يلعبون بعلبة كبريت وربما أضرموا النيران فى المنزل.

قال السيد لازنبى: ‘‘حسنًا، شكرًا لك بروفيسور إيكشتاين’’. ولم تبد عليه أمارات التقدير أو الشكر.

واستنتج البروفيسور الإفراج عنه، وابتسم لجميع الجالسين وأسرع خارجا من الغرفة.

وبصعوبة انتظر السيد لازنبى إغلاق الباب قبل أن يعبر عن مشاعره.

وقال بمرارة: ‘‘هؤلاء العلماء، جميعهم متشابهون، ليس لهم أى فائدة عملية. لا يقدمون لك أى شىء ملموس. كل ما يمكنهم عمله هو شطر الذرة ـــ ثم يخبروننا بعد ذلك بعدم العبث بها!’’.

قال الأدميرال بلانت: ‘‘كما لو لم يكن لدينا هذه الأسلحة بالضبط. ما نرغب فيه هو شيء محلى ومنزلى مثل نوع من المواد الكيماوية الذى -‘‘، ثم توقف فجأة. ‘‘والآن، بالله -؟’’.

قال رئيس الوزراء بأدب: ‘‘نعم، أدميرال؟’’.

‘‘لا شيء ـــ لقد ذكرنى هذا الموقف بشيء ما. لا يمكننى تذكره-‘‘.

تنهد رئيس الوزراء.

‘‘هل هناك أى خبراء علميين آخرين ينتظرون على السجادة؟’’. تساءل جوردون شيتواينـد وهو ينظر إلى ساعته.

قال لازنبى: ‘‘أعتقد أن بيكواى العجوز هنا. ومعه صورة ـــ أو رسم ـــ أو خريطة أو شيء ما يريد أن يطلعنا عليه-‘‘.

‘‘بشأن ماذا كل ذلك؟’’.

قال السيد لازنبى بشكل غامض:’’لا أعلم. يبدو لى أن الأمر مجرد توافه وليست بالأمر المهم’’.

‘‘توافه؟ لماذا توافه؟’’.

‘‘ليست لدىَّ فكرة عن الموضوع. حسنًا’’، ثم تنهد قائلاً: ‘‘سيكون من الأفضل أن نلقى نظرة’’.

‘‘هورشام هنا، أيضًا ـــ ‘‘.

قال شيتواينـد: ‘‘ربما يكون لديه شيء جديد ليطلعنا عليه’’.

دخل الكولونيل بيكواى متثاقلاً. فقد كان يحمل شيئًا مطويًا وتم فرده بمساعدة هورشام وتم نصبه بشيء من الصعوبة ولكن بطريقة تمكن الجالسين حول المنضدة من رؤيته.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘لم يتم تطبيقها بعد، لكن هذا يعطيكم فكرة تقريبية عنه’’.

‘‘ما الذى تعنيه بذلك، إن كان له معنى؟’’.

همهم السير جورج: ‘‘توافه؟’’. ثم خطرت له فكرة: ‘‘هل هذا غاز؟ هل هو غاز جديد؟’’.

قال بيكواى: ‘‘من الأفضل أن تشرح المحاضرة يا هورشام، فأنت تعلم الفكرة العامة’’.

‘‘لا أعلم إلا ما أخبرونى به. هذا مجسم تقريبى يرتبط بالتحكم فى العالم’’.

‘‘من الذى نفذه؟’’.

‘‘مجموعات تملك أو تتحكم فى مصادر القوة ـــ المواد الخام للقوة’’.

‘‘وهذه الحروف الأبجدية؟’’.

‘‘تعبر عن شخص أو اسم كودى لمجموعة خاصة. فهم دوائر تغطى العالم بأكمله فى الوقت الحاضر’’.

‘‘هذه الدائرة الموضوع بداخلها الحرف ‘‘ت’’ تعبر عن التسليح. فهناك شخص ما أو مجموعة ما تتحكم فى التسليح. جميع أنواع التسليح. المتفجرات، المدافع، البنادق. فجميع الأسلحة حول العالم يتم إنتاجها وفقًا لخطة ويتم إرسالها بشكل ظاهرى إلى الدول النامية، والمتخلفة، والمتحاربة. لكنها لا تظل فى المكان الذى يتم إرسالها إليه. فيتم تعديل مسارها إلى مكان آخر مباشرة، إلى حروب العصابات فى القارة الأمريكية الجنوبية ـــ إلى أعمال الشغب والقتال فى الولايات المتحدة ـــ إلى مراكز تدريب قوى الظلام ـــ وإلى دول مختلفة بالقارة الأوروبية.

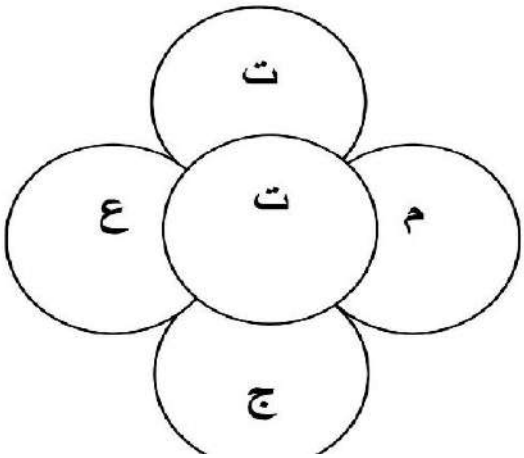

‘‘وحرف ‘‘م’’ يعبر عن المخدرات ـ فهناك شبكة من الموردين يديرونها من مستودعات ومخازن مختلفة. جميع أنواع المخدرات، من الأنواع قليلة الأثر والضرر إلى الأنواع القاتلة والمميتة. ويبدو أن رؤساء هذا القسم موجودون فى الشرق، وهذا الأمر يندرج تحته تركيا، وباكستان، والهند، ووسط آسيا’’.

‘‘وهل يجنون أموالاً من هذا؟’’.

‘‘مبالغ مالية ضخمة. لكن الأمر أكثر من اتحاد للموردين. فهناك جانب أكثر شرًا لهذا الأمر. فهم يستخدمونها لإكمال الضعف بين الشباب، يمكننا القول جعلهم عبيدًا بشكل تام، عبيدًا بحيث لا يمكنهم الحياة والوجود أو القيام بأى عمل لرؤسائهم بدون تعاطى المخدرات’’.

أطلق كينوود صفيرًا خافتًا.

‘‘هذه مشكلة كبيرة، أليس كذلك؟ على الأقل ألا تعلمون من هم موردو المخدرات؟’’.

‘‘نعلم بعضهم. لكن لا نعلم إلا الأسماء الصغيرة وليس المتحكمين الحقيقيين. فرؤساء هذا القسم بعيدون كما نعتقد، فهم فى آسيا الوسطى وفى الشرق. ويسلمون المخدرات فى إطارات السيارات، أو الأسمنت، أو الجبس، أو فى أى نوع من

الآلات والسلع الصناعية. ويتم تسليمها إلى جميع أنحاء العالم وتمر عبر الحدود كبضائع تجارية عادية إلى وجهتها''.

''وحرف ''ن'' يرمز للنقود ـــ المال! هناك شبكة نقود عنكبوتية فى وسط كل هذه الدوائر. وسيكون عليكم الذهاب للسيد روبنسون ليخبركم عن المال. فوفقًا لمذكرة، تأتى الأموال بشكل كبير من أمريكا، وأيضًا هناك رؤساء لهذا القسم فى بافاريا. وهناك احتياطى كبير للغاية فى جنوب أفريقيا قائم على الذهب والألماس. وأغلب النقود تذهب إلى أمريكا الجنوبية. وسأخبركم بأن أحد هؤلاء المتحكمين الرئيسيين فى المال سيدة قوية وموهوبة للغاية. هى عجوز الآن ومن المؤكد أنها على وشك الموت. لكنها ما زالت قوية نشطة. واسمها هو شارلوت كراب. وكان والدها يمتلك ساحات كراب الواسعة فى ألمانيا. وكانت هى بارعة فى المال والاقتصاد وتضارب فى وول ستريت. وقد جمعت ثروات فوق ثرواتها عن طريق استثماراتها فى جميع أنحاء العالم. فهى تمتلك وسائل النقل، والآلات، ومؤسسات صناعية، كل هذه الأشياء. وهى تعيش فى قلعة كبيرة فى بافاريا ـــ ومن هناك توجه فيضان المبالغ المالية الكبيرة إلى أجزاء مختلفة من العالم''.

''والحرف ''ع'' يمثل العلم ـــ معرفة الحروب البيولوجية والكيماوية الحديثة ـــ وقد تبعها العديد من العلماء الشباب، ونعتقد بوجود مركز لهم فى الولايات المتحدة مكرس ومخصص للفوضى''.

''القتال من أجل الفوضى؟ تناقض فى المصطلحات. هل يمكن أن يكون هناك شىء كهذا؟''.

''إن كنت شابًا لكنت آمنت بالفوضى. فأنت تريد عالمًا جديدًا ولكى يبدأ يجب عليك القضاء على العالم القديم ـــ كما تهدم منزلاً قبل أن تبنى آخر جديدًا محله. لكن إن لم تكن تعلم إلى أين أنت ذاهب، إن لم تكن تعلم المكان الذى يغرونك بالذهاب إليه، أو حتى يجبروك على الذهاب إليه، وما سيكون عليه شكل العالم الجديد، وما منزلة المؤمنين به عندما يحصلون عليه؟ بعض المؤمنين عبيد، وبعضهم أعماهم الحقد، وبعضهم أعماهم العنف والسادية وبشروا بكل منهم ومارسوه. وبعضهم ـــ كان الله فى عونهم ـــ مازالوا مثاليين، يؤمنون كما كان الشعب الفرنسى مؤمنًا وقت الثورة الفرنسية بأن الثورة ستجلب لهم الازدهار والسلام والسعادة والرضا''.

''وما الذى نفعله بخصوص كل هذا؟ ما الذى يفترض علينا عمله بخصوص هذا الأمر؟''. كان الأدميرال بلانت هو المتحدث.

''ما الذى سنفعله بخصوص هذا الأمر؟ كل ما يمكننا فعله. أؤكد لكم ـــ جميع الموجودين هنا ـــ أننا نفعل كل ما فى وسعنا. فنحن لدينا أشخاص يعملون من أجلنا فى كل دولة. ولدينا وكلاء، ومخبرون، يجمعون لنا المعلومات ويجلبونها إلى هنا -''.

الحلقة

ن شارلوت الضخمة

ت إيريك أولافسون

م تدار باسم ديميتريوس

ع د.سارلونسكى

ج

بافاريا

رجل صناعة سويدى، التسليح

زمير (مدينة تركية)، المخدرات

كولورادو، الولايات المتحدة، عالم فيزياء وكيمياء. مجرد شكوك

سيدة. تعرف باسم وهو جانيتا. يقال عنها إنها خطيرة. لا توجد أية فكرة عن اسمها الحقيقى.

قال الكولونيل بيكواى: "وهذا الأمر ضرورى جدًّا. أولاً علينا أن نعرف ـــ نعرف الأشخاص، من معنا ومن ضدنا. وبعد ذلك ستكون رؤية ما يمكن فعله".

"لقد أسمينا هذا الرسم البيانى بالحلقة. وهنا قائمة بما نعرفه عن قادة الحلقة. ولقد عرفناهم من خلال وسيلة غريبة وهى أسماؤهم الشفرية لهم ـــ أو يمكننا أن نقول إن هؤلاء من نشك فى كونهم الأشخاص الذين نريدهم".

الفصل الخامس عشر

علاج العمة ماتيلدا

1

قالت الليدى ماتيلدا مخمنة: ‘‘علاج من نوع ما؟’’.

قال الطبيب دونالدسون: ‘‘علاج؟’’. ولدقيقة بدت على عينيه أمارات الحيرة وقد فقد الهالة العلمية التى يحيط نفسه بها وهذا ما اعتبرته الليدى ماتيلدا واحدة من المشاكل البسيطة المتعلقة بالتعامل مع طبيب أصغر من الطبيب الذى تعتاد على التعامل معه منذ سنوات عديدة.

قالت الليدى ماتيلدا موضحة: ‘‘هذا المصطلح ما اعتدنا عليه. أتعلم، فى أيام شبابى كنت تقول إنى ذاهب للعلاج. مارينباد، كارلسباد، بادن-بادن وبقية هذه الأشياء. وبالأمس فقط قرأت عن هذا المكان الجديد فى الصحيفة. مكان جديد للغاية وعصرى. يقال إن به جميع الأفكار والأشياء الجديدة. لا تظن أن الأفكار الجديدة تستهوينى، لكننى لا أخاف منها. أقصد، ربما تكون تكرارًا لنفس الأمور. المياه بطعم البيض الفاسد وأسوأ أنواع الحمية الغذائية والذهاب إلى حيث تتعاطى العلاج أو تلك السوائل أو أيًّا ما يسمونه هذه الأيام فى ساعة غير مناسبة من الصباح. وأتوقع أن يرسلوك إلى مركز للتدليك أو شىء من هذا القبيل. ومن المعتاد أن يستخدموا هناك الطحالب البحرية ويكون المكان قريبًا من البحر، لكن هذا المكان يقع فى موقع ما بين الجبال ــ بافاريا أو النمسا أو مكان مشابه. لذلك لا أعتقد أنهم سيقدمون الطحالب البحرية، بل ربما قدموا طحالب المستنقعات، أعتقد أنه سيكون اسمًا جيدًا لكلب. وربما مياهًا جوفية جيدة مع المياه الكبريتية التى تشبه رائحتها رائحة البيض الفاسد. أفهم أنه مبنى فى الضواحى. لكن الشىء الوحيد المثير للضيق هذه الأيام أنهم لا يضعون عمود درابزين للسلالم فى المبانى الحديثة، بل يضعون مجموعة من السلالم الرخامية بدون شىء لتمسك به’’.

قال الطبيب دونالدسون: ‘‘أعتقد أننى أعلم المكان الذى تقصدينه، فهناك دعاية جيدة له فى الصحافة’’.

‘‘قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘حسنًا، أنت تعلم ما يكون عليه المرء فى سنى هذه، فالمرء يحب تجربة أمور جديدة، على الرغم من أن هذا لا يجعل المرء يشعر بأن صحته قد تحسنت بأى شكل. ومع ذلك أعتقد أنك تراها فكرة جيدة، أليس كذلك د. دونالدسون؟’’.

نظر الدكتور دونالدسون إليها، وهو لم يكن صغيرًا للدرجة التى رسخت فى عقل الليدى ماتيلدا. كان رجلاً يقارب الأربعين من العمر وكان مهذبًا ولطيفًا ويرغب فى ملاطفة وراحة مرضاه كبار السن بقدر ما يرغبون بدون أى خطر فعلى إذا ما حاولوا القيام بأشياء غير ملائمة.

وقال لها: ‘‘أنا متأكد أن السفر لن يلحق بك أى أذى على الإطلاق، بل ربما يكون فكرة جيدة. وبكل تأكيد فالسفر متعب قليلاً رغم أن المرء هذه الأيام يمكنه الذهاب بالطائرة إلى أى مكان بسرعة وسهولة’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘بسرعة نعم. بسهولة لا. فصعود ونزول سلالم الطائرة ونقل حقائب السفر من وإلى السيارة من المطار إلى الطائرة، ومن الطائرة إلى مطار آخر إلى سيارة أخرى، وكل الأمور الأخرى التى تعرفها متعبة للغاية لكننى أفهم أن بإمكان الفرد الحصول على الكراسى المتحركة فى المطارات’’.

بالطبع يمكنك، وهى فكرة جيدة. وإذا وعدتِ بالقيام بذلك وعدم التفكير فى سيرك من مكان إلى آخر ...’’.

قالت مريضته مقاطعة: ‘‘أعلم، أعلم. أنت تفهم بالفعل. أنت حقًّا رجل متفهم للغاية. كما تعلم، فلكل فرد كرامته وفى الوقت الذى تظل فيه معوقًا مستندًا على عكازك أو دعامة صغيرة لا تكون راغبًا فى أن تبدو منهارًا تمامًا أو طريح الفراش أو شيئًا من هذا القبيل. كان الأمر سيصبح أسهل كثيرًا لو كنت رجلاً’’. واستغرقت فى التفكير ثم قالت: ‘‘أقصد، يمكن للمرء ثنى ساق على الأخرى بواحدة من هذه الضمادات الضخمة عندما تكون مصابًا بداء المفاصل. أقصد أن الرجال يتحملون داء النقرس أكثر من النساء. ولا يعتقد أحد أن هناك من هو فى حالة أسوأ من حالته. وبعض أصدقائهم الأكبر سنًا يعتقدون أنهم اعتادوا على الجلوس كثيرًا لأن هذا الاعتقاد السائد منذ زمن، رغم أننى أرى أنها ليست صحيحة على الإطلاق. فالإجراءات الموجودة بالمطارات لا تسبب داء المفاصل. نعم، باستخدام كرسى متحرك يمكننى الطيران إلى ميونيخ أو أى مكان آخر. يمكننى ترتيب أمر سيارة أو شىء ما فى الوجهة التى سأصل إليها’’.

‘‘ستأخذين معك الآنسة ليذران بالطبع’’.

‘‘آمى؟ أوه، نعم بالتأكيد. لا يمكننى فعل أى شىء بدونها. على أية حال هل ترى أى خطر علىَّ فى هذا الأمر؟’’.

‘‘أعتقد أن ذلك قد يجعل العالم يبدو بشكل أفضل بالنسبة لك’’.

‘‘أنت رجل لطيف فعلاً’’.

وغمزت له الليدى ماتيلدا بعينيها غمزة اعتاد عليها.

‘‘أنت تعتقد أنى سأستمتع وأبتهج بذهابى إلى مكان جديد ورؤية وجوه جديدة، وأنا أرى أنك محق بالتأكيد. لكن أنا أفضل التفكير فى أننى أتعاطى علاجًا ما رغم عدم وجود شىء أحتاج للاستشفاء منه. لا، حقًّا، هل هناك ما أحتاج للعلاج منه؟ أقصد باستثناء السن الكبيرة. ولسوء الحظ فكبر السن لا يمكن العلاج منه فهو يزيد فقط، أليس كذلك؟’’.

‘‘بالفعل، فإن الفكرة هنا هل ستمتعين نفسك؟ حسنًا، أعتقد أنكِ ستفعلين ذلك. ولكن عندما تشعرين بالإرهاق عند قيامك بأى شىء توقفى عن عمله’’.

‘‘سأظل أشرب أكواب الماء إن كان طعم الماء كالبيض الفاسد. ليس لأنى أحب طعمه ورائحته بل لأنه لا يشعرنى بأى تحسن، لكن الأمر يشتمل على نوع من التنسك وإماتة الشهوات، فالأمر مثل سيدة عجوز فى قريتنا اعتادت ذلك. وهم عادة أرادوا دواء لطيفًا وقويًّا سواء كان لونه أسود أو بنفسجيًّا أو ورديًّا غامقًا، وبه نكهة النعناع. وهم يعتقدون أن ذلك أثره أفضل من كبسولة أو زجاجة دواء صغيرة لطيفة تبدو ممتلئة بالمياه العادية بدون أى ألوان غريبة’’.

قال د. دونالدسون: ‘‘أنتِ تعلمين الكثير عن الطبيعة الإنسانية’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘أنت لطيف جدًّا معى، وأنا أقدر ذلك. آمى!’’.

‘‘نعم، ليدى ماتيلدا؟’’.

‘‘إذا سمحتِ أعطينى الأطلس الجغرافى. فقد نسيت الطريق إلى بافاريا والدول المحيطة بها’’.

‘‘دعينى أر الآن. أطلس. أعتقد وجود واحد فى المكتبة، من المؤكد وجود أطالس قديمة هناك تعود إلى عام 1920 أو ما يقارب ذلك التاريخ حسبما أعتقد’’.

‘‘أتساءل إن كان لدينا شىء أكثر حداثة’’.

‘‘أطلس’’ ، قالت آمى بتفكير عميق.

‘‘إن لم يكن هناك، يمكنك شراء واحد وإحضاره إلىَّ صباح الغد. سيكون ذلك صعبًا للغاية بسبب اختلاف جميع الأسماء والدول ولن أعرف أين أنا. لكن سيكون عليكِ مساعدتى فى هذا الأمر. واجلبى معك عدسة مكبرة. وقد خطرت على بالى تلك الفكرة عندما كنت فى سريرى أقرأ منذ عدة أيام، لكننى تذكرتها للتو’’.

وتمت تلبية حاجاتها فى وقت قصير وفى النهاية توفر لها الأطلس والعدسة المكبرة وأطلس قديم لتتفحصه، وكانت آمى ــ التى تراها الليدى ماتيلدا سيدة لطيفة ــ مفيدة للغاية.

‘‘نعم، ها هى. يبدو أنها مازالت تدعى مونبروج أو شيئًا قريبًا من هذا الاسم. إنها إما فى التيرول أو بافاريا. يبدو أن كل شىء قد غير مكانه وسمى بأسماء مختلفة ــ ’’.

2

وتأملت الليدى ماتيلدا حجرة نومها بأحد الفنادق البسيطة المسمى جاثوس. كانت ملائمة تمامًا ومكلفة جدًّا. وقد جمع أثاثُها بين الراحة والمظهر البسيط، ما جعل الساكنة تشعر بأنها تعيش أسلوب حياة زاهدة ونظامًا غذائيًّا بسيطًا إلى جانب بعض جلسات التدليك المؤلمة. ورأت أن أثاث الغرفة كان رائعًا، فهو يلائم جميع الأذواق. وكان هناك نص قوطى يحيط به إطار كبير معلق على الحائط. ولم تكن إجادة السيدة ماتيلدا للغة الألمانية بنفس الجودة التى كانت عليها فى شبابها لكنها تعاملت مع الوضع، وتعلقت بالفكرة الذهبية والساحرة الخاصة بالرجوع إلى

الشباب. فالشباب لا يمسك بالمستقبل بين يديه فقط لكن كبار السن كانوا متأكدين أنهم ربما يمرون بفترة ازدهار ذهبية ثانية.

وكانت توجد وسائل لطيفة تمكن المرء من ممارسة الأنشطة الحياتية التى تجذب الطبقات المختلفة من البشر. (مع الافتراض دومًا بأن لديهم النقود الكافية ليحصلوا على هذه الأشياء). وبجوار السرير كان هناك أحد الكتب الفلسفية البارزة، تمامًا مثلما حدث معها عندما سافرت إلى الولايات المتحدة ووجدته بجانب سريرها. وحملته برضا وفتحته بشكل عشوائى ووضعت يدها على نص محدد. وقرأته وهى تومئ برأسها بكل قناعة ورضا ولخصته بشكل مختصر فى مفكرة صغيرة وجدتها على منضدة بجوار سريرها. وكانت معتادة على فعل ذلك طوال حياتها، فتلك هى طريقتها فى كتابة بعض العبارات الملهَمَة فى مذكرات صغيرة.

طوال فترة حياتى لم أعهد مؤمنًا خاب رجاؤه.

وبحثت عن أشياء أخرى فى الحجرة. ووجدت دليل جوته الذى كان موضوعًا بشكل غير واضح ولكن بطريقة أنيقة لمن ينظر نظرة سريعة، كان موضوعًا على الرف السفلى للمنضدة المجاورة للسرير. كان كتابًا لا يمكن تقدير قيمته لهؤلاء الراغبين فى التعرف على الطبقة العليا للمجتمع والتى ترجع إلى المئات من الأعوام والتى ما زالت ملحوظة وبارزة وتخضع للفحص من أصحاب النسل الارستقراطى أو المهتمين به. وقالت الليدى ماتيلدا لنفسها: هذا الكتاب يسهل حمله واستعماله ويمكننى قراءة جزء كبير منه.

وبجوار المنضدة، على خزف المدفأة القديم كانت هناك نسخ ورقية بها مواعظ وحكم فلاسفة العالم الحديث. هؤلاء الجالسون ــ أو الذين كانوا جالسين ــ فى البرية يصرخون منذ فترة قريبة كانوا هنا ليدرسهم ويؤمن بهم التابعون الشباب بهالة على الرأس، وملابس غريبة، وقلوب مخلصة وفية. ومنهم ماركس، وجيفارا، وليفى شتراوس، وفانون.

وإن كانت ستقوم بأية محادثات مع الشباب الذهبى فسيكون من الأفضل لها قراءة القليل من هذه الأوراق أيضًا.

فى تلك اللحظة سمعت صوت طرق خفيف على باب حجرتها، ثم انفتح الباب برفق وظهر وجه آمى المخلصة. وقالت الليدى ماتيلدا لنفسها فجأة: كانت آمى تبدو تمامًا مثل النعجة عندما كانت فى العاشرة من عمرها. نعجة لطيفة ومخلصة وطيبة. وفى تلك اللحظة ــ كانت الليدى ماتيلدا سعيدة بهذه الأفكار ــ كانت آمى هادئة وثابتة فى مكانها مثل حمل صغير جميل بشعر مجعد لطيف، ولديه عينان مفكرتان ويبدو عليهما الطيبة، ويمكنها أن تقول "باء" برفق بدلاً من ثغاء الخروف.

"آمل أن تكونى قد نمتِ جيدًا".

"نعم، يا عزيزتى، نمت بشكل ممتاز. هل حصلت على هذا الشىء؟".

كانت آمى عادة تعلم ما الذى تقصده. وسلمته إلى مستخدمتها.

‘‘آه، قائمة نظامى الغذائى. فهمت’’، مدت الليدى ماتيلدا يدها ممسكة بها ثم قالت: ‘‘ياله من أمر ممل بشكل لا يُصَدَّقُ! ما هذه المياه التى يفترض أن أشربها؟’’.

‘‘طعمها لا يبدو جيدًا’’.

‘‘لا، لا أفترض أن طعمها سيكون جيدًا. تعالى بعد نصف ساعة، فلدىَّ خطاب أريدك أن ترسليه’’.

ونحت صينية إفطارها جانبًا وتوجهت إلى المنضدة. وفكرت لعدة دقائق ثم كتبت خطابها وهمهمت قائلة: ‘‘يجب أن يقوم هذا الخطاب بالخدعة’’.

‘‘أستميحك عذرًا، ليدى ماتيلدا، ما الذى قلته للتو؟’’.

‘‘كنت أكتب إلى صديقتى العجوز التى ذكرتها لك’’.

‘‘هل هى من قلتِ أنكِ لم تريها منذ ما يقارب خمسين أو ستين عامًا؟’’.

أومأت الليدى ماتيلدا بالإيجاب.

‘‘آمل... ـــ’’، بدا على آمى الرغبة فى الاعتذار ثم قالت: ‘‘أقصد ـــ أنا ـــ إنها مدة طويلة للغاية. والناس لديهم ذاكرة ضعيفة هذه الأيام. آمل أن تكون مازالت تتذكرك وأن تكون بصحة جيدة’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘نعم، ستفعل. فالأشخاص الذين لا تنسينهم هم من كنت تعرفينهم عندما كنت فى العاشرة أو العشرين من عمرك. فهم يلتصقون بذاكرتك إلى الأبد. فأنت تذكرين نوع القبعات التى ارتدوها وطريقة ضحكهم وتذكرين أخطاءهم وصفاتهم الجيدة وكل شىء يتعلق بهم. وببساطة يمكننى القول إن أى شخص قابلته منذ عشرين عامًا مضى لا يمكننى تذكره. إلا إذا ذُكِرُوا لى وليس إذا رأيتهم. نعم، فهى ستتذكرنى وستتذكر كل الأمور الخاصة بلوزان. عليك إرسال هذا الخطاب فلدى القليل من الواجبات المنزلية’’.

وحملت دليل جوته وعادت إلى سريرها، حيث قامت بدراسة دقيقة لهذه الأجزاء المهمة التى قد تظهر لها فائدة. بعض العلاقات العائلية وأنواع القرابة المختلفة من النوع المفيد. من تزوج من، من عاش هنا، وما الأحداث المأساوية التى تعرض لها آخرون. لكنها لم تجد أى شىء فى دليل جوته عن الشخص الذى تفكر فيه. لكنها عاشت فى جزء من العالم، وأتت هنا لتعيش فى قلعة تنتمى إلى أجداد نبلاء وقد استوعبت الاحترام والتملق المحلى لهؤلاء النبلاء وسلالاتهم. إلى الأصل الكريم حتى وإن أضعفه الفقر، وهى نفسها بصفتها الليدى ماتيلدا تعلم جيدًا عدم وجود حقوق لها أيًّا كانت. وكانت ستغرق فى محيطات ومبالغ خيالية من المال.

ولم يكن يساور الليدى ماتيلدا كليكهيتون أى شك فى أنها، كابنة لدوق ثامن، سيتم الاحتفاء بها. ربما يتم تقديم القهوة وشطائر الكريمة اللذيذة.

ودخلت الليدى ماتيلدا كليكهيتون إلى واحدة من غرف الاستقبال الكبيرة بالقلعة. كانت مسيرة خمسة عشر ميلاً بالسيارة. وقد ارتدت ملابسها بقليل من العناية رغم أن ذلك قد لاقى رفض آمى إلى حد ما. وكانت آمى نادرًا ما تقدم لها النصيحة، لكنها كانت متلهفة جدًّا إلى نجاح سيدتها فيما تفعله أيًّا كان بحيث خاطرت بإهدار هذا الوقت ولم تعترض إلا قليلاً.

‘‘ألا تعتقدين أن فستانك الأحمر بالٍ قليلاً، إن كنتِ تفهمين ما أقصده. أقصد تحت الذراعين مباشرة، و... حسنًا، هناك رقعتان أو ثلاث ظاهرة للغاية’’.

أعلم يا عزيزتى، أعلم. هذا فستان مهترئ، لكنه رغم ذلك هو طراز باتو. فهو قديم لكنه كان باهظ الثمن. أنا لا أريد أن أبدو غنية ومسرفة. فأنا عضو فقير فى أسرة أرستقراطية. وأى شخص تحت سن الأربعين سيحتقرنى بدون شك. لكن مضيفتى عاشت وتعيش فى جزء من العالم ينتظر فيه الأغنياء طعامهم فى الوقت الذى تنتظر فيه مضيفتهم امرأة عجوزًا رثة الملابس من نسل رفيع. فتقاليد العائلة أمر لا يستطيع المرء أن يفقده بسهولة. فالفرد يستوعبها حتى وإن كان فى مكان جديد عليه. وبالمناسبة، فى صندوق ثيابى ستجدين شالاً مصنوعًا من الريش’’.

‘‘هل ستضعين شالاً مصنوعًا من الريش؟’’.

‘‘نعم، شالاً مصنوعًا من ريش النعام’’.

‘‘أوه، يا إلهى، من المؤكد أنه قديم للغاية’’.

‘‘نعم، لكننى أحتفظ به بعناية. وسترين، فشارلوت ستعرف ما هو وما قيمته. وسترى أن واحدة من أفضل عائلات إنجلترا ترتدى ملابسها القديمة التى تحتفظ بها بعناية منذ سنوات. وسأرتدى معطفى المصنوع من جلد الفقمة أيضًا. إنه مهترئ قليلاً لكن هذا هو وقت هذا المعطف السحرى’’.

وانطلقت بهذا النظام. وسارت آمى معها وكانت ملابسها أكثر هندمة وملاءمة مقارنة بماتيلدا رغم أنها هى خادمتها.

وكانت ماتيلدا كليكهيتون متأهبة لما شاهدته. حوت، كما أخبرها ستافورد. حوت منغمس فى الترف، امرأة كريهة تجلس فى غرفة تحيط بها لوحات تساوى ثروة. ونهضت بقليل من الصعوبة من كرسى يمكن أن يظهر فى المسرحيات كعرش أمير.

‘‘ماتيلدا!’’.

‘‘شارلوت!’’.

‘‘آه! بعد كل هذه السنوات! يا لغرابة هذا الأمر!’’.

وتبادلتا عبارات التحية والتعبير عن السعادة، وراحت تتكلمان أحيانًا بالإنجليزية وأحيانًا بالألمانية. وكانت ألمانية الليدى ماتيلدا غير سليمة، وتحدثت شارلوت ألمانية ممتازة، وإنجليزية ممتازة وإن كانت بلهجة حلقية قوية، وكانت بصفة عامة تتحدث إنجليزية بلهجة أمريكية. وقالت الليدى ماتيلدا لنفسها شارلوت: شنيعة وضخمة للغاية. ولدقيقة شعرت بولع يرجع إلى الماضى رغم أن شارلوت كانت

أكثر الفتيات إثارة للتقزز فلم يحبها أحد ومن المؤكد أنها لم تحب أحدًا. لكن توجد صلة كبيرة، لنقل ذلك، فى ذكريات أيام الدراسة البعيدة. ولم تكن تعلم إن كانت شارلوت أحبتها أم لا. لكنها تتذكر أن شارلوت ـــ ما الذى نقوله عن ذلك فى هذه الأيام ـــ كانت تتملقها. ربما كانت تفكر بالعيش فى قلعة دوق بإنجلترا. ورغم سلالة أجداد والد الليدى ماتيلدا الجديرة بالثناء والتمجيد، فوالدها كان واحدًا من أكثر الدوقات البريطانيين فقرًا. ولم يستعد توازنه إلا بعد أن تزوج زوجته الثرية التى كان يعاملها بأقصى أنواع الاحترام واستمتع وهى تتنمر عليه كلما أتيح لها ذلك. وكانت الليدى ماتيلدا محظوظة بشكل كبير لتكون ابنته من زواجه الثانى. وكانت والدتها مقبولة إلى حد بعيد وممثلة ناجحة، قادرة على لعب دور الدوقة أكثر من أى دوقة حقيقية.

وتبادلتا ذكريات الأيام الخوالى، والمتاعب التى تسببتا فيها لمجموعة من مدرسيهما وموجهيهما، والزيجات السعيدة والتعيسة لبعض زميلات المدرسة. كما تحدثت ماتيلدا قليلاً عن بعض التحالفات والعائلات التى اختارتها من صفحات دليل جونه ـــ "لكن من المؤكد أنه كان زواجًا رهيبًا لإيلسا. أظن أنها كانت إحدى بربونات بارمى، أليس كذلك؟ بلى، بلى، حسنًا فأنا أعلم ما الذى نتج عن تلك الزيجة. فهى أكثر الزيجات تعاسة وشؤمًا".

تم تقديم القهوة، التى كانت لذيذة، وأطباق من المخبوزات الراقية وشطائر الكريمة اللذيذة.

صرخت الليدى ماتيلدا: "ليس علىَّ لمس أى من هذه الأطباق، فطبيبى صارم للغاية. وهو يقول إن علىَّ الالتزام بالعلاج بشكل صارم خلال وجودى هنا. لكن رغم كل ذلك فهذا يوم عطلة، أليس كذلك؟ عطلة تجديد الشباب. وهذا ما يثيرنى كثيرًا. لقد زارك ابن أخى الأكبر من فترة وجيزة

- نسيت اسم من أحضره إلى هنا، الكونتيسة ـــ آه، يبدأ اسمها بحرف ز، ولا يمكننى تذكر الاسم".

"الكونتيسة ريناتا زيركوسكى ـــ ".

"آه، هذا هو الاسم، نعم. أعتقد أنها امرأة ساحرة للغاية. وقد جلبته لزيارتك وأنا أرى ذلك لطفًا كبيرًا منها. وكان ابن أخى متأثرًا جدًّا بزيارتك. وتأثر أيضًا بممتلكاتك الرائعة، وبطريقة حياتك، وبالطبع بالأشياء الرائعة التى سمعها عنك. كيف استطعتِ ـــ أوه، لا أعلم كيف أقول الكلمة المناسبة لذلك. كوكبة الشباب. شباب ذهبى وجميل. وهم يحتشدون حولك ويعبدونك. يالها من حياة تلك التى من المؤكد أنك تحبينها لا يمكننى العيش مثل هذه الحياة. فأنا علىَّ أن أحيا فى هدوء. التهاب المفاصل. وكذلك الصعوبات المالية. صعوبات فى المحافظة على منزل العائلة. آه حسنًا، أنت تعلمين ظروفنا فى إنجلترا ـــ ومشاكلنا مع الضرائب".

"أتذكر ابن أخيك هذا، نعم. وهو مقبول، رجل مقبول للغاية. الخدمة الدبلوماسية، أليس كذلك؟".

‘‘أوه، نعم. لكن ـــ حسنًا، أتعلمين، أشعر بأنهم لم يتعرفوا على قدراته. هو لا يتحدث كثيرًا، ولا يشتكى لكنه يشعر بأنه ـــ حسنًا، يشعر بأنهم لم يقدروه كما ينبغى. فما الفرق بين الذين يتبوأون المناصب الحالية وبينه؟’’.

قالت شارلوت الضخمة: ‘‘رعاع!’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘هم مجموعة مثقفين لا يتسمون باللباقة فى التعامل مع الحياة. لو حدث هذا منذ خمسين عامًا لكان الأمر مختلفًا، لكن الآن، لم تسر أموره المهنية كما ينبغى ولم ينل الترقية التى يستحقها. وسأخبرك بكل ثقة أنهم لا يثقون فيه الآن. كما تعلمين فهم يشكون فيه لأنه متورط مع ـــ كيف يمكننى تسميتهم؟ ـــ المتمردين ذوى الاتجاهات الثورية. ويجب على المرء أن يدرك ما الذى يخفيه القدر لرجل يمكنه تبنى وجهات نظر أكثر تطورًا’’.

‘‘أتقصدين أنه ليس كذلك، إذن ما الذى تقولينه عما يحدث فى إنجلترا تعاطفًا مع المحافظين كما يطلقون عليه؟’’.

قالت الليدى ماتيلدا ‘‘هش، هش، لا يجب أن نقول هذه الأشياء. على الأقل ليس علىَّ أنا قول ذلك’’.

قالت شارلوت: ‘‘أنت تثيرين فضولى’’.

تنهدت ماتيلدا كليكهيتون:

‘‘انس هذا الأمر ولنتحدث عن ولعنا بأكبر أبناء إخوتى. دائما كان ستافى هو المفضل لدىَّ؛ فهو يتمتع بالسحر وخفة الدم. أعتقد أيضًا أنه كان مفكرًا؛ فقد كان يتخيل المستقبل، مستقبلاً سيختلف كثيرًا عما نحن عليه فى الوقت الحاضر. واحسرتاه، فوضع دولتنا السياسى سيئ للغاية. ويبدو أن ستافورد تأثر كثيرًا بالأشياء التى قلتها أو أظهرتها له. أفهم أنك استخدمتِ الموسيقى كثيرًا. لا يمكننى قول الشىء الذى نحتاج إليه لكننى أشعر بأنه المثل الأعلى للجنس السوبر’’.

‘‘ينبغى وجود جنس ممتاز. فقد كان لأدولف هتلر الفكرة الصائبة؛ فهو رجل لم يكن مهمًّا فى شخصه لكن هناك مكونات فتية فى شخصيته. وبدون أى شك كان يتمتع بقوة القيادة’’.

‘‘آه، نعم. القيادة، هذا ما نحتاج إليه’’.

‘‘يا عزيزتى، فى الحرب الأخيرة كنتم مع الحلفاء غير المناسبين؛ فإذا رتبت إنجلترا وألمانيا صفوفهما جنبًا إلى جنب وكانت لديهما نفس الأفكار المثالية الخاصة بالشباب والقوة لأصبحتا أمتين آريتين لديهما الأفكار المثالية الصحيحة. فكرى فيما كانت ستصل إليه دولتك ودولتى اليوم؟ وربما تكون وجهة نظرى ضيقة. وقد تعلمنا دروسًا من الاشتراكيين والآخرين. وهل تنسين العاملين على وحدة العالم؟ لكن هذا الأمر كفيل بإضعاف تفكير الفرد وحصره فى نطاق ضيق. فالعمال وليس غيرهم هم مادتنا الخام. فهم ‘‘قادة وحدة العالم!’’، مجموعة شباب لديهم موهبة القيادة ودماؤهم نقية. ويجب ألا نبدأ برجال فى منتصف العمر شقوا طريقهم بالفعل ويكررون من أنفسهم مثل مسجل الجراموفون الذى يحتاج إلى إصلاح، بل يجب علينا السعى بين جموع الطلاب، شباب قلوبهم شجاعة ولديهم

مثاليات عظيمة، يرغبون فى التقدم العسكرى ويرغبون أن يُقتَلوا وأن يَقتَلوا أيضًا. يرغبون فى القتل بدون أى تأنيب ضمير ـــ بدون عدوانية، بدون عنف، بدون هجوم ـــ لا يمكن أن يتحقق النصر بكل تأكيد. يجب أن أريك شيئًا ما ـــ''.

وببعض الجهد نجحت فى الوقوف على قدميها. وتبعتها الليدى ماتيلدا وهى تسندها فى محاولة تقليل معاناتها التى لم تكن مثل معاناة ماتيلدا.

قالت شارلوت: ''حدث ذلك فى مايو 1940 عندما بدأ شباب هتلر فى مرحلتهم الثانية. عندما حصل هملر على ميثاق من هتلر. الميثاق الشهير لحرس الصفوة (حرس هتلر الشخصى). وتم تشكيل هذه الصفوة للقضاء على الأشخاص الشرقيين، العبيد، العبيد المتوقعين لهذا العالم. وهذا الأمر كان سيتيح مجالاً للعرق الألمانى السائد. وبذلك جاءت أداة الصفوة التنفيذية إلى الوجود''. كانت تتكلم وقد تهدج صوتها قليلاً وحمل فى بعض الفترات نبرة الورع الدينى.

قالت شارلوت الضخمة ''نظام رأس الموت''.

وسارت ببطء وألم فى الحجرة، وأشارت إلى المكان المعلق عليه لوحة ذات إطار ذهبى وعلى رأس هذا الإطار جمجمة بشرية، لوحة رأس الموت.

''شاهدى، إنها أكثر مقتنياتى التى تحظى باهتمامى. وهى معلقة هنا على الحائط الخاص بى. وعندما تأتى فرقة شبابى الذهبية إلى هنا يقومون بتحيتها. وفى أرشيفاتنا بالقلعة توجد سجلات خاصة بيومياتها. وبعض هذه الأوراق والمخطوطات لا يقرؤها إلا أصحاب المعدة القوية لكى لا يتقيأوا من هول ما فيها، لكن على الفرد أن يعرف هذه الأشياء. الموت فى غرف الغاز، وزنزانات التعذيب، ومحاكمات نورمبرج تتحدث بشراسة عن كل هذه الأشياء. لكنه كان تراثًا عظيمًا. القوة عبر الألم. وقد تم تدريب الأولاد منذ صغرهم لكى لا يضطربوا أو يرتدوا على أعقابهم أو يعانوا من أى نوع من أنواع الرقة؛ فحتى لينين وهو يبشر بمبدئه الماركسى أعلنها صريحة ''لا رقة بعد اليوم!''. وكان ذلك من أول مبادئه لتأسيس دولة سليمة. لكننا كنا قريبين جدًّا. ورغبنا فى أن يقتصر حلمنا العظيم على العرق الألمانى السائد فقط، لكن هناك أعراقًا أخرى. ويمكنهم أيضًا تحقيق السيادة من خلال المعاناة والعنف وعبر ممارسة الفوضى المحسوبة. ويجب علينا القضاء على جميع المؤسسات الرقيقة، والقضاء على جميع أشكال التدين المخزية. فهناك فكر القوة وهو الفكر القديم لشعب الفايكنج. ولدينا قائد، رغم أنه شاب، إلا أنه يكتسب القوة كل يوم. ما الذى قاله هذا الرجل العظيم؟ أعطونى الأدوات وسأقوم بالمهمة، أو شىء مثل ذلك. وقائدنا لديه الأدوات بالفعل. وستكون لديه أدوات أكثر. فستكون لديه الطائرات، والقنابل، ووسائل الحرب الكيماوية. وسيكون لديه رجال ليقاتلوا. وسيكون لديه وسائل النقل. وسيكون لديه السفن والبترول. سيكون لديه ما قد يسميه المرء إخراج علاء الدين للجنى. تفرك المصباح ويخرج الجنى. الأمر كله بين يديك. وسائل الإنتاج، وسائل الثروة وقائدنا الشاب، قائد بمولده وكذلك بشخصيته، لديه كل ذلك''.

وتنفست بجهد محدثة صوتًا كالصفير وسعلت.

''دعينى أساعدك''.

ساعدتها الليدى ماتيلدا على العودة إلى مقعدها. ولهثت شارلوت قليلاً عند جلوسها.

‘‘من المحزن أن يكون المرء عجوزًا، لكنى سأبقى لفترة طويلة، فترة طويلة تكفى لأن أرى انتصار العالم الجديد، الخلق الجديد. وهذا ما تريدينه لابن أخيك. وسأرى ذلك بعينى. وسأعطيه السلطة فى دولته، أليس هذا ما يريده؟ هل ستكونين مستعدة لتشجيع صليل السيوف هناك؟’’.

قالت الليدى ماتيلدا وهى تهز رأسها بحزن: ‘‘كان لدىَّ نفوذ فى السابق، لكن كل شىء ذهب الآن’’.

قالت لها صديقتها: ‘‘سيأتى مرة ثانية يا عزيزتى. كنت على صواب بقدومك إلىّ. فلدىَّ نفوذ خاص’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘انها قضية عظيمة’’، ثم تنهدت مغمغمة: ‘‘سيجفريد الشاب’’.

4

قالت آمى وهما عائدتان إلى فندق جاثوس: ‘‘آمل أن تكونى قد استمتعتِ بمقابلة صديقتك القديمة’’.

قالت الليدى ماتيلدا كليكهيتون: ‘‘إن كنت سمعتِ كل الهراء الذى قلته فما كنتِ ستصدقينه’’.

الفصل السادس عشر

بيكواى يتحدث

قال الكولونيل بيكواى وهو ينظف سحابة من رماد السجائر عن معطفه: ‘‘الأخبار القادمة من فرنسا سيئة للغاية، سمعت وينستون تشرشل يقول ذلك فى الحرب الأخيرة. كان هناك رجل يمكنه التحدث بكلمات صريحة وليست هناك حاجة لما هو أكثر من ذلك. كان الأمر مؤثرًا للغاية، فهو يخبرنا بما يحتاج المرء لمعرفته. حسنا، مر وقت طويل منذ تلك الفترة، لكن أنا أكررها ثانية اليوم. الأخبار القادمة من فرنسا سيئة للغاية’’.

وسعل، وتنفس بجهد محدثًا صوتًا كالصفير ونفض المزيد من رماد السجائر عن ملابسه.

وقال: ‘‘الأخبار القادمة من إيطاليا سيئة للغاية. وأعتقد أن الأخبار القادمة من روسيا ستكون سيئة للغاية إذا تركوا الأمور تزداد سوءًا عن ذلك. فلديهم مشكلة هناك أيضًا. فهناك فرق عسكرية من الطلاب فى الشوارع، وتم تحطيم شبابيك المتاجر وتمت مهاجمة السفارات. والأخبار القادمة من مصر سيئة للغاية، وكذلك الأخبار القادمة من القدس وتلك القادمة من سوريا. إلا أن هذه الأمور كلها طبيعية، لذلك لا ينبغى أن نفرط فى القلق بشأنها. ويمكننى تسمية الأخبار القادمة من الأرجنتين بالغريبة، غريبة للغاية بالتأكيد. الأرجنتين، والبرازيل، وكوبا أصبحوا معًا فى نفس السلة. ويسمون أنفسهم دول الشباب الذهبى المتحدة أو شيئًا مثل هذا الاسم. وأصبح لديهم جيش أيضًا مدرب جيدًا، ومسلح جيدًا، ولديه قيادة جيدة. ولديهم طائرات وقنابل وأشياء لا يعلمها إلا الله. وذلك ما يزيد الأمور سوءًا. ومن الواضح وجود جموع غنائية؛ أغانى بوب، وأغان شعبية، وترانيم حربية قديمة. ويتقدمون بنفس الطريقة التى كان يتقدم بها جيش الخلاص ـــ إلا أن نواياهم ليس لها علاقة بالدين ـــ أنا لا أنتقد جيش الخلاص. فهم يقومون بعمل مرح دائمًا. والفتيات جميلات كالثقوب الموجودة فى قبعاتهم’’.

واستمر مكملاً حديثه:

‘‘وقد سمعت عن شىء يحدث فى نفس السياق بالدول المتحضرة، بدءًا بنا. وأنا أتساءل إن كان بالإمكان القول إن أحدنا ما زال متحضرًا؟ وأنا أتذكر أن أحد سياسيينا قال إننا كنا أمة رائعة ويرجع ذلك بشكل رئيسى لأننا كنا متساهلين فلدينا مظاهرات ووقفات احتجاجية ونحطم الأشياء ونضرب أى شخص. فإذا لم يكن هناك شىء أفضل لنفعله، نتخلص من معنوياتنا العالية بإظهار العنف، ونتخلص من نقائنا الروحى والأدبى بخلع أغلب ملابسنا. لا أعلم ما الفكرة التى نتحدث عنها ـــ السياسيون فقط يعرفون ـــ لكن يمكنهم جعل الأمور تبدو جيدة. وهذا السبب الذى جعلهم سياسيين’’.

وتوقف ناظرًا إلى الرجال الذين يتحدث إليهم.

وقال السير جورج باكهام: ‘‘أمر مؤلم ـــ مؤلم على نحو حزين. يمكننى تصديق ذلك بصعوبة ـــ أنا أقلق من مجرد إمكانية التصديق’’، ثم سأله بحزن: ‘‘هل هذه هى كل الأخبار التى لديك؟’’.

‘‘ألا يكفى هذا؟ أنت شخص يصعب إرضاؤك. الفوضى العالمية تسير فى طريقها ـــ هذا ما لدينا. لاتزال تتعثر فى خطواتها ـــ لم يتم الانتهاء من بنائها بشكل كامل لكن ذلك أصبح قريبًا للغاية ـ قريبًا للغاية بالفعل’’.

‘‘لكن هل من الممكن اتخاذ إجراء ضد كل هذا؟’’.

‘‘الأمر ليس بالسهولة التى تعتقدها. فالغاز المسيل للدموع يوقف الشغب لفترة ويعطى الشرطة فترة راحة. وبالطبع لدينا كمية وفيرة من الأسلحة الجرثومية والقنابل النووية وباقى الخدع والحيل الأخرى ـــ ما الذى تعتقد حدوثه إن بدأنا فى استعمال هذه الأشياء؟ مذابح كبيرة لجميع البنات والأولاد المتظاهرين، ولربات البيوت المتسوقات، وكبار السن المتقاعدين فى منازلهم، وكذلك نسبة جيدة من سياسيينا الطنانين، إذ يخبروننا بأننا لم نتعامل مع الأمر بشكل جيد مطلقًا، وبالإضافة إلينا أنا وأنت ـــ ها، ها’’.

ثم أضاف الكولونيل بيكواى: ‘‘على أية حال، إذا كنت تبحث عن الأخبار، أنا أفهم أنك حصلت على بعض الأخبار الساخنة من تابعك الذى يصل اليوم فى سرية بالغة قادمًا من ألمانيا، الهر هنريش سبيس بنفسه’’.

‘‘بحق الله، كيف سمعت عن ذلك؟ يفترض أن يكون ذلك ـــ’’.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘نحن نعلم كل شىء هنا؟’’. واستعمل عبارته المعتادة ـــ هذا سبب وجودنا هنا.

ثم أضاف قائلاً: ‘‘وأتفهم أيضًا أنك أحضرت طبيبا هادئًا ـــ’’.

‘‘نعم، د. ريتشارد، هو عالم بارز وأفترض ـــ’’.

‘‘لا، إنه طبيب بشرى ـــ فى مصحة للأمراض النفسية والعصبية ـ’’

‘‘أوه يا عزيزى ـــ أتقصد طبيبًا نفسيًّا؟’’.

‘‘محتمل. فمعظم الأشخاص الذين يشغلون المصحات العقلية هكذا؛ فبطريقة ما، استطعنا إحضاره إلى هنا وبذلك سيقوم بفحص رؤوس بعض مثيرى المتاعب الشباب. وستجدهم يعتنقون فلسفة ألمانية، وفلسفة القوة السوداء، وفلسفة الكتاب الفرنسيين الراحلين وهكذا. وربما سيتركونه يفحص بعض رؤوس المشرعين المستهترين الذين يترأسون ساحاتنا القضائية قائلين إن علينا أن نكون حذرين للغاية وعدم فعل أى شىء لتدمير الأنا الخاصة بالشباب لأنه ربما يكون عليه كسب عيشه والحياة حياة طبيعية. وسنكون أكثر أمانا إذا أرسلوهم ليحصلوا على الكثير من المساعدة والإعانة القومية ليعيشوا عليها وبعد ذلك يمكنهم العودة إلى منازلهم لا ليعملوا ولكن ليستمتعوا بقراءة الفلسفة. ومع ذلك فأنا عتيق الطراز. وأنا أعلم ذلك. ولست فى حاجة إلى إخبارى بذلك’’.

قال السير جورج باكهام: ‘‘على المرء أن يأخذ فى الاعتبار أنظمة التفكير الجديدة؛ فالمرء يشعر، أقصد يأمل ـــ حسنًا من الصعب قول ـــ’’.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘من المؤكد أن ما تجد قوله أمرًا صعبًا، يسبب لك الكثير من القلق’’.

ورن جرس هاتفه. فصمت وسلمه إلى السير جورج.

قال السير جورج: ‘‘نعم؟ نعم؟ أوه نعم. أوافق. أعتقد ـــ لا ـــ لا ـــ ليست وزارة الداخلية. لا. تقصد بشكل خاص. حسنًا، أعتقد أنه من الافضل استعمال ـــ إممم ـــ’’، نظر السير جورج حوله بحذر.

قال الكولونيل بيكواى فى مرح: ‘‘لا يوجد هنا أجهزة تنصت’’.

قال السير جورج باكهام بصوت مهموس مرتفع مبحوح: ‘‘كلمة السر هى الدانوب الأزرق. نعم، نعم. سأحضر معى بيكواى. أوه، نعم بالتأكيد. نعم، نعم. تحدث معه، نعم أخبره بأنك تريده أن يحضر هو تحديدًا، لكن تذكر أن اجتماعنا سيكون خاصًّا جدًّا’’.

قال بيكواى: ‘‘لا يمكننا الذهاب بسيارتى، فهى معروفة جدًّا’’.

‘‘وسيأتى هنرى هورشام ليقلنا بسيارته الفولكس فاجن’’.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘حسنًا، الأمر ممتع. أنت تعلم كل هذه الأمور’’.

قال السير جورج: ‘‘ألا تعتقد ـ’’ ثم بدا عليه التردد.

‘‘لا أعتقد ماذا؟’’.

‘‘أعنى بالفعل ـــ حسنًا، أنا ـــ أقصد، إن لم تكن تمانع فإننى أقترح أن تستعمل ممسحة للملابس؟’’.

‘‘أوه، هذه’’. وضرب الكولونيل بيكواى برفق على كتفه وتطايرت سحابة من رماد السجائر وجعلت السير جورج يختنق.

صاح الكولونيل بيكواى وضغط على جرس كهربائى مثبت فى مكتبه قائلاً: ‘‘نانى’’.

ودخلت امرأة فى منتصف العمر ومعها ممسحة ملابس، ظهرت بسرعة ِجنِّىّ تم استحضاره بمصباح علاء الدين.

وقالت: ‘‘سير جورج، من فضلك احبس أنفاسك. قد يكون الأمر مؤلمًا قليلاً’’.

وتركت له الباب مفتوحًا وتراجع إلى خارج الغرفة خلال مسحها لملابس الكولونيل بيكواى، الذى سعل وقال مشتكيًا:

‘‘يالهم من أشخاص مزعجين. يريدونك دائمًا أن تكون مهندمًا كتمثال عرض قصات الشعر عند الحلاق’’.

‘‘لا ينبغى أن أصفك بهذه الطريقة يا كولونيل بيكواى، ولكن عليك أن تكون معتادًا على تنظيفى لك هذه الأيام. وأنت تعلم أن وزير الداخلية يعانى من الربو’’.

‘‘حسنًا، هذا خطؤه. لا يقوم بالإجراءات اللازمة لإزالة التلوث من شوارع لندن’’.

‘‘هيّا بنا، سير جورج، لنسمع ما أتى صديقنا الألمانى ليقوله. يبدو لى أن هذا الأمر عاجل إلى حد ما’’.

الفصل السابع عشر

الهر هنريش سبيس

كان الهر هنريش سبيس رجلا قلقًا، ولم يكن راغبًا فى إخفاء هذه الحقيقة. واعترف، بالفعل، بدون مواراة بأن الموقف الذى اجتمع من أجله هؤلاء الرجال الخمسة ليتناقشوا فيه موقف خطير للغاية. وفى نفس الوقت، جلب معه هذا حس الطمأنينة الذى كان مصدر قوته الرئيسى فى التعامل مع الصعوبات التى طرأت مؤخرًا على الحياة السياسية فى ألمانيا. كان رجلا صلبًا، رجلا مفكرا، رجلا يمكنه تحكيم المنطق السليم فى أية اجتماعات يحضرها. ولم يبدو عليه أنه رجل عبقرى، وهذا فى ذاته كان أمرا مطمئنًا. فقد كان الساسة اللامعون مسئولين عن ثلثى المشكلات الداخلية التى يعانيها العديد من الدول. والثلث الباقى من المشكلات يتسبب فيه هؤلاء السياسيون غير القادرين على اخفاء حقيقة أنهم جاءوا إلى الحكم فى إطار حكومات ديمقراطية، إلا أنهم لا يزالون عاجزين عن إخفاء عدم قدرتهم على إصدار الأحكام والتفكير الصائب ـــ وفى الواقع ـــ وأى قدرات عقلية ملحوظة.

قال المستشار: ‘‘أن هذه ليست زيارة رسمية بأية حال من الأحوال، كما تعلمون’’.

‘‘أوه، تمامًا، تمامًا’’.

‘‘وصلتنى معلومات أرى أنه من الضرورى أن أشاركك إياها. وهى تلقى الضوء على الأحداث الأخيرة التى حيرتنا وأحزنتنا. هذا هو د. رايتشارد’’.

تم تقديم الطرفين. كان الدكتور ريتشارد رجلاً ضخمًا ومريح المظهر لديه لازمة قول ‘‘أوه، حسنًا’’ من وقت لآخر.

‘‘د. ريتشارد مسئول عن مؤسسة كبيرة بجوار كارلسروه. وهو يعالج هناك مرضى نفسيين وعقليين. أعتقد أننى على صواب عندما أقول إنك تعالج هناك ما يتراوح بين خمسمائة وستمائة مريض، أليس كذلك؟’’.

قال الدكتور ريتشاردت: ’’ أوه، حسنًا’’.

‘‘هل لديك أشكال مختلفة من الأمراض العقلية؟’’.

’’ أوه، حسنًا. لدى أشكال مختلفة من الأمراض العقلية، لكن رغم ذلك فلدى، اهتمام خاص وأعالج نوعًا واحدًا بشكل خاص من المشاكل العقلية’’. وتحول للحديث بالألمانية وقدم الهر سبيس ترجمة مختصرة تحسبًا لعدم فهم زملائه الإنجليز لمما يقوله الدكتور. وكان ذلك أمرا ضروريًّا وينطوى على اللباقة. وقد فهم اثنان من الحضور الحديث، ولم يفهم أحد الجالسين أى شىء، وكان الاثنان الآخران متحيرين بالفعل.

شرح لهم الهر سبيس: "لقد حقق د. ريتشارد أعظم النجاحات فى علاجه لما أصفه، كشخص عادى، بجنون العظمة ــ اعتقادك أنك شخص أكبر مما أنت عليه ــ وأفكار عن كونك أكثر أهمية مما أنت عليه. أفكار تراودك إن كان لديك جنون الاضطهاد ــــ".

قال د.رايتشارد: "أوه! حسنًا! لا يوجد أى من حالات جنون الاضطهاد فى عيادتى. ليس وسط المجموعة التى أهتم بها بشكل خاص. بل على النقيض، فهم يتوهمون أنهم يفعلون ذلك لأنهم يرغبون فى أن يكونوا سعداء. وهم سعداء، وأنا أستطيع أن أبقيهم سعداء. أتعلمون، إذا عالجتهم فلن يكونوا سعداء. لذلك علىَّ العثور على دواء يعيد إليهم سلامة العقل، وسيكونون سعداء بنفس القدر. ونسمى ذلك بحالة عقلية خاصة ــــ".

ونطق كلمة ألمانية طويلة وشديدة الوقع تتكون من ثمانية مقاطع على الأقل.

وواصل الهر سبيس مسرعًا فى حديثه قائلاً: "ومراعاة لأصدقائنا الإنجليز سأظل أستعمل مصطلح جنون العظمة، رغم أننى أعلم، أنه ليس المصطلح الذى تستعمله فى هذه الأيام، د. رايتشارد. إذن، فكما قلت من قبل لديك أيها الطبيب ستمائة مريض فى عيادتك".

"وفى وقت واحد ــ الوقت الذى أوشك على الإشارة إليه ــ كان لدىَّ ثمانمائة مريض".

"ثمانمائة!".

"كان الأمر شيقًا ــ كان من أكثر الأمور تشويقًا".

"معك مثل هؤلاء الأشخاص، ــ لتبدأ من البداية ـ".

شرح د. رايتشارد: "معنا الله القادر، هل تفهم ذلك؟".

بدا على السيد لازنبى القليل من الذهول.

"أوه ــ إر ــ نعم ــ إر ــ نعم. أمر شيق للغاية، أنا واثق من ذلك".

"بالطبع، هناك شاب أو اثنان يريان أنهما مثل كبار الفلاسفة، إلا أن هذا الأمر ليس على نفس قدر انتشار الاعتقاد بالمرض بأنهم من كبار الكتاب. وهناك آخرون كهؤلاء. وفى إحدى المرات، كان لدىَّ 24 حالة تعتقد أنها أدولف هتلر. ويجب أن تفهموا أن ذلك كان فى الفترة التى كان فيها هتلر على قيد الحياة. نعم، أربعة وعشرون أو خمسة وعشرون أدولف

هتلر ــ"، واستعان بمذكرة صغيرة أخرجها من جيبه: "لقد وضعت هنا بعض الملاحظات، نعم. خمسة عشر شخصًا تقمصوا شخصية نابليون. شخصية نابليون شائعة فى العادة، وعشرة تقمصوا شخصية موسيلينى، وخمسة تقمصوا شخصية يوليوس قيصر، وحالات أخرى عديدة لافتة للنظر ومثيرة للغاية. لكننى لن أضجركم بهذا الآن. ولأنكم لستم مؤهلين بالمعنى الطبى فلن يكون بالأمر أى تشويق لكم. وسنتطرق إلى الحادثة التى تهمنا".

وتحدث د. ريتشارد لكن لفترة أقصر من السابقة، واستمر الهر سبيس فى الترجمة.

‘‘فى أحد الأيام أتى إلىَّ موظف حكومى كان موضع تقدير كبير فى ذلك الوقت ـــ أذكركم أن ذلك كان خلال فترة الحرب ـــ من قبل الحكومة الحاكمة. وسأسميه الآن مارتن ب. وستعرفون من أقصد. وحضر معه رئيسه. فى الواقع لقد حضر ومعه ـــ حسنا لن نركز كثيرا على هذا الموضوع ـــ لقد أحضر معه الفوهرر (القائد) نفسه’’.

قال د. ريتشارد: ‘‘أوه، حسنًا’’.

واستمر الطبيب: ‘‘كان ذلك شرفًا عظيمًا. كما تعلمون. فقد أتى لأعالجه. كان كريمًا هذا الفوهرر العزيز. وأخبرنى أنه قد سمع تقارير عديدة عن نجاحاتى. وقد أخبرنى أيضًا بوجود مشكلة مؤخرا. فهناك حالات من الجيش، فأكثر من مرة كان هناك رجال يعتقدون أنهم نابليون، وفى بعض الأحيان يعتقدون أنهم بعض من قادة نابليون، ويتصرفون على هذا الأساس؛ فيصدرون أوامر عسكرية وبذلك يتسببون فى متاعب عسكرية. وكنت سأكون سعيدًا جدًا إذا كنت قد قدمت له أى معلومات متخصصة قد تكون مفيدة له، لكن مارتن ب. الذى كان يرافقه قال إن ذلك لن يكون ضروريًا. ومع ذلك، لم يكن قائدنا العظيم ـــ قالها الدكتور ريتشارد وهو ينظر إلى الهر سبيس نظرة متوترة مرتبكة ـــ يريد أن نزعجه بهذه التفاصيل. وقال إن الوضع سيكون أفضل إذا أتى بعض الرجال المؤهلين طبيًا من أصحاب الخبرة الكافية مثل أطباء الأمراض العصبية وقدموا نصائحهم وتوجيهاتهم. فما أراده هو ـــ أوه، حسنًا، أراد رؤية النتائج، وقد وجدت سريعًا ما يهمه رؤيته. وهذا الأمر لم يفاجئنى. أوه لا، فكما تعلمون كان هذا أحد الأعراض التى أتعرف عليها بسهولة. فالتوتر الذى يتعرض له فى حياته بدأ يعلن عن نفسه ويؤكد أن الفوهرر من بين المرضى’’.

قال الكولونيل بيكواى بشكل مفاجئ، مطلقًا ضحكة خافتة: ‘‘فى ذلك الوقت، أعتقد أنه كان يفكر أنه قائد العالم كله’’.

بدا على د. ريتشارد الصدمة.

‘‘وطلب منى أن أخبره بأشياء محددة. وقال أن مارتين. ب قد أخبره أن لدىَّ عددًا كبيرًا من المرضى يعتقدون، لا أفضل ذكر هذا الأمر بالتفصيل ـــ أنهم أدولف هتلر نفسه. وشرحت له أن الأمر عادى وطبيعى إذا وضعنا فى الحسبان الولاء المطلق الذى كانوا يدينون به لهتلر. كان من الطبيعى جدًا أن تكون أعظم أمانيهم هى أن يصبحوا مثله باعتبار أنفسهم شيئًا واحدًا معه. وكنت قلقًا إلى حد ما عندما ذكرت له هذا، لكننى سررت كثيرًا عندما وجدت على وجهه علامات الرضا الشديد. وتعامل مع الأمر على أنه مجاملة منى. ثم سألنى بعد ذلك إن كان بإمكانه مقابلة عينة تمثل هذه المرضى المصابين بهذا المرض الخاص. وأخذنا بعض الاستشارات. وكان مارتن. ب مترددا بشأن هذا الأمر لكنه أخذنى جانبا وأكد لى أن الهر هتلر يرغب بالفعل فى أن يمر بهذه التجربة. وما كان مارتن. ب قلقًا بشأنه بالفعل هو أن الهر هتلر لم يقابل ـــ حسنا، باختصار، لم يكن من المسموح أن

يتعرض الهر هتلر لأى مخاطر. فإذا كان أى هتلر مزعوم من هؤلاء الذين يعتقدون أنهم كذلك عنيفًا أو خطيرًا ... فقد أكدت له عدم وجود داع للقلق. وأقترحت عليه أن أجمع مجموعة من أكثر المتوحدين مع قائدنا لطفًا ونعدهم لمقابلته. وأصر ب على أن القائد كان متشوقًا جدًا ليتحاور معهم ويختلط بهم بدون أن يكون برفقته أحد. وقال إن المرضى لن يتصرفوا بشكل طبيعى إذا رأوا رئيس المؤسسة هنا، وإذا لم يكن هناك أى خطر .. وأكدت له مرة أخرى عدم وجود أى خطر. ومع ذلك، فقد قلت إننى سأكون سعيدا إن كان بمقدور الهر مارتن. ب التواجد معه. ولم تكن هناك أى صعوبات، وتم ترتيب الأمر. وأرسلنا رسائل إلى المرضى بالتجمع فى غرفة للقاء زائر مميز للغاية كان متشوقا ليقارن بعض النقاط بينه وبينهم.

"أوه، حسنًا. تم تقديم مارتن ب والفوهرر للحشد. وتراجعت مغلقا وتحدثت مع اثنين من قادة الدفاع الجوى كانا يصحبانه. قلت أن الفوهور يبدو فى حالة قلقة شديدة. ومما لا شك فيه أنه كان يعانى من مشكلات فى تلك الفترة. ويمكننى قول إن هذا الموقف كان قريبا جدًّا نهاية الحرب عندما بدأت الأمور تسير بشكل سيئ. وقد أخبرونى أن الفوهرر نفسه كان محبطًا بسبب التطورات الأخيرة لكنه كان مقتنعا بأن بإمكانه وضع نهاية ناجحة للحرب إذا تم قبول الأفكار التى يقدمها باستمرار إلى القادة الحربيين، وتنفيذها بدون إبطاء".

قال السير جورج باكهام: "أعتقد أن الفوهرر فى ذلك الوقت، أقصد، كان بلا شك فى حالة...".

قال الهر سيبس: "لا حاجة بنا لمناقشة تلك النقاط بالتفصيل".

"كان فى حالة غير طبيعية تمامًا. وكان ينبغى سحب جميع السلطات منه فى الكثير من المجالات. ولكنكم تعرفون ما يكفى من خلال الأبحاث التى قمتم بها فى بلدى".

"هذا يذكر المرء بمحاكمات نورمبرج -".

قال السيد لازنبى بشكل قاطع: "ليست هناك حاجة للإشارة إلى محاكمات نورمبرج، فكل هذه الأشياء تركناها وراءنا. ونحن نتطلع إلى مستقبل رائع فى السوق المشتركة وذلك بمساعدة حكومتكم، وحكومة المسيو جورسيين وزملائكم الأوروبيين. دعونا ننس الماضى؛ فقد ولى الماضى وانتهى".

قال الهر سبيس: "تمامًا، والأشياء التى نتحدث عنها أصبحت من الماضى. بقى مارتن ب والهر هتلر فى حجرة الاجتماعات لفترة قصيرة؛ فقد خرجا منها بعد سبع دقائق. وعبر الهر ب. عن رضاه الشديد للدكتور ريتشارد بهذه التجربة. وكانت سيارتهما بانتظارهما ويجب أن يغادر هو والهر هتلر مباشرة بسبب ارتباطهما بميعاد آخر. وغادرا مسرعين".

ثم ساد صمت بين الرجال الخمسة.

سأل الكولونيل بيكواى: "وماذا بعد؟ هل حدث شىء ما؟ أو كان قد حدث بالفعل؟".

قال د. ريتشارد: ‘‘كان سلوك أحد مرضى هتلر غير معتاد، كان رجلا يتمتع بشبه كبير بينه وبين الهر هتلر وذلك ما أعطاه ثقة كبيرة بخصوص وجهه؛ فقد ازداد الآن إصراره على أنه الفوهرر ويجب أن يذهب مباشرة إلى برلين لأن عليه أن يترأس اجتماعا للجنة القادة. فى الواقع، لقد تصرف هذا المريض فى تناقض مع إشارات التحسن التى كان قد أبداها فى السابق. بدا مختلفا تماما لدرجة أننى لم أكن قادرا على فهم سبب حدوث هذا التغير بهذا النحو المفاجئ. ثم شعرت بالراحة بعد ذلك عندما اتصل بى أقاربه ليأخذوه إلى منزله ليحصل على عناية خاصة هناك’’.

قال الهر سبيس: ‘‘هل تركته يذهب’’.

‘‘تركته يذهب بشكل طبيعى؛ فقد كان معهم طبيب مسئول ـــ كان طبيبا متطوعا وليس محترفًا ـــ وبذلك أصبح المريض من حقه. لذلك غادر المستشفى’’.

علَّق السير جورج باكهام ‘‘أنا لا أرى ـــــ’’

‘‘هناك نظرية عند الهر سبيس ـــــ’’

قال سبيس: ‘‘فى الواقع إن ما أخبركم به ليس نظرية. فقد حجبها الروس وكذلك نحن. فقد ظهرت لنا العديد من الأدلة والبراهين. فقد ظل هتلر، قائدنا، فى المستشفى باختياره فى هذا اليوم وغادر رجل شديد الشبه بهتلر الحقيقى مع مارتن ب. ثم وجدنا جثة المريض فى غرفة محصنة تحت الأرض. لن أتوغل كثيرًا، فليست هناك حاجة إلى البحث فى التفاصيل غير الضرورية’’.

قال لازنبى: ‘‘علينا جميعًا معرفة الحقيقة’’.

‘‘تم تهريب الفوهرر الحقيقى عبر طريق سرى تحت الأرض معد مسبقًا لهذا الغرض وسافر إلى الأرجنتين وعاش هناك لعدة سنوات. ولديه ابن هناك من فتاة آرية جميلة تنتمى إلى عائلة حسنة السمعة. يقول البعض إنها فتاة إنجليزية. ثم ساءت حالة هتلر العقلية ومات مصابا بالجنون متخيلا نفسه يقود جيوشه فى الميدان. كانت تلك هى الخطة الوحيدة الممكنة التى كان سيتمكن بها من الهرب إلى خارج ألمانيا. وقد وافق عليها’’.

‘‘وهل تقصد عدم تسرب أى شىء عن هذا الأمر طيلة هذه السنين، ولم يعرف أى شخص بذلك؟’’.

‘‘كانت هناك شائعات، ودائمًا ما توجد الشائعات إن كنت تذكر، يقال إن واحدة من بنات قيصر روسيا قد استطاعت الهروب من المذبحة العامة التى تعرضت لها عائلتها’’.

‘‘لكن كان ذلك ـ’’، توقف جورج باكهام ثم أكمل حديثه: ‘‘خاطئا ـــ خاطئا تماما’’.

‘‘تم إثبات خطأ ذلك من قبل مجموعة واحدة من الأشخاص. وقبلت بها مجموعة أخرى من الأشخاص، وكان كل من المجموعتين يعرفها. فانا سيست التى تم قتلها هى أناسيستا بالطبع، أو أن أناسيستا التى تم قتلها ـــ الدوقة الكبرى لروسيا ـــ كانت مجرد فتاة مزارعة. هل يمكن أن يخبرنى أحدكم أى القصتين هى الحقيقية؟

الأمر مجرد شائعات! فكلما سرت هذه الشائعات لمدة أطول قل عدد الأشخاص المؤمنين بها إلا أصحاب العقول الرومانسية والخيالية الذين يستمرون فى تصديقها. وعادة ما يشاع أن هتلر ما زال على قيد الحياة ولم يمت. ولم يظهر أحد ليؤكد أنهم فحصوا جثته وشرحوها. فقد أعلن الروس ذلك ومع ذلك لم يظهروا أية أدلة على قولهم".

"هل تقصد ـــ د. ريتشارد ـــ أنك تؤيد حقا هذه القصة الغريبة؟".

قال د.ريتشارد: "أوه، لقد سألتنى ولكنى قد أخبرتك الجزء الخاص بى فقط. كان من المؤكد أن مارتن ب هو من أتى إلى مصحتى النفسية. وكان مارتن ب هو من جلب معه الفوهرر وتحدث معه بالاختلاف فى اللهجة الذى يتحدث به الفرد مع الفوهرر. بالنسبة لى، فقد عشت بالفعل مع مئات يتقمصون شخصية الفوهرر، ونابليون، ويوليوس قيصر. يجب أن تفهم أن جميع المتقمصين لشخصية هتلر الذين يعيشون فى مصحتى النفسية يبدون مثل ـــ وربما يكون أغلبهم تقريبًا ـــ أدولف هتلر. وربما لم يؤمنوا فى داخلهم بهذا الاعتقاد مطلقًا، فهناك قوة داخلهم تخبرهم أنهم كانوا هتلر، إلا إن كان هناك تشابه فعلى فى الوجه والملابس والتقليد المستمر ولعب دور هتلر. ولم ألتق من قبل بأدولف هتلر بشكل شخصى. فأنا أرى صورًا له فى الجرائد، فأنا أستطيع أن أميز شكل قائدنا العظيم إلى حد ما، لكنى لم أكن أعرف إلا الصور التى كان يرغب فى إظهارها. لذلك فقد أتى مارتن ب وهو أفضل من نسأله فى هذا الموضوع وقال إنه كان الفوهرر. لا تساورنى شكوك فى هذا الأمر. فأنا أطيع الأوامر. فقد أراد الهر هتلر السير بمفرده فى الغرفة ليقابل صفوة من ـــ ما الذى يمكننى تسميتهم به؟ ـــ نسخه الكربونية. ودخل الحجرة، وخرج منها. ربما حدث نوع من استبدال الملابس، فملابسهم لم تكن مختلفة على أية حال. هل كان هو نفسه من خرج أم أحد المرضى الذين نصبوا أنفسهم هتلر؟ وكان يوجهه مارتن ب بسرعة وانطلقا بالسيارة فى الوقت الذى قد يكون فيه الرجل الصحيح باقيا فى الخلف واستمتع بلعب هذا الدور لأنه علم أنه بهذه الطريقة فقط يمكنه الهروب من البلاد التى قد تستسلم فى أى دقيقة. كان عقله مشوشًا بالفعل، ومضطربًا بسبب الغضب والحنق من الأوامر التى أعطاها وهى الرسائل الغريبة الرائعة التى أرسلها للمجلس؛ ما ينبغى عليهم فعله، وما ينبغى عليهم قوله، الأشياء المستحيلة التى عليهم محاولة القيام بها ولم تتم تنفيذها مباشرة. كان يمكنه أن يشعر بالفعل أنه لم يعد فى قيادته العليا. لكن لديه اثنين أو ثلاثة من المخلصين لديهم خطة ليخرجوه من هذه البلاد، من أوروبا كلها إلى مكان آخر بحيث يمكنه تسيير أتباعه النازيين من قارة أخرى، وهم الشباب الذين آمنوا به تمامًا. فسيظهر الصليب المعقوف هناك مرة أخرى. فقد لعب دوره واستمتع به بدون أى شك. نعم، سيكون ذلك ملائمًا لرجل بدأ تفكيره يتداعى. ويمكنه أن يظهر لهؤلاء المرضى أن بإمكانه لعب دور أدولف هتلر أفضل منهم. وكان يضحك من آن لآخر قائلا لنفسه: وسوف ينظر الأطباء والممرضات فى الحجرة ويجدون اختلافا طفيفًا. ربما يرون مريضًا واحدًا يبدو مضطربا عقليا. تبًّا، ليس هناك أى شىء يدعو للقلق؛ فعادة تحدث مثل هذه الأمور، مع المتوحدين مع نابليون ويوليوس قيصر وجميع المرضى. وكما يقال، فإنه فى بعض الأحيان عندما يكون الرجل عاديًّا فإنه يكون

أكثر جنونًا من المعتاد. هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكننى توضيح الموضوع بها. والآن هذا دور الهر سبيس ليتحدث".

قال وزير الداخلية: "كلام رائع!".

قال الهر سبيس بلطف: "نعم، رائع. لكن كما تعلم فمن الممكن حدوث الأشياء الرائعة، سواء كان ذلك فى التاريخ أو فى الحياة الواقعية، لا يهمنا مدى الروعة".

"ألم يشك أى شخص بالأمر أو علم به؟".

"الأمر مخطط له جيدًا. تم التخطيط له والتفكير فيه جيدا. كان طريق الهروب جاهزًا، والتفاصيل الدقيقة الخاصة بالهروب غير معروفة بوضوح، إلا أن المرء يمكنه تلخيص ذلك بصورة جيدة. بعض الأشخاص المشتركين فى الأمر، الذين هرَّبوا شخصيات محددة من مكان لآخر تحت شخصيات مختلفة، وأسماء مختلفة. وهناك بعض من هؤلاء الأشخاص يأتون إلينا ويقدمون بلاغات ونجد أنهم لن يعيشوا بقدر ما عاشوا".

"هل تقصد أنهم عرضوا عليكم إما أن يفشوا السر أو يتقاضوا مبالغ مالية؟".

"كان حرس هتلر الشخصى مسئولين عن هذا الأمر. يقدمون المكافآت والإطراء والوعود بمناصب عالية فى المستقبل، وبعد ذلك يكون الموت هو النتيجة. وكان هذا الحرس معتادًا على الموت؛ فهم يعرفون طرقه المختلفة، وطرق التخلص من الجثث ـــ أوه نعم، سأخبركم بذلك، فقد وصل إلينا بلاغ بذلك منذ فترة قصيرة. وصلت إلينا المعلومات شيئا فشيئا وقمنا بتحقيقاتنا وحصلنا على وثائق حتى ظهرت الحقيقة. لقد وصل أدولف هتلر بكل تأكيد إلى أمريكا الجنوبية. ويقال إنه أقيم حفل زواج ـــ وولد هذا الطفل. وتم وسم قدم الطفل بعلامة الصليب المعقوف. تم وسمه كطفل. وقد قابلت عملاء موثوقين أخبرونى أنهم رأوا القدم الموسومة فى أمريكا الجنوبية. حيث تمت تنشئة الطفل هناك وكذلك تمت حمايته ورعايته وتجهيزه لقدره العظيم. وبذلك ظهرت تلك الفكرة عن الشباب المتعصب، وكانت تلك الفكرة أعظم من الفكرة التى بدأوا بها. فلم يكن ذلك مجرد إحياءا للنازيين الجدد، الجنس الألمانى السامى الجديد. كانت الفكرة كذلك، لكن كان معها الكثير من الأفكار. كان هناك شباب من دول أخرى كثيرة وجنس الشباب السامى فى كل دولة أوروبية تقريبًا، وعلى كل هؤلاء الاتحاد معا والانضمام فى صف العصيان لتدمير العالم القديم، هذا العالم المادى، ليمهدوا الطريق إلى عصابة جديدة مبدؤها القتل والاغتيال والعنف. وهم يعتمدون فى البداية على الدمار وبعد ذلك على الوصول إلى السلطة. ولديهم الآن قائدهم، قائد لديه الدم المناسب فى عروقه. وهو قائد ـــ رغم أنه نشأ بدون أى تشابه بينه وبين والده المتوفى ـــ كان، لا بل وما زال شعره ذهبيًّا وناعما واسكندنافى الملامح، وربما أخذها من والدته. فتى ذهبى، فتى يمكن للعالم كله أن يقبل به. وسيقبل به الألمان والنمساويون لأنه كان البند الرئيسى فى معتقداتهم، وموسيقاهم، وهو سيجفريد الشاب. لذلك فقد نشأ بصفته سيجفريد الشاب الذى سيحكمهم جميعًا وسيقودهم إلى الأرض الموعودة. ستصبح هذه الأرض ملكهم، أرض حصلوا عليها بفضل براعتهم وشجاعتهم الفائقة. فسيتم توحيد دول أوروبا مع دول أمريكا الجنوبية. فهناك توجد أسلحتهم وثوارهم

ورسلهم وأمثال جيفارا وكاسترو ورجال عصاباتهم وأتباعهم، وقد مر كل هؤلاء بتدريب طويل وشاق على القسوة والتعذيب والعنف والموت وبعد كل ذلك سيصلون إلى الحياة الرائعة ــ الحرية! بوصفهم حكامًا على دولة العالم الجديد. إنهم الفاتحون الجدد".

قال السيد لازنبى: "سيصبح كل ذلك مجرد ثرثرة تافهة بمجرد وضع حد لكل هذا ــ وسينهار الأمر بأكمله. الأمر كله سخيف تمامًا. ما الذى يمكنهم فعله؟"، بدا أن سيدريك لازنبى حزين للغاية.

هز الهر سبيس رأسه الثقيل الحكيم.

"يمكنك أن تتساءل. وسأخبرك الإجابة، وهى: هم لا يعرفون. هم لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون. وهم لا يعرفون ما الذى سيحدث لهم".

"هل تقصد أنهم ليسوا بالقادة الحقيقيين؟".

"هم الأبطال الشباب المتقدمون، يسيرون فى طريق المد، والعنف، والألم، والكراهية. وأتباعهم الآن ليسوا من شباب أمريكا وأوروبا فقط. فقد أنتقلت هذه الطائفة إلى الشمال. وفى الولايات المتحدة، هناك شغب الشباب، فهم يتقدمون، يتبعون راية سيجفريد الشاب. لقد تعلموا أساليبه؛ فقد تعلموا القتل، والتلذذ بألم الآخرين، فقد تعلموا قواعد رأس الموت، قواعد هملر. فهم يتدربون كما تعلمون. ويتشربون هذا المبدأ فى السر، وهم لا يعلمون ما الذى يتم تدريبهم لأجله. لكنا نعلم، أو على الأقل، بعضنا يعلم. وأنتم تعلمون، أليس كذلك؟".

قال الكولونيل بيكواى: "ربما يعلم بالأمر أربعة أو خمسة أفراد منا".

"هم يعلمون فى روسيا، وفى أمريكا بدأوا يعرفون. يعرفون بوجود أتباع البطل الشاب، سيجفريد، المبنى على أساطير نرويجية. وهذا الفتى الشاب، سيجفريد، هو القائد. هذه عقيدتهم الجديدة، عقيدة الفتى المنتصر، الانتصار الذهبى للشباب. ففيه أعيدت الحياة إلى الاعتقادات الاسكندنافية القديمة".

وأكمل الهر سبيس مخفضًا صوته إلى المستوى العادى: "لكن هذا بالطبع ليس حقيقة أدبية. فهناك بعض الشخصيات القوية وراء كل ذلك. أشخاص أشرار لديهم عقول جبارة. رأسمالية من الدرجة الأولى وصناعية عظيمة، شخصيات تتحكم بالمناجم، والبترول، ومخازن اليورانيوم، ولديها علماء من الطراز الرفيع. وهؤلاء هم المقصودون ولا يبدون مثيرين للاهتمام أو غير طبيعيين، لكن رغم ذلك فلديهم السلطة والتحكم. فهم يتحكمون بمصادر الطاقة ويتحكمون بطرقهم الخاصة فى الشباب الذين يقتلون والذين يتصرفون كعبيد لأصحاب السيطرة. فبالسيطرة على المخدرات يسيطرون على العبيد. عبيد فى كل دولة يتطورون شيئًا فشيئًا من المخدرات الخفيفة إلى المخدرات الشديدة وبذلك يصبحون أتباعًا لهم قلبًا وقالبًا، ويعتمدون تمامًا على أشخاص لا يعرفونهم لكنهم يمتلكون أرواحهم وأجسادهم سرًا. حاجتهم الشديدة والمتزايدة إلى مخدر ما تجعل منهم عبيدًا، وفى الوقت المناسب يثبت هؤلاء العبيد أنهم ليسوا بخبرة العبيد، بسبب اعتمادهم على المخدرات، وسيكونون قادرين فقط على الجلوس فى لا مبالاة يحلمون أحلامًا

سعيدة وبذلك يتركونهم يموتون أو حتى يساعدوهم على الموت. فهم لن يرثوا هذه المملكة التى يؤمنون بها. وهناك معتقدات جديدة تقدم لهم بشكل متأنٍّ، فتم تقديم أباطرة العصور القديمة لهم بشكل جديد".

"وهل تلعب الإباحية الجنسية دورها؟".

"الجنس ذاته بإمكانه التدمير. فى العصور الرومانية القديمة كانوا يسيرون بأنفسهم إلى الرذيلة وكانوا لا يفكرون إلا فى الجنس ويمارسونه كثيرًا وإن كانوا ملوا وضجروا منه، وفى بعض الأحيان كان بعضهم يهرب من الجنس ويذهبون إلى الصحراء ويصبحون من الزهاد مثل سانت سيمون ستايليتس. فالجنس سيرهق نفسه وقد يفيد لبعض الوقت، لكنه لا يتحكم فيك كما تفعل المخدرات. فالمخدرات والسادية وحب السلطة والكراهية مجرد رغبة فى الألم لأجل الألم، والمتعة التى تحدث نتيجة التسبب فيه. فهم يُعلمون أنفسهم متع الشر. وطالما تحكمت متع الشر فيك، لا يمكنك التراجع".

"عزيزى المستشار ـــ حقًّا لا يمكننى تصديقك ـــ أقصد، حسنا إن كانت هناك هذه الاتجاهات فيجب أن يتم القضاء عليها باتخاذ خطوات قوية. أقصد، أن الفرد ـــ لا يمكنه الانقياد إلى هذا النوع من الأشياء. يجب على المرء اتخاذ موقف صارم ـــ موقف صارم".

قال السيد لازنبى: "إخرس يا جورج"، وأخرج الغليون الخاص به ونظر إليه ثم وضعه فى جيبه مرة أخرى قائلاً: "أعتقد أن أفضل الخطط" ـــ كانت خطته الراسخة تؤكد نفسها ـــ "هى السفر على روسيا. وأنا أفهم جيدًا أن تلك الحقائق يعلمها الروس".

قال الهر سبيس: "لديهم معلومات كافية، لكن ما مقدار ما سيعترفون بمعرفته ـ"، ثم هز كتفيه قائلاً: "من الصعب تحديد ذلك. ولم يكن من السهل أبدًا جعل الروس يفضون بما لديهم. وهم لديهم مشاكلهم الخاصة على الحدود الصينية. وربما لا يعتقدون أن الحركة وصلت إلى هذه المرحلة المتقدمة التى وصلت إليها".

"علىَّ القيام بمهمتى الخاصة، يجب أن أفعل ذلك".

"لو كنت مكانك لبقيت هنا، سيدريك".

جاء صوت اللورد أولتماونت الهادئ من المكان الذى جلس فيه مسترخيا بسأم على كرسيه وقد انطوى صوته على صيغة أمرية طفيفة: "سيدريك، نحن نحتاج إليك هنا؛ فأنت رئيس حكومتنا ـــ يجب عليك البقاء هنا. ونحن لدينا عملاؤنا ـــ مبعوثونا المؤهلون للمهمات الخارجية".

تساءل السير جورج باكهام بريبة: "عملاء؟ ما الذى يمكن للعملاء فعله فى هذا الموقف؟ يجب أن نحصل على تقرير من ـــ آه، هورشام ها أنت ـــ لم ألحظ وجودك من قبل. أخبرنا ـــ ما نوع العملاء لدينا؟ وما الذى بإمكانهم فعله؟".

قال هنرى هورشام بهدوء: "لدينا مجموعة من خبرة العملاء. عملاء يحضرون لك المعلومات المفيدة. وقد جلب لك الهر سبيس معلومات أيضا، معلومات جلبها له

عملاؤه. والمشكلة هى ـــ كالعادة ـــ (لقد اعتدت أن تقرأ عن الحرب الأخيرة) لا أحد يرغب فى تصديق الأخبار التى يجلبها العملاء".

"بالتأكيد، الاستخبارات ـ"

"لا يرغب أحد بالاقتناع بأن العملاء بارعون! لكنهم كذلك كما تعلمون. فهم مدربون تدريبًا عاليًا، وتكون تقاريرهم صادقة بنسبة 90%. وبعد كل هذا يرفض القادة تصديقها والعمل وفقًا لها".

"حقا، عزيزى هورشام ـــ لا يمكننى ـ"

تحول هورشام إلى الرجل الألمانى.

"يا سيدى، ألا يحدث ذلك حتى فى دولتك؟ تم تقديم تقارير حقيقية لكن لم يتم اتخاذ أى إجراء بشأنها. فالناس لا يريدون أن يعرفوا ـــ إذا كانت الحقيقة كريهة".

"أتفق معك ـــ يمكن أن يحدث ذلك وهو يحدث بالفعل ـــ لكنه ليس بالأمر المعتاد، وهذا ما أؤكده لك، نعم لكنه يحدث فى بعض الأوقات ـ".

وراح السيد لزرنبى يتعامل بعصبية مرة أخرى مع غليونه.

"دعونا لا نتجادل بشأن المعلومات. الأمر يتعلق بالاتفاق ـــ الاتفاق للتصرف بشأن المعلومات التى توصلنا إليها. الأمر ليس مجرد كوارث قومية ـــ بل هو كارثة دولية. ويجب اتخاذ قرارات على أعلى مستوى ـــ يجب أن نتصرف. مونرو، يجب أن يتم دعم الشرطة بوحدات من الجيش ـــ ويجب اتخاذ إجراءات عسكرية. هر سبيس، كنتم دائما أمة عسكرية عظيمة ـــ يجب إخماد المتمردين بالقوات المسلحة قبل أن يخرجوا عن السيطرة. أنا متأكد أنك ستوافق على هذه السياسة ـ".

"نعم، أوافق على هذه السياسة. لكن هذا التمرد الذى وصفته بالفعل "خارج عن السيطرة". هم لديهم الأدوات والبنادق والمدافع الرشاشة والمتفجرات والقنابل اليدوية والقنابل والقذائف والكيماويات والغازات الأخرى ـ".

"لكن بأسلحتنا النووية ـــ مجرد تهديد بالحرب النووية ـــ و ـــــ"

"إنهم ليسوا مجموعة من أولاد المدارس الساخطين. فهناك علماء ـــ علماء شباب فى الأحياء والكيمياء والفيزياء، وليس من السهل بدء أو خوض حرب نووية فى أوروبا ـ" وهز الهر سبيس رأسه قائلا: "لدينا بالفعل محاولة تسميم مصادر المياه فى كولون فى مدينة كولون ـــ التيفود".

قال سيدريك لازنبى: "الوضع بأكمله لا يصدق ـ"، ونظر إلى من حوله بنظرة أمل ـــ "شيتواينـد ـــ مونرو ـــ بلانت؟".

كان الأدميرال بلانت هو الوحيد الذى استجاب لدهشة لازنبى.

"لا أعلم متى ستدخل البحرية ـــ فهذا ليس شأننا. وأنا أنصحك يا سيدريك ـــ إذا رغبت فى أفضل شىء لك ـــ بأن تمسك بغليونك وتحضر كمية كبيرة من التبغ وتبعد عن رأسك فكرة الحرب النووية التى تريد البدء فيها. اذهب وأقم مخيما فى

القطب الجنوبى، أو فى مكان يستغرق النشاط الإشعاعى وقتًا للوصول إليه. وكما تعلم فقد حذرنا البروفيسور آيكشتاين وهو يعلم ما الذى يتحدث عنه".

الفصل الثامن عشر

ملاحظة بيكواى

وانتهى الاجتماع عند هذه النقطة. وقد دخلوا فى مرحلة جديدة واضحة.

وذهب المستشار الألمانى مع رئيس الوزراء والسير جورج باكهام وجوردون شيتواينـد والدكتور ريتشارد لتناول الغذاء فى داوينينج ستريت.

وبقى الأدميرال بلانت والكولونيل مونرو وهنرى هورشام ليتحدثوا بصورة أكثر حرية عما كانوا عليه خلال وجود الأشخاص المهمين.

كانت الملاحظات الأولى غير مترابطة إلى حد ما.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘نشكر الله أنهم أخذوا جورج باكهام معهم. فهو شخص قلق، وعصبى، ومتسائل، وشكاك ـــ إنه يحبطنى فى بعض الأوقات’’.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘كان عليك الذهاب معهم، أيها الأدميرال. فأنا لا أرى جوردون شيتواينـد أو جورج باكهام قادرين على إيقاف سيدريك من الاستمرار فى مشاورات على مستوى القمة مع الروس، والصينيين والأثيوبيين والأرجنتينيين أو أى مكان يأخذه خياله إليه’’.

قال الأدميرال بجفاف: ‘‘ما زال لدىَّ بعض الأشياء لأقوم بها، فعلىَّ الذهاب إلى الريف لأقابل صديقًا قديمًا لى’’. ونظر بفضول إلى الكولونيل بيكواى.

‘‘هل كان أمر هتلر مفاجأة لك، بيكواى؟’’.

هز الكولونيل بيكواى رأسه.

‘‘ليس بالفعل، فقد علمنا جميعا عن شائعات هروب أدولف هتلر إلى أمريكا الجنوبية وإبقاء الصليب المعقوف يرفرف لسنوات. وهذه الشائعة صحيحة بنسبة خمسين فى المائة، على الأقل بها نسبة من الصحة. ومهما كان هذا الفتى، رجلاً مجنونًا أو يمارس الدجل أو الفتى الحقيقى، فقد قاربت قصته على الانتهاء. وهناك قصص كريهة عن هذا الأمر، وأيضًا ـــ فهو لم يكن داعمًا لمؤيديه’’.

قال بلانت: ‘‘إذن فجثة من التى كانت فى الغرفة الموجودة فى القبو؟ ما زالت هذه نقطة جيدة للحديث عنها. فلم يتم تحديد الهوية بشكل واضح. والروس يعرفون ذلك’’.

ثم نهض وأومأ للآخرين واتجه ناحية الباب.

قال مونرو بتفكير عميق: ‘‘أفترض أن د. ريتشارد يعلم الحقيقة ـــ رغم أنه يتعامل بحذر’’.

قال هورشام: ‘‘وماذا عن المستشار؟’’.

أدار الأدميرال رأسه تجاههم بعيدًا عن مدخل الباب وقال فى غلظة: ‘‘رجل عقلانى. فهو يسير بدولته فى الطريق الذى يريده عندما بدأ هؤلاء الشباب فى لعبهم المرح وممارسة الحيل مع العالم المتحضر ـــ أمر يرثى له!’’. ونظر فى تفكير إلى الكولونيل مونرو.

‘‘وماذا عن الفتى العجيب ذى الشعر الذهبى؟ ابن هتلر؟ هل يعرف أحدكم أى شىء عنه؟’’.

قال الكولونيل بيكواى بشكل مفاجئ: ‘‘ليست هناك حاجة للقلق’’.

ترك الأدميرال مقبض الباب الذى كان ممسكًا به وعاد للجلوس معهم.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘ابن؟!! هذا هراء. هتلر لم يكن لديه ابن مطلقًا’’.

‘‘لا يمكنك التأكد من ذلك’’.

‘‘نحن متأكدون ـــ فرانز جوزيف، سيجفريد الشاب، القائد المبجل، مجرد شخص عادى أو مخادع أو دجال على مستوى عالٍ. فهو إبن نجار أرجنتينى وامرأة شقراء فاتنة. وهو مغن فى الأوبرا الألمانية ـــ وقد ورث مظهره وصوته من والدته. وتم اختياره بعناية لأداء هذا الدور وإعداده للنجومية. وقد كان ممثلاً محترفًا فى شبابه المبكر ـــ وتم وشم قدمه بشعار الصليب المعقوف ـــ وأُعِدَّت له قصة خيالية مفصلة. وتم التعامل معه مثل الدالاى لاما المخلص’’.

‘‘وهل لديك دليل على ذلك؟’’.

ابتسم الكولونيل بيكواى ابتسامة عريضة: ‘‘لدىَّ الوثائق كاملة؛ فقد حصلت عليها واحد من أفضل عملائى. شهادات خطية، وشهادات مصورة، وإعلانات موقعة ومنها واحدة من والدته وشهادة طبية بتاريخ الوشم، ونسخة من شهادة الميلاد الأصلية الخاصة بكارل أجويليروس ـــ ودليل موقع ومختوم لهويته باسم فرانز جوزيف. كل تلك الوثائق وقد جلبتها لى عميلتى فى الميعاد المناسب. وقد كانوا يسعون وراءها ـــ وربما أمسكوا بها إن لم يحالفها بعض الحظ فى فرانكفورت’’.

‘‘وأين توجد هذه الوثائق الآن؟’’.

‘‘فى مكان آمن. تنتظر اللحظة المناسبة لفضح الدجال المبجل هذا ـ’’.

‘‘هل تعلم الحكومة بذلك؟ ـــ هل يعلم رئيس الوزراء؟’’.

‘‘لا أخبر السياسيين مطلقًا بكل ما أعرفه ـــ إلا إذا كان أمرًا لا يمكن تجنبه أو عندما أصبح واثقًا من أنهم سيفعلون الشىء الصحيح’’.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘بيكواى، يالك من شيطان عجوز’’.

قال الكولونيل بيكواى بحزن: ‘‘لابد أن يكون هناك شخص ما كذلك’’.

الفصل التاسع عشر

زوار السير ستافورد ناى

كان السير ستافورد ناى يجالس ضيوفه. كانت هناك معرفة سابقة بجميع ضيوفه باستثناء واحد منهم فلم يكن يعرف إلا وجهه. كانوا مجموعة من الرجال حسنى المظهر، الجادين الأذكياء، أو يمكنه أن يحكم عليهم بذلك. كان شعرهم مصففا ومواكبا للموضة، وملابسهم ممتازة رغم أنها كانت قديمة الطراز. ولم يستطع السير ستافورد ناى أن ينكر أن مظهرهم قد أعجبه عندما نظر إليهم. وقد تساءل فى الوقت نفسه عما يريدونه منه. وكان أحدهم ابنا لأحد ملوك البترول، وآخر دخل فى مجال السياسة منذ تخرجه من الجامعة، ولديه عم يمتلك سلسلة مطاعم. والثالث كان رجلاً شابًا كث الحاجبين وعابس الوجه دائمًا ويبدو أن الشك الدائم إحدى سماته.

تحدث الأشقر الذى يبدو أنه قائد هؤلاء الثلاثة: ‘‘من اللطف أن تسمح لنا بالقدوم والتحدث معك، سير ستافورد’’.

كان صوته عذبًا إلى حد كبير، وكان اسمه كليفورد بينت.

‘‘هذا رودريك كيتلى وهذا جيم بروستر. وجميعنا مشغولون بالمستقبل، هل يمكننى التعبير عن الأمر بتلك الجملة؟’’.

قال السير ستافورد ناى: ‘‘أعتقد أن الإجابة على ذلك السؤال هى: ألسنا جميعا كذلك؟’’.

قال كليفورد بينت: ‘‘نحن لا تعجبنا طريقة سير الأمور. الثورة والعصيان وكل ذلك. حسنًا، لا غبار على تلك الأمور كفلسفة. فى الواقع، أعتقد أن بإمكاننا القول إننا جميعا نمر بمرحلة من العصيان، لكن المرء لا يتجاوز هذه المرحلة إلى الجانب الآخر المتمثل فى العنف. نريد من الناس أن يكونوا قادرين على الاستمرار فى دراستهم بدون أن يقاطعها شىء. نريد الكثير من المظاهرات لكن بدون همجية وعنف. نريد مظاهرات ذكية. وفى الواقع فإن ما نريده بصدق شديد ـــ أو هكذا أعتقد ـــ هو حزب سياسى جديد. وجيم بروستر يولى اهتمامًا شديدًا للأفكار والخطط الجديدة تمامًا التى تخص ظروف اتحاد التجارة. وقد تعبوا من محاولة إقناعه بالعدول عن هذا الأمر، لكنه استمر فى الحديث، أليس كذلك يا جيم؟’’.

قال جيم بروستر: ‘‘أغلبهم من الحمقى ذوى العقول المشوشة’’.

‘‘نريد سياسة حكيمة وسديدة للشباب، طريقة أكثر اقتصادية للحكومة. نريد أفكارًا جديدة للتعليم، ونحن لا نطالب بأى شىء خيالى أو مبالغ فيه. وإذا فزنا بمقاعد فى مجالس العموم وتمكنا أخيرًا من تشكيل حكومة ـــ ولا أرى سببا يمنعنا من ذلك ـــ سنضع هذه الأفكار موضع تنفيذ. وهناك العديد من المشاركين فى حركتنا. كما تعلم فنحن نساند الشباب تمامًا كما يفعل دعاة العنف هؤلاء. ولكننا نساند الاعتدال ونرغب فى أن تكون لدينا حكومة عاقلة مع تقليل عدد أعضاء

البرلمان، ونحن الآن ندون قائمة نبحث فيها عن رجال فى الحقل السياسى بغض النظر عن اتجاهاتهم إذا اعتقدنا إنهم يتسمون بالحكمة. وقد أتينا إلى هنا لنرى إن كان بمقدورنا أن نجعل أهدافنا تحظى باهتمامك التى ما زالت فى مرحلة التكوين حتى هذه اللحظة، لكننا وصلنا إلى مرحلة متقدمة فى تحديد الرجال الذين نريدهم. يمكننى القول إننا لا نريد من معنا من رجال فى الوقت الحاضر، ولا نريد الذين ربما تضعهم بدلا منهم. وفيما يتعلق بالحزب الثالث فيبدو أنه قد توقف عن العمل رغم وجود شخص أو شخصين جيدين يعانيان لأنهما فى موضع الأقلية، لكننى أعتقد أنهم سيأتون ويتجاوبون مع طريقة تفكيرنا. نحن نريد إثارة اهتمامك. فى أحد هذه الأيام ـــ ربما هذه الأيام ليست بعيدة بقدر ما تتخيل ـــ نريد شخصا يفهم ويضع سياسة خارجية ناجحة وملائمة. إن بقية أجزاء العالم فى فوضى شديدة أكثر مما نحن عليه الآن. فقد دُمرَت واشنطن وسويت بالأرض. وفى أوروبا هناك أعمال عسكرية ومظاهرات وتدمير للمطارات بشكل مستمر. أوه، حسنا، لا أرغب فى أن أكتب لك نشرة إخبارية عن الشهور الستة الماضية ولكن هدفنا ليس إعادة الأمور فى العالم إلى نصابها الطبيعى مرة أخرى بقدر ما هو إعادة الأمور فى إنجلترا إلى نصابها الصحيح مرة أخرى، وأن يكون لدينا الرجال المناسبون للقيام بذلك. نحن نريد شبابًا، العديد من الشباب العظماء غير الثوريين ولا الفوضويين، وسيكونون راغبين فى المحاولة وجعل أمور دولتنا تسير بشكل مفيد. ونرغب فى مجموعة من الرجال الأكبر منهم سنا ـــ لا أقصد رجالاً فى الستين بل فى الأربعين أو الخمسين ـــ وقد أتينا لك، لأننا ـــ حسنًا ـــ قد سمعنا أشياء عنك. ونحن نعرف أشياء عنك وأنت من نوع الرجال الذين نريدهم''.

قال السير ستافورد: ''هل تعتقد أنك حكيم؟''.

''حسنا، نحن، أعتقد أننا كذلك''.

ضحك الرجل الثالث ضحكة خفيفة.

''نأمل أن تتفق أفكارك معنا''.

''لست واثقًا من ذلك؛ فأنتم تتحدثون فى الحجرة بحرية شديدة''.

''إنها غرفة جلوسك''.

''نعم، نعم، هذه شقتى وهذه غرفة جلوسى. لكن ما تقولونه، وما قد تقولونه ربما ليس من الحكمة فى شىء. وذلك يعنى أنه غير حكيم لكل منا''.

''أوه! أعتقد أننى قد فهمت ما ترمى إليه''.

''أنتم تعرضون علىّ شيئًا ما. طريقة حياة، وظيفة جديدة وتقترحون كسرًا لقيود معينة. أنتم تقترحون علىَّ نوعا من عدم الولاء''.

''لا نقصد أن تصبح عميلا لأية دولة أخرى، إن كان هذا ما تقصده''.

''لا، لا، هذه ليست دعوة لروسيا أو للصين أو دعوة لأية أماكن أخرى ذُكرت فى الماضى، لكننى أعتقد أنها دعوة مرتبطة ببعض المصالح الخارجية''، واستمر فى حديثه قائلا: ''لقد أتيت من الخارج مؤخرًا. كانت رحلة مثيرة للغاية. فقد قضيت

ثلاثة أسابيع فى أمريكا الجنوبية. هناك شىء أريد إخباركم به، لقد كنت مدركا أن هناك من يتبعنى منذ مجيئى إلى إنجلترا''.

''يتبعك؟ ألا تعتقد أنه ربما قدخيل لك هذا؟''.

''لا، لا أعتقد أنه قد خيل لى هذا. فهذه هى الأشياء التى تعلمت أن ألاحظها أثناء عملى. فقد كنت فى أماكن بعيدة جدًا ـــ وأجزاء مثيرة من العالم. وقد اخترتم أن تأتوا إلىّ ليبدو لى الأمر كعرض. ومع ذلك ربما كان الأمر أكثر أمانًا إن كنا قد تقابلنا فى مكان آخر''.

نهض، ثم فتح باب الحمام وفتح الصنبور.

ثم قال: ''من الأفلام التى اعتدت رؤيتها منذ سنوات مضت عرفت أنه إذا أردتم أن تشوشوا على محادثتكم فى غرفة مراقبة فعليكم بفتح صنابير المياه. بلا شك أعلم أننى اتبع أسلوبًا قديمًا إلى حد ما وأن هناك طرقًا أفضل للتعامل مع هذه الأمور الآن. ولكن على أية حال ربما يمكننا التحدث بوضوح أكثر الآن، ومع ذلك مازلت أعتقد أنه يجب علينا أن نكون حريصين''، واستمر فى حديثه قائلاً: ''أمريكا الجنوبية؛ إنها جزء مثير من العالم. اتحاد الدول الأمريكية الجنوبية (من أسمائه الذهب الأسبانى)، وهو يتكون الآن من كوبا، والأرجنتين، والبرازيل وبيرو، وهناك دولة أو دولتان لم يتم استقرار الأمور بهما، لكنهما فى طريقهما إلى الاستقرار. نعم. هذا أمر مثير للغاية''.

قال الشاب الذى يبدو عليه الشك جيم روستر: ''وما هى آراؤك فى هذا الموضوع، ما الذى عليك قوله عن هذه الأشياء؟''.

قال السير ستافورد: ''سأستمر فى حذرى، وستكونون أكثر اعتمادًا علىّ إن لم أتحدث بتهور. لكننى أعتقد أن ذلك يمكن عمله أفضل بكثير بعد إغلاقى للصنبور''.

قال كليفوود بينت: ''أغلقها يا جيم''.

ابتسم جيم على نحو مفاجئ ونفذ الأمر.

فتح ستافورد نای درجًا فى المنضدة وأخرج منه جهاز تسجيل.

ثم قال: ''لم يستعمل هذا الجهاز كثيرًا بعد''.

ووضعه أمام شفتيه وبدأ لحنا. وفى ذلك الوقت عاد جيم بروستر متذمرا.

''ما هذا؟ هل سنؤدى حفلة موسيقية حمقاء؟''.

قال كليف بينت: ''اخرس، أيها الجاهل. أنت لا تعرف أى شىء عن الموسيقى''.

ابتسم ستافورد نای قائلاً:

''أرى أنك تشاركنى استمتاعى بموسيقى فاجنر. كنت فى مهرجان الشباب هذا العام واستمتعت كثيرا بالحفلات الموسيقية التى أقيمت هناك''.

ثم كرر اللحن ثانية.

قال جيم بروستر: ‘‘لا أعرف هذا اللحن. ربما يكون لحن الانترناشيونال أو الريد فلاج أو جود سيف ذا كينج أو يانكى دودل أو ستار سبانجلد بانر. ما هو هذا اللحن؟’’.

قال كيتلى: ‘‘إنها مقطوعة موسيقية من الأوبرا. وأغلق فمك فنحن نعلم كل ما تريد معرفته’’.

قال ستافورد ناى: ‘‘نداء بوق بطل شاب’’.

ورفع يديه بإشارة سريعة، هذه الإشارة التى تعود للماضى وتعنى ‘‘يعيش هتلر!’’. وهمهم برقة شديدة:

‘‘سيجفريد الجديد’’.

ونهض الشبان الثلاثة من مقاعدهم.

قال كليفورد بينت: ‘‘أنت محق تمامًا. أعتقد أنه يجب علينا أن نكون أثر حرصًا’’.

وتصافحا بالأيدى.

‘‘يسرنا أن نعلم أنك ستكون معنا. فمن الأشياء التى ستحتاج إليها هذه الدولة فى مستقبلها ـــ مستقبلها العظيم، كما آمل ـــ هى وزير خارجية من الدرجة الأولى’’.

وخرجوا من الحجرة. وتابعهم ستافورد ناى ببصره عبر الباب المفتوح قليلاً يتوجهون إلى المصعد ويهبطون.

وابتسم لهم ابتسامة غريبة ثم أغلق الباب، ونظر إلى ساعة الحائط وجلس على كرسى مريح ـــ لينتظر ...

عاد بعقله وتفكيره إلى ذلك اليوم، لقد مر عليه أسبوع الآن، عندما ذهب هو وماري آن، كل منهم إلى طريقه من مطار كيندى. فقد وقف كل منهما هناك وهما يشعران بأنه من الصعب عليهما الحديث. وقد كسر ستافورد ناى الصمت أولا؛ بقوله:

‘‘هل تعتقدين أننا سنتقابل ثانية بعد ذلك؟ أنا أتساءل ...’’.

‘‘هل هناك أى سبب يمنعنا من ذلك؟’’.

‘‘كل الأسباب تمنعنا من ذلك، على ما أعتقد’’.

ونظرت إليه، ثم نظرت بعيدًا عنه بسرعة.

‘‘الفراق دائمًا ما يحدث وهو جزء من العمل’’.

‘‘العمل! دائما لقاءاتى معك عبارة عن عمل، أليس كذلك؟’’.

‘‘عليها أن تكون كذلك؟’’.

‘‘أنتِ محترفة. وأنا مجرد هاو. أنتِ...’’ وتوقف قائلاً: ‘‘ما أنتِ؟ من أنتِ؟ أنا لا أعرف حقًا، أليس كذلك؟’’.

‘‘لا’’.

نظر إليها بعد ردها هذا. واعتقد أنه رأى علامات الحزن ترتسم على وجهها. وبدا مثل الألم لبعض الوقت.

‘‘إذن، يجب أن أسأل .. هل تعتقدين أن علىّ الوثوق بكِ؟’’.

‘‘لا، ليس ذلك. فذلك بمثابة واحد من الأشياء التى تعلمتها، من الأشياء التى علمتنى إياها الحياة. ليس هناك شخص يمكنك الوثوق به. عليك تذكر ذلك عادة’’.

‘‘حسنًا، هل هذا عالمك؟ عالم عدم الثقة، والخوف، والخطر’’.

‘‘أتمنى أن أظل حية. وها أنا على قيد الحياة’’.

‘‘أعلم’’.

‘‘وأريد منك أن تظل على قيد الحياة’’.

‘‘ لقد وثقت بكِ ـــ فى فرانكفورت ...’’

‘‘لقد قمت بالمخاطرة’’.

‘‘كانت مخاطرة تستحق، وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا كما أعلمه’’.

‘‘هل تعنى أن ذلك كان بسبب... ـــــ؟’’.

‘‘لأننا كنا معًا. والآن ـــ تم النداء على رحلتى الآن. هل مصير الرفقة التى بيننا والتى بدأت فى مطار أن تنتهى هنا فى مطار آخر؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ وما الذى ستفعلينه؟’’.

‘‘لأفعل ما علىّ فعله. إلى بلتيمور، إلى واشنطن، إلى تكساس. لأقوم بما صدرت إلىّ أوامر بتنفيذه’’.

‘‘وأنا؟ لم يُطلَب منى شىء. سأعود إلى لندن ـــ وما الذى سأفعله هناك؟’’.

‘‘انتظر’’.

‘‘انتظر ماذا؟’’.

‘‘التطورات التى ستحدث لك بكل تأكيد’’.

‘‘وما الذى علىّ فعله بعد ذلك؟’’.

ابتسمت له، بابتسامة المرح المفاجئة التى اعتاد عليها، وقالت له:

‘‘إذن فأنت تقوم بالأمر بمجرد السمع. وستعرف كيف تفعله، ليس هناك ما هو أفضل من ذلك. ستحب الأشخاص الذين يتقربون إليك. وسيتم اختيارهم جيدا. فمن المهم أن نعلم من هم’’.

‘‘علىّ الذهاب. وداعا، مارى آن’’.

قالت بالألمانية: ‘‘إلى اللقاء’’.

ورن جرس الهاتف فى شقته بلندن. وفكر السير ستافورد ناى فى أن ذلك الجرس قد دق فى لحظة مناسبة ليأخذه من ذكرياته القديمة فى نفس لحظة وداعهم. وعند وقوفه من مقعده همهم قائلاً بالألمانية: ‘‘إلى اللقاء’’ وسار إلى الهاتف ليرفع السماعة وهو يقول: ‘‘ليكن الأمر كذلك’’.

تحدث صوت يعرف صاحبه جيدًا إذ يصدر صفيرًا عند التنفس.

‘‘ستافورد ناى؟’’.

قال الإجابة المطلوبة: ‘‘لا دخان بدون نار’’.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘يقول أطبائى إن علىَّ التوقف عن التدخين. يا لرفيقى المسكين، ربما عليه أن يفقد الأمل. هل هناك أية أخبار؟’’.

‘‘أوه، نعم. يمكن أن تقول إنها عملية إغراء مادى ومعنوى لحثى على الخيانة’’.

‘‘يا لهؤلاء الخنازير!’’.

‘‘نعم، نعم، اهدأ’’.

‘‘وماذا قلت لهم؟’’.

‘‘شغلت لهم لحنا. مقطوعة بوق سيجفريد. كنت أتتبع نصيحة عمتى الكبرى وسارت الأمور بشكل جيد’’.

‘‘يبدو الأمر لى جنونًا!’’.

‘‘هل تعلم أغنية تسمى جوانيتا؟ يجب أن أعرفها أيضًا، فى حالة احتياجى لها’’.

‘‘هل تعلم من هى جوانيتا؟’’.

‘‘أعتقد ذلك’’.

‘‘هممم، أعتقد ـــ لقد سمعت عنها فى بلتيمور مؤخرًا’’.

قال: ‘‘وماذا عن فتاتك اليونانية، دافنى ثيودوفانوس؟ ترى أين هى الآن؟’’.

قال الكولونيل بيكواى: ‘‘ربما تجلس فى مطار بمكان ما فى أوروبا تنتظرك’’.

‘‘يبدو أن أغلب المطارات فى أوروبا قد أغلقت بسبب تعرضها للضرب أو للتدمير. باستخدام متفجرات شديدة الانفجار، فهناك تفجيرات كثيرة وعمليات خطف وكثير من العبث’’.

خرج الأولاد والفتيات ليلعبوا

والقمر يسطع ضوءه مثل ضوء النهار ـ

اترك عشاءك واترك نومك

وأطلق النار على رفيقك فى الطرقات.

‘‘حملة الأطفال التطهيرية على أحدث طراز’’.

‘‘لا أعرف الكثير عن تلك الحروب التطهيرية. لكن من ناحية ما فهذا الأمر بالكامل مثل حملة الأطفال الصليبية. وتنتهى بالموت، الموت، والموت مرة أخرى. لقد مات جميع الأطفال تقريبا، أو تم بيعهم فى سوق النخاسة. وسينتهى ذلك بنفس الطريقة إلا إذا استطعنا العثور على طرق لإخراجهم من هذا الأمر...’’.

الفصل العشرون

الأدميرال يزور أحد أصدقائه القدامى

قال الأدميرال بلانت: ‘‘اعتقدت أنكم صرتم جميعًا من الأموات’’.

لم تكن ملاحظته تلك موجهة إلى هذا النوع من رئيسة الخدم والتى كان يرغب فى أن يراها تفتح له باب المنزل الرئيسى، ولكنها موجهة للمرأة الشابة التى لم يكن يستطيع تذكر لقبها وكان اسمها آمى.

‘‘لقد اتصلنا بك هاتفيا أربع مرات على الأقل فى الأسبوع الماضى. وقالوا لنا إنك مسافر بالخارج’’.

‘‘كنا بالخارج، وقد عدنا إلى هنا للتو’’.

‘‘لا يجب أن تثير ماتيلدا بخصوص السفر إلى الخارج. ليس فى هذه الفترة من حياتها. فستموت بضغط الدم أو سكتة قلبية أو شىء من قبيل هذا، فى واحدة من هذه الطائرات الحديثة. فالطائرة تقلع مليئة بالمتفجرات التى من الممكن أن يكون قد وضعها فيها شخص ما، فلم تعد الطائرات آمنة’’.

‘‘لقد أوصى طبيبها بذلك’’.

‘‘أوه، حسنا. جميعنا نعلم من هم الأطباء’’.

‘‘وقد عادت وهى بحالة معنوية جيدة جدًا’’.

‘‘أين كانت، إذن؟’’.

‘‘أوه، كانت تتلقى علاجًا فى ألمانيا أو ـــ لا أتذكر مطلقًا سواء سافرت إلى ألمانيا أو النمسا. هذا المكان الجديد الذى تعرفه، جولدن جاثوس’’.

‘‘آه، نعم. أعرف المكان الذى تقصدينه. إنه مكان باهظ التكلفة للغاية، أليس كذلك؟’’.

‘‘حسنًا، يقال إنه يحقق نتائج جيدة للغاية’’.

قال الأدميرال بلانت: ‘‘ربما يكون ذلك طريقة مختلفة لقتلك بشكل أسرع. كيف استمتعتِ أنتِ بالأمر؟’’.

‘‘حسنًا، حقًا لم أستمتع بالأمر كثيرا. كان المنظر والديكور لطيفين جدا، لكن ـــ’’.

ظهر صوت مسيطر من الطابق الأعلى.

‘‘آمى. آمى! ما الذى تفعلينه، هل تتحدثين فى الردهة طوال هذه الفترة؟ أحضرى الأدميرال بلانت إلى الأعلى؛ فأنا أنتظره’’.

قال الأدميرال بلانت بعد أن حيا صديقته القديمة: ‘‘التجول. هكذا ستقتلين نفسك فى أحد هذه الأيام. ضعى كلماتى فى الحسبان...’’.

‘‘لا، لن أفعل. ليست هناك أية صعوبة فى السفر هذه الأيام’’.

‘‘الركض فى هذه المطارات، وسلالم الطائرات وسلالم المطارات، والحافلات’’.

‘‘لا عليك، إن معى كرسيًا متحركًا’’.

‘‘عندما قابلتك منذ سنة أو سنتين تقريبًا قلتِ إنك لن تسمحى بأن تستخدمى كرسيًّا متحركًا. وقلتِ إن لديك الكثير من الكبرياء الذى يجعلك لا تعترفى بحاجتك إليه’’.

‘‘حسنا، كان علىَّ التنازل عن بعض من كبريائى فى هذه الأيام يا فيليب. تعال واجلس هنا وأخبرنى لماذا أردت أن تأتى وتقابلنى فجأة هكذا. فقد تجاهلتنى كثيرًا فى السنة الماضية’’.

‘‘حسنًا، عن نفسى لم أكن بحال جيدة الفترة الماضية. بالإضافة إلى أننى كنت مشغولاً فى بعض الأشياء. أنتِ تعرفين طبيعة هذه الأشياء. حيث يطلبون نصيحتك ولكن لا يعنى ذلك أنهم سيعملون بها. لا يمكنهم أن يتركوا البحرية وشأنها. فهم يريدون أن يهدروا وقتهم فى الحديث عنها’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘فى نظرى تبدو بحال جيدة تمامًا’’.

‘‘أما أنت فلا تبدين بحالة سيئة يا عزيزتى. فهناك بريق لطيف فى عينيك’’.

‘‘لقد أصبحت أقل قدرة على السمع من آخر مرة رأيتنى فيها. سيكون عليك أن ترفع صوتك قليلاً’’.

‘‘حسنًا، سأرفع صوتى’’.

‘‘ما الذى تريده، أتريد شراب البرتقال أم التفاح أم الأناناس؟’’.

‘‘تبدين جاهزة لتقديم أى شراب قوى من أى نوع. إن كان الأمر سيان بالنسبة لكى، فأنا أرغب فى شراب البرتقال’’.

نهضت آمى وغادرت الغرفة.

قال الأدميرال: ‘‘وعندما تُحضر آمى الشراب رجاء تخلصى منها ثانية، فأنا أريد الحديث إليكِ. ما أعنيه هو الحديث إليك بشكل منفرد’’.

وأحضرت آمى المشروب، وأشارت الليدى ماتيلدا لها بالانصراف بحركة صارمة من يدها، وتركت آمى الحجرة كما لو كانت ترضى نفسها وليس ربة عملها. كانت آمى شابة لبقة للغاية.

قال الأدميرال: ‘‘فتاة لطيفة، لطيفة للغاية’’.

‘‘هل أردتنى أن أتخلص منها وأتأكد من أنها قد أغلقت الباب لأجل هذا؟ هل فعلت ذلك لكى لا تسمعك تقول شيئًا لطيفًا عنها؟’’.

‘‘لا. أردت أن أستشيرك’’.

‘‘عن ماذا؟ هل ستستشيرنى عن صحتك أم عن المكان الذى يمكنك الحصول منه على بعض الخدم الجيدين أم ما الذى ستزرعه فى حديقة منزلك؟’’.

‘‘أريد أن أستشيرك جديًّا. أعتقد أنك قد تكونين قادرة على تذكر شىء ما لأجلى’’.

‘‘عزيزى فيليب، كم هو لطيف أن تعتقد أننى قادرة على تذكر أى شىء؛ فكل عام تزداد ذاكرتى سوءا. وقد توصلت إلى استنتاج وهو أن الفرد يتذكر فقط ما يسمى بـ ‘‘أصدقاء شبابك’’. فحتى الفتيات البغيضات اللاتى كن معى فى المدرسة ما زلت أتذكرهن رغم أننى لا أرغب فى ذلك. وهذا هو ما وصلت إليه الآن كأمر واقع’’.

‘‘أين كنتِ؟ هل كنت تزورين المدارس؟’’.

‘‘لا، لا، لا، لقد ذهبت لزيارة صديقة دراسة قديمة لى لم أرها منذ ثلاثين ـــ أربعين ـــ خمسين ـــ عامًا، منذ فترة طويلة’’.

‘‘كيف كان مظهرها؟’’.

‘‘بدينة بشكل مفرط وحتى أبغض وأكثر كراهة مما كنت أتذكرها’’.

‘‘يجب أن أخبرك أن لديك ذوقا كريها جدًا يا ماتيلدا’’.

‘‘حسنًا، استمر، وأخبرنى. أخبرنى ما الذى تريدنى أن أتذكره؟’’.

‘‘أتساءل إن كنت تتذكرين صديقًا آخر من أصدقائك. روبرت شورهام’’.

‘‘روبى شورهام؟ بالطبع أتذكره’’.

‘‘العالم النشيط. أفضل العلماء’’.

‘‘بالطبع، ليس هو هذا النوع من الأشخاص الذين يمكن أن ينساهم المرء مطلقا. عجبًا أنك تتذكر هذا الرجل’’.

‘‘حاجة عامة’’.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘من المضحك أن تقول ذلك، فقد اعتقدت نفس الأمر فى ذلك اليوم’’.

‘‘ما الذى اعتقدتِه؟’’.

‘‘كان مطلوبا. أو شخص مثله ـــ إن كان هناك أى شخص مثله’’.

‘‘لا يوجد من هو مثله. والآن استمعى لى يا ماتيلدا. الناس يتحدثون إليك قليلاً، ويخبرونك بعض الأشياء. وأنا نفسى قد أخبرتك عن أشياء’’.

‘‘عادة كنت أتساءل عن السبب، لأنك لا يمكنك تصديق أننى سأفهمها أو سأكون قادرة على وصفها. وكانت تلك هى نفس المشكلة مع روبى أكثر مما هى معك’’.

‘‘أنا لا أخبرك بأسرار البحرية’’.

‘‘حسنًا، وهو أيضًا لم يخبرنى بأسرار علمية. أقصد، كان يتحدث معى بشكل عام جدًا’’.

‘‘نعم، لكنه تعود أن يتحدث لكِ عنهم، أليس كذلك؟’’.

‘‘حسنا، فى بعض الأوقات كان يحب قول الأشياء التى كانت تدهشنى’’.

‘‘حسنًا إذن، ها قد أوشكنا على الوصول إلى ما نريده. أريد أن أعلم إن كان سبق له الحديث ـــ فى الأيام التى كان يتحدث فيها هذا البائس ـــ عن شىء يسمى المشروع ب’’.

قالت ماتيلدا كليكهيتون بتفكير عميق: ‘‘المشروع ب، يبدو الاسم لى مألوفًا إلى حد ما. فقد اعتاد على الحديث عن بعض المشاربع أو العمليات المعينة فى بعض الأوقات، لكن يجب عليك أن تدرك أن هذه الأمور لم تعنِ لى شيئًا. وكان يعلم ذلك. لكن كان معتادًا على ـــ أوه، كيف يمكننى التعبير عن تلك الأحداث؟ـــ أتعلم، إثارة دهشتى. نوع من وصف الأمور بالطريقة التى قد يستخدمها الساحر ليصف كيف يُخرج ثلاثة أرانب من قبعة بدون أن تعلم كيف فعل ذلك. المشروع ب؟ نعم، كان ذلك منذ وقت طويل جدًا .. كان مهتمًا به إلى حد كبير. وقد اعتدت أن أقول له فى بعض الأوقات ‘‘كيف تسير أمور المشروع ب؟’’.

‘‘أعلم، أعلم، فأنتِ دائمًا سيدة لبقة. يمكنك عادة تذكر ما كان يفعله الأشخاص أو يهتمون به. حتى وإن كنتِ لا تعلمين شيئًا عنه فأنتِ تبدين اهتمامًا. فقد وصفتُ لك نوعا جديدًا من المدافع البحرية فى إحدى المرات ومن المؤكد أنكِ كنتِ تشعرين بالضجر والملل. لكنكِ استمعت بكل اهتمام وكأن ذلك شىء كنتِ تنتظرين سماعه طوال حياتك’’.

‘‘كما قلت، فأنا سيدة لبقة ومستمعة جيدة، حتى وإن لم تكن هذه الأشياء متوافقة مع طريقة تفكيرى واهتماماتى’’.

‘‘حسنًا، أريد أن أستمع إلى شىء مما قاله روبى عن المشروع ب’’.

قال: ‘‘حسنا، من الصعب جدًا تذكر ذلك الآن. ذكر ذلك بعدما تحدث عن عملية اعتادوا عملها فى عقول البشر. أنت تعلم، الأشخاص شديدو الاكتئاب والذين يفكرون فى الانتحار ويتسمون بالقلق والعصبية الشديدة ولديهم الكثير من التوتر. أشياء من هذا القبيل، الأشياء التى تعود أن يتحدث عنها الأشخاص الأكثر ارتباطًا بفرويد. وقال إن النتائج كانت مستحيلة. أقصد، كان الأشخاص سعداء للغاية وهادئين ويسهل قيادتهم ولم يعودوا قلقين، أو راغبين فى قتل أنفسهم، لكنهم ـــ حسنا، أقصد لم يعودوا يقلقون كثيرا وبذلك نجحوا فى التغلب على جميع تلك الأشياء لأنهم لم يعودوا يفكرون فى أى خطر ولا يلاحظونه. أنا أصف الأمر بشكل سيئ لكنك تفهم ما أعنيه. وعلى أية حال فقد قال لى إنه يعتقد أنه سيكون هو المشكلة فى المشروع ب’’.

‘‘هل وصف الأمر بشكل أكثر تفصيلاً من ذلك؟’’.

قالت ماتيلدا كليكهيتون بشكل غير متوقع: ‘‘قال بأننى وضعت أفكارًا فى عقله، وأصفت له أشياء جديدة’’.

‘‘ماذا؟ هل تقصدين أن عالمًا ـــ عالمًا من الدرجة الأولى مثل روبى قال لكِ بالفعل إنكِ قد أضفتِ شيئًا إلى عقليته العلمية؟ أنتِ لا تعرفين بدائيات العلوم’’.

‘‘بالطبع لا أعلم. لكننى اعتدت على محاولة ذلك ووضع الحس السليم فى عقول الناس. فكلما زادت براعتهم قل الحس السليم لديهم. حقًا، أقصد الأشخاص الذين يهتمون هم الأشخاص الذين فكروا فى أشياء بسيطة مثل عمل ثقوب فى طوابع البريد، أو شخص مثل آدم أو مهما كان اسمه ـــ لا، ـــ ماكآدم فى أمريكا هو من وضع أشياء سوداء فى الطرقات لكى ينقل المزارعون جميع محاصيلهم من المزارع إلى الشاطئ وجنى أرباح أفضل. أعنى أنهم يفعلون أفضل ما يفعله العلماء الأفذاذ الذين تتوافر لهم الإمكانيات العالية. يمكن للعلماء فقط التفكير فى أشياء لتدميرك. حسنًا، كان هذا ما كنت أقوله إلى روبى، وكنت أقول له ذلك بلطف كنوع من الدعابة بالطبع. وكان يخبرنى أنه تم التوصل إلى بعض الأشياء الرائعة فى عالم العلم فيما يخص الحرب الجرثومية والتجارب العضوية وما يمكنك عمله للأطفال فى بطون أمهاتهم إذا وصلت إليهم فى مرحلة مبكرة من تكوينهم. وأيضًا بعض الأشياء الغريبة الشريرة والغازات الضارة ويقول لى مدى سخافة الناس فى احتجاجهم ضد القنابل النووية لأنها تمثل اختراعًا رحيمًا عند مقارنتها بالأشياء الأخرى التى كان قد توصل إليها العلم حينها. وقد قلت أيضًا إن الأمر سيكون مفيدا أكثر إذا فكر روبى، أو شخص بارع مثله، فى شىء ما حكيم بالفعل. ونظر إلىَّ محدقًا، أنت تعرف الغمزة الصغيرة التى تكون فى عينيه لبعض الوقت ثم قال: ‘‘حسنا ما الذى تعتبرينه حكيما؟’’ قلت له: ‘‘حسنا، بدلا من اختراع جميع الأسلحة الجرثومية وهذه الغازات الكريهة وباقى هذه الأشياء، لِمَ لا تخترع شيئا يجعل الناس يشعرون بالسعادة؟’’. وقلت إن هذا الأمر لن يكون بالأمر الصعب. لقد تحدثت عن هذه العملية حيث ـــ أعتقد أنك قلت ذلك ـــ يأخذون قطعة من مقدمة عقلك أو مؤخرتها. لكنها بأية حال تحقق اختلافا كبيرا فى انطباعات الناس واتجاهاتهم، وسيصبحون مختلفين تمامًا. فلن يصبحوا قلقين بعد ذلك ولن يرغبوا فى الانتحار. لكن،’’ قلت له: ‘‘حسنا، إن كان بإمكانك تغيير الأشخاص من هذا النوع بأخذ قطعة صغيرة من العظام أو العضلات أو الأعصاب أو تشويه إحدى الغدد أو استئصالها أو زيادة حجم إحداها’’. وقلت له أيضًا: ‘‘إن كان بإمكانك عمل كل هذا الاختلاف فى اتجاهات الأشخاص لِمَ لا تخترع شيئًا ما يجعل الأشخاص سعداء أو يميلون إلى النوم؟ افترض أن لديك شيئًا ما، ليس الاستمرار فى النوم لفترات طويلة، بل جهاز يجلس الأشخاص على كرسى ملحق به ويستغرقون فى حلم لطيف. وينام الشخص لمدة أربع وعشرين ساعة ويستيقظ لتناول طعامه وينام مرة أخرى، وقلت له إن ذلك سيكون فكرة جيدة’’.

‘‘وهل هذا ما كان يسمى بالمشروع ب؟’’.

‘‘حسنًا، بالطبع لم يخبرنى عن ماهية هذا المشروع بالضبط. لكنه كان منفعلاً بفكرة ما وقال إننى غرستها فى ذهنه، لذلك فمن المؤكد أن ما وضعته فى رأسه كان شيئا غير سار، أليس كذلك؟ أعنى، لم أقترح عليه أية أفكار عن أى طرق شريرة لقتل الأشخاص ولم أكن أرغب فى أن يصرخ الناس بسبب أشياء مثل الغاز المسيل للدموع. وربما تحدثت معه عن الضحك ـــ نعم، أعتقد أننى قد ذكرت له غاز الضحك. وقد قلت أيضا إنه إذا رغبت فى خلع أسنانك فسيعطونك ثلاثة أنفاس من هذا الغاز ثم ستضحك. حسنًا، بالتأكيد لا يمكنك اختراع شىء له مثل فائدة غاز الضحك لكن يبقى أثره لفترة أطول بقليل. لأننى أعتقد أن غاز الضحك يبقى أثره

لمدة خمسين ثانية فقط، أليس كذلك؟ أتذكر أن أخى خلع بعض أسنانه مرة واحدة وقد كان كرسى طبيب الأسنان الذى يجلس عليه المريض قريبا من النافذة، وضحك أخى كثيرا عندما كان فاقدًا الوعى، أقصد أنه قد مد قدمه إلى الأعلى وفردها عبر النافذة فسقط الزجاج بأكمله فى الشارع وقد غضب طبيب الأسنان كثيرًا لذلك''.

قال الأدميرال: ''عادة يكون لقصصك بعض الجوانب الغريبة. على أية حال، هذا هو ما اختاره روبى شورهام من نصيحتك ليستكمل المشروع''.

''حسنًا، لا أعلم ما كان هذا الشىء بالضبط. أعنى لا أعتقد أن الأمر كان النوم أو الضحك. على أية حال، كان يفعل شيئًا ما. ولم يكن اسمه المشروع ب، بل كان له اسم آخر''.

''أى نوع من الأسماء؟''.

قالت العمة ماتيلدا بتفكير عميق: ''حسنًا، لقد ذكر لى الاسم الذى أطلقه على هذا المشروع مرة أو مرتين. كان الاسم شبيها باسم مطعم بينجرز فود''.

''هل تقصدين شيئًا مساعدًا على الهضم؟''.

''لا أعتقد أن الأمر كان يتعلق بالهضم على أية حال. فأنا أعتقد أنه كان شيئا تستنشقه أو ربما كان نوعا من أنواع الغدد. تعلم أننا قد تحدثنا ـــ أنا وهو ـــ كثيرًا عن أشياء عديدة بحيث لا تعرف تماما ما الذى كان يتحدث عنه. بينجرز فود. بين

بين ـــ كان الاسم يبدأ بمقطع ''بين''. وكانت هناك كلمة لطيفة مرتبطة به''.

''هل هذا كل ما يمكنك تذكره عن الأمر؟''.

''أعتقد ذلك. أقصد، كان ذلك مجرد حديث تبادلناه من وقت لآخر منذ وقت طويل وأخبرنى بأننى ألهمته للقيام بمشروع يبدأ بكلمة ''بين'' ثم شىء آخر لا أتذكره. وبعد ذلك من وقت لآخر ـــ إذا كنت أتذكر ـــ كنت أسأله إن كان ما زال يعمل فى مشروع ''بين''. وعند ذلك كان يبدو عليه الغضب الشديد ويقول: لا فقد لاقى صعوبات وقد نحى الأمر بالكامل الآن لأنه كان فى ـــ فى ـــ حسنًا، أعنى أن كلمات الثمانى التالية كانت من لغة اصطلاحية ولا يمكننى تذكر كلماته ولن تفهمها إن قلتها لك. لكن فى النهاية، أعتقد ـــ أوه يا عزيزى، كان كل ذلك منذ ما يقارب ثمانية أو تسعة أعوام مضت، وفى النهاية أتى لى فى أحد الأيام وقال لى: هل تتذكرين المشروع ''بين''؟''. فقلت له: ''بالطبع أتذكره، هل مازلت تعمل عليه؟''، قال لى: لا، فقد قرر أن ينحى كل هذا الأمر جانبا. وقلت له أننى آسفة، وسأكون آسفة إن تخلى عن الأمر، وقال لى: ''حسنا، ليس الأمر أننى لست قادرًا على الوصول إلى ما كنت أصبو إليه. أعلم أن ذلك يمكن تحقيقه. وأنا أعلم مكان خطئى. أعلم أين توجد المشكلة بالضبط، وأعلم بالتحديد كيف أعيد الأمر إلى نصابه الصحيح مرة أخرى. كانت ليزا تعمل بالأمر معى. نعم، يمكن للأمر أن ينجح، قد يتطلب تجارب على أشياء معينه لكن يمكنه أن يفلح''؛ فقلت له: ''حسنا، ما الذى يقلقك؟''؛ فقال لى: ''لأننى لا أعلم ما الذى يمكن لهذا الشىء أن يفعله بالبشر''. وقلت شيئًا عن قلقه من احتمال ما يفعله هذا الشىء للبشر أو إصابتهم بعاهات

طوال حياتهم أو شيء من هذا القبيل؛ فقال لى: ‘‘لا، ليس كذلك’’. وقال لى إنه ـــ أوه، الآن يمكننى التذكر، كان يسمى مشروعه بينفو. نعم. وذلك لأنه مكرس للخير فالاسم اختصار لكلمة بينيفولينس’’.

قال الأدميرال مبتهجًا: ‘‘الخير! الخير؟ هل تقصدين الإحسان؟’’.

‘‘لا، لا، لا. أعتقد ببساطة أنه كان يعنى أن بمقدورك جعل الناس خيرين. يشعرون بأنهم خيرين’’.

‘‘السلام والخير للبشر؟’’.

‘‘حسنا، لم يشرح الأمر بتلك الطريقة’’.

‘‘لا، ذلك دور رجال الدين. فهم يقولون فى مواعظهم إنك إذا قمت بما يعظون به فسيصبح العالم عالمًا سعيدًا جدًا. لكن روبى، حسبما أعتقد لم يكن يعظ. بل كان ينوى القيام بشيء ما فى معمله ليحصل على هذه النتيجة بطرق فيزيائية بحتة’’.

‘‘هذا هو ما قصده. وقال إنه ليس بمقدورك أن تحدد متى تكون الأشياء نافعة للبشر أو متى تكون غير ذلك. فهم فى طريق واحد، وليسوا فى طريقين. وقال أشياء عن ـــ أوه، البنسلين والسلفوناميد، وإعادة زرع القلب وأشياء مثل حبات الدواء للنساء ومع ذلك فلم يحصل على ‘‘حبة الدواء’’ بعد. أتعلم، كان الأمر يبدو جيدا كالدواء أو الغاز الذى يقدم نتائج مدهشة أو شيئا مدهشا، وبعد ذلك تجد شيئا به يجعل الأمور تسير على نحو خاطئ وهى تسير بشكل صحيح فى نفس الوقت وبعد ذلك تجد نفسك تتمنى أنك لم تفكر فى هذا الأمر مطلقًا. حسنًا، بدا أن هذا هو ما أراد أن يفهمنى إياه. وكان كل ذلك صعب الفهم؛ فقلت له: ‘‘هل تقصد أنك لا تحب القيام بالمخاطرة؟’’، وقال لى: ‘‘أنتِ محقة تمامًا. أنا لا أحب القيام بالمخاطر. وهذه هى المشكلة لأننى، كما ترين، على الأقل لا أعلم ما ستكون هذه المخاطرة. وهذا هو ما يحدث لنا نحن العلماء البائسين المساكين. فنحن نخاطر والمخاطرة هنا ليست فيما اكتشفناه، بل المخاطرة فيما سيكون على الناس قوله عن الاكتشاف وما سيفعلونه بما توصلنا إليه’’؛ فقلت له: ‘‘أنت تتحدث الآن عن الأسلحة النووية مرة أخرى والقنابل الذرية’’؛ فردَّ علىّ قائلاً: ‘‘أوه، دعكِ من الأسلحة النووية والقنابل الذرية. فقد تخطينا هذه المرحلة’’.

قلت له: ‘‘لكن إن كنت ستجعل البشر خيرين ولطفاء، فما الذى لديك لتقلق بشأنه؟’’؛ فَرَّد علىّ قائلا: ‘‘أنتِ لا تفهمين يا ماتيلدا. لن تفهمى أبدا. ولن يفهم زملائى العلماء فى جميع المجالات. ولن يفهم أى سياسىّ ذلك مطلقًا؛ فأنت تعلمين أن مخاطرة كبيرة للقيام بها. على أية حال كان أى شخص سيأخذ وقته فى التفكير فى هذا’’.

وقلت له: ‘‘لكن، يمكنك تخليص الناس من ذلك ثانية مثل غاز الضحك تماما، أليس كذلك؟ أقصد، بإمكانك جعل الناس خيرين لفترة قصيرة فقط وبعد ذلك يعودون إلى طبيعتهم مرة أخرى ـــ أو يعودون إلى كل الأخطاء مرة أخرى ـــ ذلك يعتمد على الطريقة التى تنظر بها إلى الأمور على ما أعتقد’’. ورد علىّ قائلا: ‘‘لا. كما تعلمين، سيكون ذلك أمرًا مؤقتًا. مؤقتا إلى حد بعيد لأنه يؤثر على ـــــ’’،

وبدأ فى استخدام المصطلحات العلمية ثانية. أنت تعلم ذلك، كلمات وأرقام طويلة. صيغ، أو تغيرات جزئية ـــ شىء من هذا القبيل. أتوقع أن يكون ذلك شيئًا مشابهًا لما يفعلونه مع المرضى العقليين، كما تعلم بغرض العمل على شفائهم مثل إعطائهم خلاصة الغدة الدرقية أو استخلاصها من أجسادهم. نسيت الأمر، لكنه شىء من هذا القبيل. حسنًا، أتوقع وجود بعض الغدد اللطيفة فى مكان ما بالجسد وإذا تمكنت من استئصالها أو تبخيرها أو اتخاذ إجراء قوى لها ـــ ربما يصبح الناس لفترة مؤقتة ـــــ''.

''هل سيصبحون خيرين لفترة مؤقتة؟ هل أنت متأكدة أنها الكلمة الصحيحة؟ الخير؟''.

''نعم، لأن ذلك سبب إطلاقه عليها اسم بينفو''.

''لكن ما كان رأى زملائه، أنا أتساءل عن سبب تراجعه؟''.

''لا أعتقد معرفة الكثير من زملائه عن هذا الأمر. ليزا أو أيًّا كان اسمها، هذه الفتاة النمساوية؛ التى كانت تساعده فى المعمل. وكان هناك شاب يسمى ليدنثال أو اسمًا شبيها بذلك، لكنه مات مريضًا بالسل. وتحدث أيضًا إلى آخرين كانوا مجرد مساعدين له ولا يعلمون ما الذى كان يحاول عمله بالتحديد. أنا أفهم ما ترمى إليه، فى الواقع لا أعتقد أنه قد أخبر أى شخص. أقصد، أنه قد دمر تركيباته ومذكراته أو أيًّا كان ما معه وله علاقة بهذا البحث، وتخلى عن الفكرة ككل. وبعد ذلك حدثت له سكتة دماغية وسقط مريضا، والآن عزيزى المسكين لا يمكنه التحدث جيدًا. فقد تعرض لشلل نصفى. لكن يمكنه السمع إلى حد ما، فهو يستمع إلى الموسيقى، فقد أصبحت هذه هى حياته الآن''.

''هل تعتقدين أن حياته العملية قد انتهت؟''.

''هو حتى لا يرى أصدقائه، وأعتقد أن رؤيته لهم ستؤلمه كثيرًا. فدائما ما يقدم لهم الأعذار''.

قال الأدميرال بلانت: ''لكنه حى، ما زال حيًّا بالفعل. هل لديكِ عنوانه؟''.

''عنوانه فى مكان ما بدفتر العناوين. ما زال فى مكانه. فى مكان ما بشمال اسكتلندا. لكن ـــ أوه، عليك تفهم الأمر ـــ كان رجلا مدهشًا فى فترة من فترات حياته. وهو ليس كذلك الآن. هو ميت تقريبًا، وذلك لتحدد جميع أهدافك وأغراضك من مقابلته''.

قال الأدميرال بلانت: ''دائمًا ما تكون هناك بارقة أمل ''ثم أضاف قائلاً ''وإيمان''.0

قالت الليدى ماتيلدا: ''وخير على ما أعتقد''.

الفصل الحادى والعشرون

مشروع بينفو

جلس البروفيسور جون جوتليب على مقعده ينظر بثبات شديد إلى الشابة الجميلة الجالسة فى مواجهته. وحك أذنه بطريقة غريبة وكان ذلك من حركاته وإيماءاته المميزة. على أية حال كان يبدو غريب الشكل. فم بارز، ورأس دقيق بارز ينتج عنه بعض التباين وجسد صغير وذابل.

قال البروفيسور جوتليب: ‘‘لا يحدث كل يوم أن تُحضر لى سيدة شابة خطابا من رئيس الولايات المتحدة. ومع ذلك ــ’’، أكمل حديثه بابتهاج: ‘‘فالرؤساء لا يعلمون عادة ما الذى يفعلونه بالضبط. ما الذى يدور حوله هذا الأمر؟ أعتقد أنك مخولة بأعلى السلطات’’.

‘‘أتيت لأسألك ما الذى تعرفه أو ما الذى يمكنك قوله عن شىء يسمى المشروع بينفو؟’’.

‘‘هل أنتِ الكونتيسة ريناتا زيركوسكى بالفعل؟’’.

‘‘من المحتمل أنها أنا. وأُعرف أكثر بمارى آن’’.

‘‘نعم، هذا هو ما كتبوه لى تحت غطاء منفصل. وتريدين أن تعرفى أشياء عن المشروع بينفو. حسنًا، كان هذا الشىء موجودًا. والآن فهذا الشىء قد مات ودفن وأتوقع أن يكون الرجل الذى فكر فيه قد مات ودفن أيضًا’’.

‘‘تقصد البروفيسور شورهام’’.

‘‘هذا صحيح. روبرت شورهام. كان واحدًا من أعظم العباقرة فى عصرنا هذا، مع آينشتاين، ونايلز بور وبعض الآخرين. لكن روبرت شورهام لم يبق فترة طويلة كما ينبغى. وذلك خسارة كبيرة للعلم ــ وينطبق عليه ما قاله شكسبير عن الليدى ماكبث: ’’ كان عليها أن تعيش لأطول من ذلك’’.

قالت مارى آن: ‘‘هو لم يمت’’.

‘‘أوه، هل أنتِ متأكدة من ذلك؟ فلم يسمع أحد أى شىء عنه منذ فترة طويلة’’.

‘‘هو عاجز. ويعيش فى شمال اسكتلندا. ويعانى من الشلل ولا يمكنه التحدث جيدًا، ويجلس أغلب وقته يستمع إلى الموسيقى’’.

‘‘نعم، يمكننى تخيل ذلك. حسنا، يسرنى ذلك. إذا كان يمكنه فعل ذلك فهو سعيد جدًا. وإلا فسيكون ذلك مثل الجحيم لرجل عبقرى لم يعد عبقريا بل ميتًا فى كرسى العجز’’.

‘‘هل كان هناك شىء بخصوص المشروع بينفو؟’’.

‘‘نعم، كان مغرمًا جدًا بهذا الأمر’’.

‘‘هل تحدث معك عن هذا الأمر؟’’.

‘‘تحدث إلى البعض منا بخصوص المشروع بينفو فى الأيام الأولى من المشروع. وأنا أعتقد أنكِ لستِ من أهل أيتها المرأة الشابة، أليس كذلك؟’’.

‘‘لا، أنا ـــــ’’.

‘‘أعتقد أنكِ مجرد عميلة. آمل أن تكونى فى الجانب الصالح. ما زلنا نأمل فى المعجزات فى هذه الأيام، لكن لا أعتقد أنكِ ستحصلين على أى شىء من المشروع بينفو’’.

‘‘ولِمَ لا؟ قلت إنه عمل عليه. كان ذلك سيكون اختراعا عظيما، أليس كذلك؟ أو اكتشافًا أو أيًّا كان ما تسمى هذه الأشياء؟’’.

‘‘نعم، كان سيكون واحدًا من الاكتشافات العظيمة فى العصر. لا أعلم بالتحديد ما الخطأ فيه. فقد حدث ذلك فى الماضى. تسير الأمور بشكل جيد لكنها تضطرب بطريقة ما فى مراحلها الأخيرة، وينهار الأمر تمامًا. ولا يحقق المرجو منه وتستسلمين فى يأس، أو تفعلين كما فعل شورهام’’.

‘‘وما الذى فعله؟’’.

‘‘دمر المشروع. دمر كل شىء متعلق به. وقد أخبرنى ذلك بنفسه. فقد أحرق جميع التركيبات، والصيغ والأوراق الخاصة به، جميع البيانات. وبعد ثلاثة أسابيع أصيب بالسكتة الدماغية. أشعر بالأسف لذلك. كما ترين لا يمكننى مساعدتك. لم أعرف أية تفاصيل عن ذلك مطلقًا، لم أعرف أى شىء باستثناء الفكرة الرئيسية. ولا أتذكر أى شىء الآن إلا شيئًا واحدًا، وهو أن بينفو تعنى الخير’’.

الفصل الثانى والعشرون

جوانيتا

كان اللورد أولتماونت يملى جيمس كليك بعض الأشياء.

ذلك الصوت الذى كان مجلجلاً ومسيطرًا تحول الآن إلى همس لا يزال يتمتع بجاذبية غير متوقعة. وكان يبدو كأنه يأتى كشعاع من ظلال الماضى، لكنه كان يسير من الزاوية الشعورية فى طريق لم يكن من المتوقع أن يسير فيه صوته المسيطر.

كان جيمس كليك يدون الكلمات كما يسمعها، ويتوقف من وقت لآخر كلما تردد اللورد للحظة، فكان يعطيه المساحة وينتظر بكل أدب.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘المثالية، قد تنشأ ودائما ما تنشأ عندما تتحرك بتنافر طبيعى مع الظلم. وهذا رد فعل طبيعى على المادية الشديدة. فالمثالية الطبيعية للشباب تتغذى أكثر وأكثر بالرغبة فى تدمير مظهرين وهما الحياة العصرية، والمادية التامة الظالمة. وهذه الرغبة الخاصة بتدمير كل ما هو شرير، تؤدى فى بعض الأوقات إلى الرغبة فى التدمير من أجل التدمير. ويمكنها أن تؤدى إلى التلذذ بالعنف وإلى التسبب فى الألم للآخرين. ويمكن تدعيم وتقوية كل ذلك من الخارج عن طريق هؤلاء الذين لديهم موهبة القيادة الطبيعية. وهذه المثالية الأصلية تنشأ فى مجال لا يوجد فيه إلا غير البالغين. وقد تؤدى إلى رغبة فى عالم جديد. وقد تؤدى أيضا إلى حب جميع البشر، وحسن النية تجاههم. لكن هؤلاء الذين تعلموا حب العنف من أجل العنف لن يتمتعوا بالنضج على الإطلاق. فسيظل هؤلاء كما هم ولن يحدث أى تطور فى حياتهم’’.

وتعالى صوت الهاتف، فأشار إليه اللورد أولتماونت، فاتجه إليه جيمس كليك ورفع السماعة، واستمع قبل أن يقول:

‘‘السيد روبنسون هنا’’.

‘‘أوه، نعم. أدخله إلى هنا. يمكننا الاستمرار فى ذلك فيما بعد’’.

نهض جيمس كليك، منحيًا المذكرة والقلم الرصاص جانبًا.

ودخل السيد روبنسون. ووضع جيمس كليك كرسيًا له، كرسيًا واسعًا يلائم حجمه الهائل ويجعله مستريحًا فى جلسته بدون أن يشعره بعدم الراحة. وابتسم السيد روبنسون مبديًا شكره وجلس بجانب اللورد أولتماونت.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘حسنًا، هل لديك أى شىء جديد لنا؟ رسوم تخطيطية؟ دوائر؟ فقاعات؟’’.

قالها وقد بدا عليه الاستمتاع قليلاً.

قال السيد روبنسون بهدوء: ‘‘ليس بالضبط، فالأمر أشبه بتخطيط مسار نهر ـــ’’

قال اللورد أولتماونت: ‘‘نهر؟ أى نوع من الأنهار؟’’.

‘‘نهر من النقود’’، قال السيد روبنسون بصوت رقيق ينطوى على نبرة اعتذار كان معتادا على استخدامها عندما يشير إلى تخصصه ثم أكمل قائلاً: ‘‘فى الواقع، إن هذا الأمر أشبه بنهر؛ فالنقود تأتى من مكان ما ومن المؤكد أنها تذهب إلى مكان ما. هذا أمر مثير للغاية ـــ الأمر كذلك إن كنتم مهتمين بهذه الأشياء، فهو يخبرنا عن نفسه بنفسه كما ترون ـ’’.

بدا أن جيمس كليك لا يفهم الأمر، لكن أولتماونت قال: ‘‘أفهمك، استمر فى حديثك’’.

‘‘النقود تنبع من الدول الإسكندنافية ومن بافاريا ومن الولايات المتحدة ومن جنوب شرق آسيا ـــ يوفرها عدد قليل من الممولين وهى فى طريقها إلى ـــــ’’.

‘‘إلى أين؟’’.

‘‘تذهب بشكل أساسى إلى أمريكا الجنوبية. لتلبى مطالب قيادة الشباب المسلحة التى ثبتت أوضاعها هناك ـــــ’’.

‘‘وهل يمثل ذلك أربعًا أو خمسًا من الدوائر المتداخلة التى أريتنا إياها ـــ الأسلحة، المخدرات، والصواريخ العلمية والكيماوية وكذلك التمويل؟’’.

‘‘نعم، نعتقد أننا نعلم بشكل دقيق الآن من يتحكم فى هذه المجموعات المختلفة ـــــ’’.

سأله جيمس كليك: ‘‘وماذا عن الدائرة جى ـــ جوانيتا؟’’.

‘‘لسنا متأكدين بخصوصها حتى الآن’’.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘لدى جيمس أفكار محددة بهذا الخصوص، آمل أن تكون خاطئة ـــ نعم، آمل ذلك. فالدائرة جى المركزية شيقة للغاية. ما الذى تعبر عنه ـــ هل تعبر عن العدالة؟ أو القضاء؟’’.

قال جيمس كليك: ‘‘قاتلة محترفة، فالأنثى من هذا النوع أكثر فتكًا وضراوة من الذكر’’.

قال اللورد أولتماونت معترفًا: ‘‘هناك سوابق تاريخية. فقد وضع جيل الزبد فى طبق ملكى أمام سيزيرا ـــ وبعد قليل وضعت المسمار فى رأسه. وجوديث تقتل هولوفيرنز، وقد أيدها فى ذلك رجال قريتها. نعم، قد يكون هناك شىء فى الأمر’’.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘إذن فأنت تعرف من هى جوانيتا، أليس كذلك؟ هذا أمر مثير’’.

‘‘حسنًا، ربما أكون مخطئًا سيدى السير، لكن كانت هناك أشياء جعلتنى أعتقد ـــــ’’

قال السيد روبنسون: ‘‘نعم، علينا جميعًا التفكير، أليس كذلك؟ من الأفضل أن تقول من تعتقد أنها جوانيتا يا جيمس’’.

‘‘الكونتيسة ريناتا زيركوسكى’’.

‘‘ما الذى جعلك تتهمها بهذا الاتهام؟’’.

‘‘الأماكن التى ذهبت إليها، والأشخاص الذين اتصلت بهم. هناك تطابق كبير بين الطريقة التى كانت تتجول فيها فى الأماكن المختلفة وما إلى ذلك. كانت فى بافاريا، وزارت شارلوت الضخمة هناك. وأكثر من ذلك أنها قد أخذت ستافورد ناى معها. أعتقد أن ذلك شىء مميز ـــ’’.

سأل أولتماونت: ‘‘هل تعتقد أنهم شركاء فى هذا الأمر؟’’.

‘‘لا أحب قول ذلك. فأنا لا أعرف أشياء كافية عنه،

لكن ...’’، وتوقف عن الحديث.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘نعم، كانت هناك بعض الشكوك حوله. كان مشكوكًا فى أمره منذ البداية’’.

‘‘هل كان هنرى هورشام يشك فيه؟’’.

‘‘ربما يكون هنرى هورشام. وأعتقد أن الكولونيل بيكواى ليس متأكدًا منه. وهو تحت الملاحظة. وربما يعلم ذلك، فهو ليس بأحمق’’.

قال جيمس كليك بغضب: ‘‘واحد آخر منهم. هذا غير طبيعى، كيف يمكننا تدريبهم وكيف يمكننا الوثوق بهم وإخبارهم بأسرارنا، وإخبارهم بما نفعله’’، واستمر قائلاً: ‘‘إذا كان هناك شخص أثق فيه بشكل تام ـــ أوه، ماكلين، أو بروجس، أو فيلبى أو أى فرد من المجموعة. والآن ستافورد ناى’’.

قال السيد روبنسون: ‘‘لقد تلقى ستافورد ناى مبادئه من ريناتا المعروفة بجوانيتا’’.

قال كيلك: ‘‘كانت هناك أفعال تثير القلق فى مطار فرانكفورت، وكانت هناك زيارة إلى شارلوت. أخمن أن ستافورد ناى كان فى أمريكا الجنوبية معها. وبالنسبة لها ـــ هل نعلم مكانها الآن؟’’.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘يمكننى القول إن السيد روبنسون يعلم، أليس كذلك سيد روبنسون؟’’.

‘‘هى فى الولايات المتحدة، لقد سمعت ذلك بعدما جلست مع بعض أصدقائى فى واشنطن أو قربها، كانت فى شيكاغو، ثم ذهبت إلى كاليفورنيا ومن هناك ذهبت من أوستن لزيارة عالم بارز. كان هذا آخر ما سمعته عنها’’.

‘‘ما الذى تفعله هناك؟’’.

قال السيد روبنسون بصوت هادئ: ‘‘يمكن للفرد أن يتوقع أنها تحاول الحصول على معلومات’’.

‘‘أية معلومات؟’’.

تنهد السيد روبنسون، وقال:

‘‘هذا ما يرغب الفرد بمعرفته. أفترض أنها نفس المعلومات التى نسعى نحن للحصول عليها وهى تفعل ذلك لصالحنا. ولكن لا يمكن للمرء أن يعلم ـــ قد يكون ذلك لصالح الطرف الآخر’’.

استدار لينظر إلى اللورد أولتماونت.

‘‘أفهم أنك مسافر اليوم إلى اسكتلندا. هل هذا صحيح؟’’.

‘‘صحيح تمامًا’’.

قال جيمس كليك: ‘‘لا أعتقد أن عليه ذلك سيدى السير’’. واستدار بوجهه القلق إلى رئيسه قائلا: ‘‘لم تكن بحالة جيدة مؤخرًا، سيدى السير. وستكون هذه الرحلة مرهقة للغاية أيًا كانت الوسيلة التى ستستقلها، سواء كانت بالطائرة أو القطار. ألا يمكنك تفويض مونرو أو هورشام للقيام بذلك؟’’.

قال اللورد أولتماونت’’: فى سنى يكون الاعتناء وأخذ الحذر مضيعة للوقت. وكما تقول الحكمة المأثورة: إذا كان بإمكانى أن أكون مفيدًا، كنت سأرغب فى الموت وأنا أعمل’’.

وابتسم للسيد روبنسون قائلاً:

‘‘سيكون من الأفضل أن تأتى معنا، يا روبنسون’’.

الفصل الثالث والعشرون

رحلة إلى اسكتلندا

1

تساءل قائد الطائرة قليلاً عن حقيقة كل ما يدور؛ فقد كان معتادًا على أن تكون لديه فكرة جزئية عن أية مهمة يقوم بها. لكنه اعتقد أن ذلك أمر يتعلق بالأمن القومى. إذن فليست هناك أية فرصة ليعرف شيئًا عن الأمر. لقد قام بهذ النوع من المهام من قبل لأكثر من مرة. قيادة طائرة ركاب إلى خارج البلاد متوجها إلى بقعة بعيدة من العالم، مع ركاب مستبعد ذهابهم إلى هناك بتلك الطريقة، وكان يحاذر من أن يوجه أية أسئلة إلا إذا كانت ذات طبيعة عادية. كان يعرف بعضًا من المسافرين على متن طائرته وليس جميعهم؛ فقد تعرف على اللورد أولتماونت. كان يراه رجلاً مريضًا، مريضا للغاية وحكم عليه أنه ما زال على قيد الحياة بسبب قوة إرادته الشديدة. وربما كان الرجل المرافق له والذى يشبه وجهه وجه الصقر بشدة هو حارسه الشخصى. وهو مستعد للتضحية بسلامته الشخصية فى مقابل سعادة اللورد وراحته. كان حارسًا مخلصا يظل إلى جوار سيده دائما. وربما كان معه المقويات والمنشطات وجميع اللوازم الطبية. وتساءل قائد الطائرة عن سبب عدم وجود طبيب بين الحضور. كان ذلك بمثابة إجراء وقائى إضافى. وبدا الرجل العجوز مثل رأس الموت. رأس موت نبيل، شىء ما مصنوع من الرخام فى أحد المتاحف. وكان قائد الطائرة يعرف هنرى هورشام جيدا؛ فقد كان يعلم كثيرًا من مجموعة الأمن. والكولونيل مونرو، كان أكثر قلقًا وأقل حدة على غير المعتاد. على العموم، لم يكن سعيدا. وكان معهم أيضا رجل ضخم أصفر الوجه. ربما كان رجلاً أجنبيًا. هل هو آسيوى؟ ما الذى يفعله بالسفر طيرانًا إلى شمال اسكتلندا؟ وقال قائد الطائرة للكولونيل مونرو باحترام:

‘‘هل وُضِع كل شىء يا سيدى؟ السيارة فى انتظاركم’’.

‘‘ما هى طول المسافة بالضبط؟’’.

‘‘سبعة عشر ميلا يا سيدى، طريق وعر لكنه ليس سيئا. توجد أغطية إضافية فى السيارة’’.

‘‘هل لديك أوامر؟ كرر ما قلته يا قائد الطائرة آندروز’’.

كرر قائد الطائرة ما قاله وأومأ الكولونيل إيماءة تنم عن الرضا. وعند انطلاق السيارة أخيرا، تابعها قائد الطائرة ببصره سائلا نفسه عن سبب قيام هؤلاء الأشخاص المهمين بهذه الرحلة الصعبة وسط هذه المستنقعات ليصلوا إلى قلعة قديمة مهيبة يعيش بها رجل مريض كالناسك بدون أصدقاء أو زوار بعيدًا عن السياق الطبيعى للحياة. من المؤكد أن هورشام يعلم الكثير من الأشياء الغريبة. أوه، حسنًا، على أية حال لم يكن يبدو أن هورشام سيخبره بأى شىء.

كانت السيارة جيدة وتمت قيادتها بحذر. وأخيرا هدأت من سرعتها على طريق مغطى بالحصى وتوقفت أمام الرصيف. كان هناك مبنى به العديد من الأبراج المصنوعة من الحجارة الثقيلة. وكانت المصابيح معلقة على جانبى الباب الضخم. وقبل أن يقوموا برن الجرس أو يطلبوا الإذن بالدخول فُتِحَ الباب.

ووقفت سيدة اسكتلندية عجوز فى الستينات من عمرها بوجه عابس وصارم عند مدخل الباب. وساعد السائق الركاب على النزول من السيارة.

وساعد جيمس كليك وهورشام اللورد أولتماونت على الترجل من العربة وأسندوه أثناء صعوده على درجات السلم. ووقفت المرأة الاسكتلندية العجوز جانبا وانحنت له انحناءة احترام قائلة:

‘‘مساء الخير سيادة اللورد. سيدى فى انتظاركم؛ فهو يعلم بوصولكم. لقد أعددنا لكم حجرات للنوم وجهزنا كل منها بالمدافئ’’.

وفى تلك الأثناء، دخل إلى الردهة شخص آخر ـ سيدة طويلة وهزيلة يتراوح عمرها بين الخمسين والستين، سيدة ما زالت جميلة. وكان شعرها الأسود مفروقا من المنتصف، وكانت لها جبهة مرتفعة وأنف معقوفة وبشرة بها سُمْرَة نتيجة التعرض للشمس.

قالت المرأة الاسكتلندية: ‘‘الآنسة نيومان موجودة هنا لتعتنى بكم’’.

قالت الآنسة نيومان: ‘‘شكرا لكِ، جانيت. تأكدى أن نار المدفأة مازالت مشتعلة فى الغرف’’.

‘‘سأفعل ذلك’’.

تصافح اللورد أولتماونت مع الآنسة نيومان قائلاً:

‘‘مساء الخير، آنسة نيومان’’.

‘‘مساء الخير، أيها اللورد أولتماونت. آمل ألا تكون مرهقًا من رحلتك’’.

‘‘قمنا برحلة جوية جيدة للغاية. هذا هو الكولونيل مونرو، آنسة نيومان. وهذا هو السيد روبنسون، والسير جيمس كليك والسيد هورشام، من قسم الأمن القومى’’.

‘‘أتذكر أننى قابلت السيد هورشام منذ سنوات مضت على ما أعتقد’’.

قال هنرى هورشام: ‘‘لم أنس، كان ذلك فى مؤسسة ليفيسون. هل كنت ـــ على ما أعتقد ـــ سكرتيرة البروفيسور شورهام فى ذلك الوقت؟’’.

‘‘فى البداية كنت مساعدته فى المعمل، وأصبحت سكرتيرته بعد ذلك. وما زلت سكرتيرته مادام فى حاجة إلى واحدة. وكان عليه أيضًا الحصول على ممرضة مستشفى لتعيش هنا بشكل مؤقت. كان هناك تغيير فى الممرضات من وقت لآخر ـــ والآن توجد السيدة إليس التى تسلمت العمل من الآنسة بيود منذ يومين فقط. وقد اقترحت عليها أن تبقى قريبة ومتاحة فى الغرفة التى سنكون بها. أعتقد أنكم تحبون الخصوصية، لكن يجب أن تكون متواجدة إذا ما احتجنا إليها’’.

سألها الكولونيل مونرو: ‘‘هل هو بحالة صحية سيئة للغاية؟’’.

قالت الآنسة نيومان: ‘‘هو لا يعانى فعليًا، لكن عليك أن تجهز نفسك إذا كنت لم تره منذ فترة طويلة، وأنتم كذلك. إنه مجرد بقايا رجل’’.

‘‘اسمحى لى بدقيقة قبل أن تأخذينا إليه. هل ضعفت قواه العقلية بشكل حاد؟ هل يمكنه فهم ما يقوله الآخرون؟’’.

‘‘أوه، نعم. يمكنه أن يفهم بشكل ممتاز لكن بوصفه مصابا بشلل نصفى؛ فهو غير قادر على الحديث، رغم أن الأمر يختلف من وقت إلى آخر، وهو غير قادر على السير بدون مساعدة. وفى رأيى، أرى أن عقله جيد كما كان دائما. لكن الفرق الوحيد هو أنه يصاب بالإرهاق من أقل الأشياء جهدًا. والآن، هل تفضلون تناول بعض المشروبات المنعشة؟’’.

قال اللورد أولتماونت: ‘‘لا. لا، لا أرغب فى الانتظار. فالأمر الذى أتينا لأجله أمر عاجل للغاية، لذلك هل بإمكانك أن تأخذينا إليه الآن، فهو يتوقع قدومنا على ما أعتقد، أليس كذلك؟’’.

قالت ليزا نيومان: ‘‘نعم، إنه ينتظر قدومكم’’.

وقادتهم عبر بعض درجات السلم، وساروا فى رواق طويل وفتحوا حجرة متوسطة الحجم كان بها بساط حائط على الجدران، وكانت رؤوس الأيائل المعلقة على الحائط تنظر إليهم، لقد كان هذا المكان فى السابق مقرًّا لصياد. لقد تغير المكان قليلاً فى أثاثه أو فى ترتيب هذا الأثاث. وكان هناك جهاز تسجيل كبير فى إحدى جوانب الغرفة.

جلس الرجل الطويل فى كرسى قريب من المدفأة، واهتزت رأسه قليلاً، وكذلك يده اليسرى، وكانت بشرة وجهه غير سليمة فى أحد جانبى الوجه. وبدون أن نطيل الحديث، يمكن للمرء أن يصفه بكلمة واحدة، بقايا إنسان. رجل كان طويلا وعنيدا وقويا. كان له جبهة صافية، وعينان فاحصتان وذقن خشن يوحى بالعزم والإصرار. وكانت العينان الكامنتان أسفل الحاجبين الثقيلين، يشع منهما الذكاء. وقال شيئا ما. ولم يكن صوته بالضعيف، كانت تصدر عنه أصوات واضحة ولكن من الصعب التعرف عليها. فقد ذهبت قدرة التحدث لديه نسبيًا، ومع ذلك فما زال يمكن فهمه.

وبدأت ليزا نيومان فى الوقوف إلى جانبه وهى تراقب شفتيه ليمكنها تفسير ما يقوله إذا تطلب الأمر.

‘‘البروفيسور شورهام يرحب بكم. وهو سعيد جدا لرؤيتكم هنا لورد أولتماونت، كولونيل مونرو، سير جيمس كليك، والسيد روبنسون، والسيد هورشام. وهو يسره أن يجعلنى أخبركم أن سمعه جيد إلى حد كبير؛ فهو سيتمكن من سماع كل شىء تقولونه له. ويمكننى المساعدة إذا كانت هناك أية صعوبات. وكل ما يرغب فى قوله سيتم نقله من خلالى. وإذا أرهق للغاية من النطق، يمكننى قراءة شفتيه وهو بارع جدا فى لغة الإشارة إن كانت هناك أية صعوبات’’.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘سأحاول ألا أضيع وقتك ولن أعمل على إرهاقك بروفيسور شورهام’’.

هز الرجل الجالس على الكرسى رأسه بعبارات التقدير قائلا:

‘‘يمكننى توجيه بعض الأسئلة عن طريق الآنسة نيومان’’.

وأشار شورهام بيده إشارة بسيطة نحو المرأة الواقفة بجواره. وخرجت أصوات من بين شفتيه لم يمكنهم فهمها تماما، لكنها ترجمت لهم الكلمات بسرعة قائلة:

‘‘يقول إن بإمكانه الاعتماد علىّ فى قول أى شىء ترغبون فى قوله له أو فيما سيقوله لكم’’.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘أعتقد أنك قد تلقيت خطابا منى’’.

فتحت ممرضة المستشفى الباب قليلاً ـــ لكنها لم تدخل، وقالت هامسة:

‘‘هل هناك أى شىء يمكننى إحضاره أو عمله، آنسة نيومان، لأى من الضيوف أو للبروفيسور شورهام؟’’.

‘‘لا أعتقد ذلك، شكرا لكِ آنسة إليس. وسأكون سعيدة إن كان بإمكانك البقاء فى غرفة جلوسك الموجودة فى نهاية الردهة، تحسبًا لاحتياجنا لأى شىء’’.

‘‘بالتأكيد، أتفهم ذلك تماما’’. وذهبت مغلقة الباب وراءها برفق.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘لا نحتاج إلى تضييع الوقت. من المؤكد أن البروفيسور شورهام يتابع الأحداث الجارية’’.

قالت الآنسة نيومان: ‘‘تماما، بقدر اهتمامه’’.

‘‘هل ما زال متابعا للتطورات العلمية وهذه الأشياء؟’’.

هز روبرت شورهام رأسه برفق من جانب إلى آخر مجيبًا بنفسه:

‘‘لقد كففت عن الاهتمام بكل هذه الأمور’’.

‘‘لكن، هل تعلم تماما حالة العالم الآن؟ ونجاح ما يسمى بثورة الشباب. والسيطرة على السلطة من قبل قوات شابة مسلحة تسليحًا كاملاً’’.

قالت الآنسة نيومان: ‘‘إنه يتابع كل ما يحدث فى العالم ـــ خاصة الحقل السياسى’’.

‘‘لقد استسلم العالم للعنف، والألم، والعقائد الثورية، وفلسفة غريبة لا يمكن تصديقها للحكم بأقلية فوضوية’’.

ظهرت نظرة تدل على نفاد الصبر على ملامح الوجه النحيل.

قال السيد روبنسون متحدثًا فجأة: ‘‘هو يعلم كل هذا. ليست هناك حاجة لتكرار الحديث عن العديد من الأشياء. فهو رجل يعرف كل شىء’’.

ثم قال:

‘‘هل تتذكر الأدميرال بلانت؟’’.

تقوست ملامح الوجه مرة أخرى، وظهر شيء مثل الابتسامة على شفتيه المنحرفتين.

‘‘يتذكر الأدميرال بلانت مشاركة علمية قمتَ بها فى مشروع معين ـــ أعتقد أن المشروع هو مشروع بينفو’’.

رأوا فى عينيه نظرة حذر وانتباه.

قالت الآنسة نيومان: ‘‘المشروع بينفو. إنه كان منذ فترة طويلة للغاية يا سيد روبنسون، أطول مما يمكن للبروفيسور أن يتذكره’’.

قال السيد روبنسون: ‘‘كان ذلك مشروعك أنت، أليس كذلك؟’’.

تحدثت الآنسة نيومان نيابة عن البروفيسور بشكل أكثر طلاقة لأن الأمر كان طبيعيًا ومعلومًا فقالت: ‘‘نعم، كان ذلك مشروعه’’.

‘‘لا يمكننا استعمال الأسلحة النووية، لا يمكننا استعمال المتفجرات أو الغازات أو الكيمياء. لكن يمكننا استعمال مشروعك أنت، المشروع بينفو’’.

ساد هدوء تام فى الحجرة ولم يتحدث أى فرد. وبعد ذلك صدرت أصوات غريبة ومشوهة من بين شفتى البروفيسور شورهام.

قالت الآنسة نيومان: ‘‘يقول، بالطبع. يمكن أن يكون بينفو مفيدا فى هذه الظروف التى وجدنا أنفسنا فيها ـــــ’’

استدار الرجل الجالس على الكرسى إليها وكان يقول لها شيئًا ما.

وقالت الآنسة نيومان: ‘‘يريد أن يشرح لكم شيئا ما. كان المشروع ‘‘بى’’، الذى سُمِى فيما بعد بالمشروع بينفو، مشروعًا عُمل عليه لسنوات عديدة لكنه فى النهاية نحاه جانبا لأسباب خاصة به’’.

‘‘هل لأنه فشل فى تحقيق مشروعه على أرض الواقع؟’’.

قالت ليزا نيومان: ‘‘لا، هو لم يفشل. لم نفشل. لقد عملت معه فى هذا المشروع. وقد نحاه جانبا لأسباب محددة لكنه لم يفشل. لقد نجح. فقد كان يسير على الطريق الصحيح، وطور هذا الاختراع، واختبره فى تجارب معملية مختلفة ونجح الأمر’’. واستدارت إلى البروفيسور شورهام ثانية، وقامت بعدة حركات بيدها ولمست شفتيها وأذنها وفمها بنوع غريب من الإشارة المشفرة.

‘‘أنا أسأله إن كان يرغب فى شرح ما يقوم به مشروع بينفو’’.

‘‘نحن نريده أن يشرح بكل تأكيد’’.

‘‘وهو يريد أن يعلم كيف عرفتم به’’.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘عرفنا عن هذا المشروع، من خلال أحد أصدقائك القدامى يا بروفيسور شورهام. ليس الأدميرال بلانت، فقدرته على التذكر ضعيفة،

لكن عن طريق الشخص الآخر الذى تحدثت له عن الأمر، عن طريق الليدى ماتيلدا كليكهيتون".

ومرة أخرى، استدارت الآنسة نيومان إليه وراقبت شفتيه. وابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت:

"يقول إنه اعتقد أن ماتيلدا قد ماتت منذ سنوات مضت".

"هى لاتزال على قيد الحياة. وهى مَن وجهتنا لكى نستعلم عن اكتشاف البروفيسور شورهام".

"سيخبركم البروفسيور شورهام بالنقاط الرئيسية عما تريدون معرفته، رغم أنه يحذركم أن هذه المعلومات لن تكون ذات فائدة بالنسبة لكم. فقد تم تدمير جميع الأوراق، والمعادلات والتقارير، والأدلة على هذا الاكتشاف. لكن طالما أن الطريقة الوحيدة للإجابة على سؤالكم هى أن تعلموا الخطوط الرئيسية للمشروع بينفو، يمكننى إخباركم بتلك النقاط الرئيسية. تعلمون استخدامات وأغراض الغاز المسيل للدموع عندما تستعمله قوات الشرطة للتحكم فى جموع مثيرى الشغب؛ والمظاهرات العنيفة وغيرها. وذلك يسبب نوبة من البكاء والدموع المؤلمة والتهاب فى تجويف العين".

"وهل هذا شىء من هذا القبيل؟".

"لا، لا يشبهه على الإطلاق، لكن قد يكون له نفس الغرض. لكن العلماء فكروا فى أنه ليس بإمكانهم تغيير ردود فعل البشر وأحاسيسهم الرئيسية فقط، بل يمكنهم أيضًا تغيير خصائصهم العقلية. يمكنك تغيير شخصية البشر. فخصائص العقار المثير للشهوة معروفة للجميع. فهو يؤدى إلى حالة من الرغبة، وهناك الكثير من عمليات العقاقير أو الغازات أو الغدد ـــ وأى من هذه الأشياء قد يؤدى إلى تغيير فى نشاطك العقلى، فهو يثير النشاط بتنبيه نشاط الغدة الدرقية، ويود البروفيسور شورهام أن يخبركم عن وجود عملية محددة ـــ وهو لن يخبركم عما إذا كانت غُدّية أو غاز يمكن تصنيعه، لكن هناك شيئًا يمكنه تغيير الفرد البشرى فيما يخص نظرته للحياة ـــ رد فعله تجاه الناس إلى الحياة بشكل عام. قد يكون فى حالة الغضب القاتل الذى يؤدى به إلى الانتحار، وقد يكون عنيفا بشكل غير طبيعى، وبفعل تأثير المشروع بينفو يتحول إلى شىء، أو شخص ما، مختلف تماما. ويصبح ـــ أعتقد أن هناك كلمة واحدة تجسد هذا الاسم ـــ يصبح خيِّرًا، ويرغب فى إفادة الآخرين. فهو يشع طيبة، ويصبح لديه رعب من التسبب فى الألم أو العنف أو إيذاء الآخرين. ويمكن تجربة بينفو على منطقة كبيرة، ويمكن أن يؤثر فى المئات والآلاف من الأشخاص إذا تم تصنيعه فى كميات كبيرة بشكل كافٍ، وإذا تم توزيعه بنجاح".

سأله الكولونيل مونرو: "ما طول المدة التى يبقى فيها أثر هذا الشىء؟ هل يظل لمدة أربع وعشرين ساعة؟ أم أكثر من ذلك؟".

قالت الآنسة نيومان: "أنت لا تفهم، إنه مستمر".

‘‘مستمر؟ لقد غيرت طبيعة الإنسان، لقد نبهت مكونا وهو مكون جسدى بالطبع نتج عنه هذا التغير الدائم فى طبيعته. ولا يمكنك التراجع عن ذلك؟ لا يمكنك وضعه فيما كان عليه ثانية. هل يجب قبول ذلك كتغيير دائم؟’’.

‘‘نعم. فى البداية، ربما كان ذلك اكتشافا ذا فائدة طبية أكثر، لكن استنتج البروفيسور شورهام أن ذلك قد يكون بمثابة رادع يمكن استخدامه فى الحروب، وفى الثورات الكبيرة، وأعمال الشغب، والثورات، وأعمال الفوضى. لم يفكر فيه كمجرد دواء طبى. فهو لا يؤدى إلى الإحساس بالسعادة إزاء موضوع معين، بل ينتج عنه مجرد رغبة عظيمة فى إسعاد الآخرين. وهو يقول إن ذلك أثر يشعر به كل شخص فى حياته من وقت إلى آخر. تكون لديهم رغبة كبيرة فى جعل شخص ما، شخص واحد أو العديد من الأشخاص ـــ مرتاحين، وسعداء، وفى صحة جيدة، وما إلى ذلك. وطالما أن الأشخاص يمكنهم الشعور بهذه الأشياء ويشعرون بها بالفعل فقد اعتقد كلانا أن هناك شيئًا فى جسد الإنسان يتحكم فى هذه الرغبة، وإذا استطعت دفع هذا الشىء للعمل دائما، يمكنه أن يعمل إلى الأبد’’.

قال السيد روبنسون: ‘‘هذا رائع’’.

قال عبارته السابقة بطريقة تنطوى على تفكير وعقلانية أكثر مما تنطوى عليه من حماس.

‘‘رائع. يا له من شىء اكتشفته. يا له من شىء إن تمكنت من وضعه موضع تنفيذ ـــ لكن لماذا؟’’.

تحول الرأس المستند على مسند الكرسى ببطء تجاه السيد روبنسون. وقالت الآنسة نيومان:

‘‘يقول إنك تفهم أفضل من الآخرين’’.

قال جيمس كليك: ‘‘لكن هذه هى الإجابة. إنها الإجابة الدقيقة! إنه أمر رائع’’. وكانت تبدو على وجهه ملامح الإثارة والحماس.

كانت الآنسة نيومان تهز رأسها، وهى تقول:

‘‘المشروع بينفو ليس للبيع وليس للهبة. فقد تخلينا عنه’’.

قال الكولونيل مونرو بريبة: ‘‘هل تخبريننا أن الإجابة هى: لا؟’’.

‘‘نعم. يقول البروفيسور شورهام إن الإجابة لا. وهو مصمم على أن المشروع ضد ـــــ’’، وتوقفت لدقيقة ثم عادت لتنظر إلى الرجل الجالس على المقعد. كان يحرك رأسه وإحدى يديه بإشارات وإيماءات غريبة، وصدرت القليل من الأصوات الحلقية من فمه. وانتظرته حتى انتهى من ذلك ثم قالت: ‘‘سيخبركم بنفسه، كان خائفا. كان يخشى ما يفعله العلم فى لحظة انتصاره. الأشياء التى تم اكتشافها ومعرفتها، والأشياء التى تم اكتشافها وتقديمها إلى العالم، والعقاقير المدهشة التى لم تكن دائما عقاقير مدهشة بالمعنى المفهوم والبنسلين الذى أنقذ أرواح البشر والبنسلين الذى أخذ أرواح البشر، وعمليات زرع القلب التى سببت لناخبيه أمل وإحباطًا من موت لم يكن متوقعًا. لقد عاش فترة الانشطار النووى؛

أسلحة جديدة قتلت الكثيرين. ومآسى النشاط الإشعاعى؛ والتلوث الذى جلبته لنا الاكتشافات الصناعية الحديثة. كان دائمًا خائفًا مما يمكن أن ينتج عن العلم، وإذا تم استخدامه بأسلوب غير حكيم".

صاح مونرو قائلاً: "لكن هذه منفعة. منفعة لكل شخص".

"وكذلك كانت العديد من الأشياء. يقابلونها عادة كمنفعة عظيمة للبشرية، كعجائب الدنيا، وبعد ذلك تأتى أعراضها الجانبية، والأسوأ من ذلك حقيقة أنها لا تجلب أية فوائد على البشرية، بل تجلب الكوارث فقط؛ لذلك فقد قرر التوقف عن ذلك. كما أنه يقول ـ"، وراحت تقرأ من ورقة كانت ممسكة بها، وكان البروفيسور جالسا بجوارها يومئ برأسه موافقا على ما تقول ـــــ

"أنا راضٍ لأننى فعلتُ ما كان علىّ فعله، فقد انتهيت من اكتشافى. لكنى قررت ألا أنشره وأجعله متداولاً؛ لأنه يجب تدميره. ولذلك فقد تم تدميره. لذلك فإجابتى عليكم هى: لا. الخير لا يوجد فى أنبوب اختبار. ربما كان هناك ذات مرة. لكن الآن قد تلاشت كل المعادلات وكل أساليب إعداد المكونات والملاحظات والتقارير الخاصة بالإجراءات اللازمة ـــ أحرقت وتحولت إلى رماد ـــ لقد حطمت بنات أفكارى".

2

تكلم روبرت شورهام بصعوبة قائلاً:

"لقد دمرت بنات أفكارى ولا يعرف أى شخص فى العالم كيف توصلت إلى ذلك. وقد ساعدنى شخص واحد فى ذلك لكنه ليس على قيد الحياة. مات من السل بعد عام من نجاح المشروع. يجب أن ترحلوا، لا يمكننى مساعدتكم".

"لكنك بمعرفتك هذه يمكنك إنقاذ العالم!".

صدر عن الرجل الجالس على المقعد ضوضاء غريبة، كانت ضحكة، ضحكة رجل قعيد.

"إنقاذ العالم. إنقاذ العالم! يا لها من عبارة! هذا ما يفعله شبابكم، إنهم يفكرون! إنهم يستمرون فى العنف والكراهية لإنقاذ العالم. لكنهم لا يعرفون الطريقة! سيكون عليهم التوصل إليها بأنفسهم، من قلوبهم، ومن عقولهم. لا يمكننا إعطاؤهم طريقة صناعية للقيام بذلك. لا. هل سنعطيهم خيرًا صناعيًّا؟ أم هل سنعطيهم صلاحًا صناعيًّا؟ لن يتحقق أى من ذلك. لن يكون ذلك حقيقيًا. ولن يعنى أى شىء. سيكون ذلك مضادًا للطبيعة". ثم قال ببطء: "ضد إرادة الله".

جاءت الكلمتان الأخيرتان بشكل غير متوقع، وقد نطق بهما بوضوح.

ونظر حوله إلى مستمعيه. بدا كما لو كان يرجو منهم أن يفهموا، ولكنه فى الوقت نفسه، لم يكن لديه أى أمل حقيقى فى أن يستوعبوا ذلك.

"لدىّ الحق فى تدمير ما صنعته ـــــ".

قال السيد روبنسون: ‘‘أشكك فى هذا كثيرًا. فالمعرفة هى المعرفة. فما صنعته ـــ ما جلبته للحياة ليس عليك تدميره’’.

‘‘لديك مطلق الحرية فى رأيك ـــ لكن الحقيقة هى أن عليك قبول الأمر الواقع’’.

‘‘لا’’. قال السيد روبنسون هذه الكلمة بقوة.

واستدارت له ليزا نيومان قائلة بغضب:

‘‘ما الذى تقصده بـ ‘‘لا’’؟’’.

كانت عيناها تلمعان. قال السيد روبنسون لنفسه إنها امرأة جميلة. امرأة ربما كانت تحب روبرت شورهام طوال حياتها. لقد أحبته، وعملت معه، وهى الآن تعيش بجانبه، وتخدمه بعقلها، وهى تقدم له الإخلاص فى أنقى صوره بدون أية شكوى.

قال السيد روبنسون: ‘‘هناك أشياء يعلمها المرء فى سياق حياته. ولا أعتقد أن حياتى ستكون طويلة. فأنا أيضا أحمل عبئا ثقيلا على كاهلى’’، وتنهد قليلا وهو ينظر إلى جسده ثم قال: ‘‘لكننى أعلم بعض الأشياء. أنا محق وأنت تعلم ذلك يا شورهام. سيكون عليك الاعتراف بأننى محق أيضا. أنت رجل مخلص. ولم تدمر عملك. من المؤكد أن نفسك لم تسول لك هذا. ربما يكون لديك المشروع مخفيا فى مكان مغلق، ربما ليس فى هذا المنزل. وأنا أخمن، أنا أخمن فقط، أنك وضعته فى مكان ما كوديعة آمنة أو فى أحد البنوك. وهى تعلم أنك وضعته هناك أيضا. أنت تثق بها. هى الشخص الوحيد فى العالم الذى يمكنك الوثوق به’’.

قال شورهام، وفى هذه المرة كان صوته واضحًا تقريبا:

‘‘من أنت؟ أى شيطان أنت بحق السماء؟’’.

قال السيد روبنسون: ‘‘أنا مجرد رجل يعلم كيفية التعامل مع النقود والأشياء التى تتفرع منها. الأشخاص وخصوصياتهم وما يفعلونه فى الحياة. إذا رغبت، يمكنك أن تستعيد العمل الذى تخليت عنه. أنا لا أقول إن بإمكانك القيام بنفس المشروع فى الوقت الحالى، لكنى أعتقد أنه فى مكان ما. أخبرنا بوجهة نظرك، ولن أقول إنها خاطئة بالكامل’’.

‘‘ربما تكون محقا. فمنفعة البشرية ليست أمرًا يسيرًا. يالك من مسكين يا بيفيردج: التحرر من الرغبة، التحرر من الخوف، الحرية من أى شىء كان، اعتقد أنه كان يصنع جنة على الأرض بقوله ذلك والتخطيط له وتنفيذه. لكن لم يحقق ذلك جنة على الأرض ولا أعتقد أن بينفو الخاص بك أو مهما كان ما تسميه (يبدو اسمه مثل طعام المرضى) سيجلب الجنة على الأرض. فالخير له مخاطره مثل أى شىء آخر. فما سيفعله هو منع القليل من المعاناة، والألم، والفوضى، والعنف، والاستسلام للمخدرات. نعم، سيوفر علينا حدوث الكثير من الأشياء السيئة، وربما يوفر شيئًا ما مهما. وربما

مجرد احتمال ـــ يصنع فرقا عند بعض الناس. الشباب. هؤلاء الخيرون أتباعك ـــ لقد جعلت الاسم يبدو كأنه منظف صناعى ـــ سيجعلون البشر أخيارًا وأعترف

أن ذلك ربما يجعلهم لطفاء ونظيفين، وراضين عن أنفسهم. لكن هناك فرصة أيضا أنك إذا غيرت طبيعة البشر بالقوة واستمروا على هذه الطبيعة الجديدة حتى يموت واحد أو اثنان منهم ـــ ليس كثيرا منهم ـــ وربما يكتشفوا أن لديهم نداء داخليًّا للتواضع وليس الفخر لما أجبروا على عمله. أقصد تغيير أنفسهم بالفعل قبل أن يموتوا. ولن يصبحوا قادرين على التخلص من العادات الجديدة التى تعلموها''.

قال الكولونيل مونرو: ''لا أعلم ما الذى تتحدثون عنه''.

قالت الآنسة نيومان: ''إنه يتفوه بكلام لا معنى له. لقد حصلتم على إجابة البروفيسور شورهام. فهو سيفعل ما يحلو له باكتشافاته. لا يمكنكم إجباره''.

قال اللورد أولتماونت: ''لا، لن نكرهك على شىء أو نعذبك يا روبرت ولن نجبرك على إظهار مخابئك السرية. ستفعل ما تراه صحيحا، وهذا أمر لا نقاش فيه''.

قال روبرت شورهام: ''إدوارد؟''.

وخذلته قدرته على الكلام مرة أخرى، فأخذ يلوح بيده، وعادت الآنسة نيومان تترجم ما يقوله بسرعة:

''هو يطلب من اللورد أولتماونت ـــ إن كان هو بالفعل ـــ أن يضع مشروع بينفو تحت ولايته ويعتنى به بكل طاقته. وهو

يقول ـــ''، وتوقفت تراقب وتستمع ـــ ''يقول إنك الرجل الوحيد فى الحياة العامة الذى وثق به دائما. وإن كانت هذه هى رغبتك أنت ـــ''،

نهض جيمس كليك على قدميه فجأة قلقا وسريعا يتحرك مثل البرق، ووقف بجوار مقعد اللورد أولتماونت.

''دعنى أساعدك يا سيدى. فأنت مريض ولست بحالة جيدة. رجاءً تراجعى للخلف قليلا آنسة نيومان. أنا ـــ أنا يجب علىّ الوصول إليه. أنا ـــ أنا معى أدويته هنا. أنا أعلم ما أفعله ـــ''.

وضع يده فى جيبه وأخرج منها محقنة مجهزة ليتم أخذها تحت الجلد.

''إذا لـم يحصـل على هذه حالا سيزداد الأمر سوءًا ـــ''. وأمسك بذراع اللورد أولتماونت، وشمر عن أكمام قميصه وغرس أصابعه بين لحم ذراع اللورد، وكان ممسكا بيده الأخرى المحقنة جاهزة.

لكن شخصًا آخر تحرك. فقد عبر هورشام الحجرة ودفع الكولونيل مونرو جانبا: وأمسك بيديه جيمس كليك فى نفس الوقت الذى كسر فيه المحقنة ورماها بعيدًا. وجاهد كليك ليهرب من هورشام لكن كان هورشام قويًّا جدًّا بالنسبة إليه. وكان مونرو هنا أيضًا.

وقال: ''إذن، كنت أنت يا جيمس كليك، كنت أنت الخائن، تابع مخلص لم يكن تابعا مخلصا''.

انطلقت الآنسة نيومان إلى الباب ـــ وفتحته على مصراعيه وصاحت قائلة.

‘‘أيتها الممرضة! تعالى بسرعة. تعالى’’.

وظهرت الممرضة. وألقت نظرة واحدة سريعة على البروفيسور لكنه أشار لها عبر الحجرة إلى المكان الذى ما زال يمسك به هورشام ومونرو بكليك الذى ما زال يقاومهما. ودست يدها فى جيب زيها الرسمى.

تلعثم شورهام قائلا: ‘‘أنه أولتماونت. أزمة قلبية’’.

صرخ مونرو: ‘‘أزمة قلبية. إنها محاولة للقتل’’. ثم توقف.

قفز عبر الحجرة قائلا لهورشام: ‘‘أمسك بالفتى’’.

‘‘سيدة كورتمان؟ منذ متى دخلتِ فى مهنة التمريض؟ لم نركِ منذ أن فررتِ منا فى بلتيمور’’.

كانت ميلى جين مازالت تبحث فى جيبها. وفى النهاية، أخرجت يدها وبها مسدس آلى. ونظرت ناحية شورهام لكن مونرو أعاقها، فيما وقفت ليزا نيومان أمام مقعد شورهام.

صرخ جيمس كليك: ‘‘اقتلى أولتماونت يا جوانيتا، بسرعة ـــ اقتلى أولتماونت’’.

تحركت ذراعها بسرعة البرق وأطلقت النار.

قال جيمس كليك،

‘‘يا لها من رمية جيدة!’’.

كان اللورد أولتماونت قد نال تعليمًا كلاسيكيًّا، لذلك همهم بضعف قائلا لجيمس كليك:

‘‘جيمى؟ حتى أنت يا بروتس؟’’. وسقط منهارا على مسند مقعده.

3

نظر الطبيب ماكولوتش حوله غير متأكدا مما سيفعله أو يقوله بعد ذلك؛ فقد كانت هذه الليلة تجربة غير معتادة لديه إلى حد ما.

أتت إليه ليزا نيومان ووضعت كوبا بجواره.

وقالت: ‘‘مشروبا ساخنا’’.

ارتشف بضع رشفات منه وقال لها بصوت يحمل العرفان: ‘‘كنت أعرف دائما أنكِ امرأة تتحمل المسئولية يا ليزا.

ويجب القول إنى أرى معرفة ما الذى كان يدور حوله كل هذا الأمر ـــ لكننى فهمتُ أن ذلك الأمر سرى للغاية ولن يخبرنى أى شخص بأى شىء عنه’’.

‘‘البروفيسور ـــ هو بخير، أليس كذلك؟’’.

‘‘البروفسيور؟’’، ونظر إلى وجهها الملىء بالقلق ثم قال لها برقة: ‘‘هو بخير. وإذا سألتنى سأخبرك أن الأمور تتحسن كثيرا’’.

‘‘اعتقدت أن الصدمة ربما ـــــ’’.

قال شورهام وبدا عليه الاندهاش: ‘‘أنا بخير حال. فما كنت أحتاج إليه هو علاج من الصدمة. أشعر ـــ كيف يمكننى التعبير عن ذلك ـــ أننى عدت حيًّا ثانية’’.

قال ماكولوتش موجهًا كلامه إلى ليزا: ‘‘هل لاحظتِ كيف أصبح صوته أقوى؟ حقًّا من الغريب أن العدو فى مثل هذه الحالات ينخدع ببعض الحيل العقلية، فكل ما يحتاج إليه البروفيسور هو أن يعمل ثانية. فالموسيقى جيدة جدًا ـــ فهى تبقيه هادئا وقادرًا على الاستمتاع بالحياة بشكل لطيف. لكنه رجل لديه قوة عقلية عظيمة بالفعل ـــ وهو يفتقد النشاط العقلى الذى كان بمثابة جوهر الحياة بالنسبة له. عليك أن تجعليه يبدأ مرة أخرى إذا كان بمقدورك ذلك’’.

أومأ برأسه لها مشجعًا عندما نظرت إليه وهى تشعر بالحيرة.

قال الكولونيل مونرو: ‘‘أعتقد أيها الطبيب ماكولوتش أننا ندين لك ببعض التفسيرات لما حدث فى هذا المساء، رغم استنتاجاتك أن الأمر يتطلب سياسة التكتم الشديد. موت اللورد أولتماونت ـ’’، وتوقف عن الكلام مترددًا.

قال الطبيب: ‘‘لم تكن الرصاصة سببًا فى وفاته، فهذه الوفاة جاءت نتيجة للصدمة. من المؤكد أن الحقن بمادة الاستركنين تحت الجلد قد أتى بثماره. الشاب ـــــ’’.

قال هورشام: ‘‘لقد نزعتها من يده فى الوقت المناسب’’.

قال الطبيب: ‘‘هل كان العميل مرافقًا له منذ فترة طويلة؟’’.

‘‘نعم ـــ كنا ننظر له بثقة وتقدير طوال سبع سنوات. فهو ابن أحد أصدقاء اللورد أولتماونت القدامى ـــــ’’

‘‘حدث ما حدث. وماذا عن السيدة ـــ كانوا مشتركين فى الأمر معًا، هل ما فهمته صحيح؟’’.

‘‘نعم. لقد حصلت على تلك الوظيفة بشهادة مزورة. وهى أيضًا مطلوبة من الشرطة بتهمة القتل’’.

‘‘قتل؟’’.

‘‘نعم. قتل زوجها، سام كورتمان، السفير الأمريكى. لقد أطلقت عليه الرصاص على السلالم المؤدية إلى السفارة ـــ وأخبرتنا قصة بارعة عن شباب مقنَّعين قاموا بمهاجمته’’.

‘‘لماذا فعلت ذلك به؟ هل كان ذلك لسبب سياسى أم شخصى؟’’.

‘‘نعتقد أنه توصل إلى حقيقة بعض أنشطتها’’.

قال هورشام: ‘‘يمكننى القول إنه شك فى الخيانة الزوجية أولاً، ثم اكتشف بعد ذلك شبكة جاسوسية وتآمرية وأن زوجته هى من تدير كل هذه الأمور. لم يكن يعلم كيف يتعامل مع هذا الأمر. كان رجلا لطيفًا، لكنه بطىء التفكير ـــ لكن كان لديها حس التصرف السريع. كانت رائعة فى ادعائها الحزن والأسى فى المراسم التأبينية التذكارية’’.

قال البروفيسور شورهام: ‘‘تذكارية ـــــ’’

استدار الجميع ـــ الذين أصابتهم الدهشة ـــ لينظروا إليه.

‘‘من الصعب قول هذه الكلمة، تذكارى ـــ لكننى أعنيها. ليزا، علينا أن نبدأ فى العمل مرة أخرى’’.

‘‘لكن، يا روبرت ـــــ’’.

‘‘لقد عدت إلى الحياة ثانية. اسألى الطبيب إن كان يجب علىّ أن أتعامل مع الأمور ببساطة أم لا’’.

استدارت ليزا إلى الطبيب بنظرة متسائلة.

‘‘إذا فعلتَ ذلك، فستقصر حياتك وستدخل ثانية فى مرحلة الخمول والتجمد’’.

قال هورشام: ‘‘أسلوب القلق ـــ هذا هو أسلوب الطب فى هذه الأيام. فهم يجعلون أى شخص ـــ حتى وإن كان على وشك الموت ـــ يستمر فى العمل ـــــ’’.

ضحك الطبيب ماكولوتش ونهض واقفًا.

‘‘لم تخطئ كثيرًا، سأرسل لك بعض الأقراص لتساعدك’’.

‘‘لن أتناولها’’.

‘‘ستفعل ذلك’’.

وتوقف الطبيب وهو عند باب الحجرة قائلاً: ‘‘أريد أن أعلم فقط ـــ كيف أحضرتم الشرطة بهذه السرعة؟’’.

قال مونرو: ‘‘قائد الطائرة أندروز قام بكل ذلك؛ فقد وصل إلى نقطة الشرطة لأننا كنا نعلم أن المرأة فى مكان ما بالجوار لكن لم نكن نعلم أنها بالمنزل بالفعل’’.

‘‘حسنا ـــ سأرحل الآن. هل كل ما أخبرتمونى به حقيقيًّا؟ أشعر بأنى قد أستيقظ فى أى دقيقة بعد أن سقطت فى النوم فى منتصف أحد أفلام الإثارة. جواسيس، قتلة، خونة، تجسس، علماء ـــــ’’.

ثم خرج من الحجرة.

وساد الصمت فيها.

قال البروفيسور شورهام بحذر وبطء:

‘‘لِنَعُدْ إلى العمل ـــــ’’

قالت ليزا كما اعتادت النساء أن يقلن دائمًا:

‘‘عليك أن تكون حذرًا يا روبرت ـــــ’’.

‘‘لا، لن أكون حذرًا. قد يكون الوقت قصيرًا’’.

وقال ثانية:

‘‘الذكرى ـــــ’’.

‘‘ما الذى تعنيه؟ لقد قلتَ ذلك من قبل’’.

‘‘الذكرى؟ نعم. إلى إدوارد. ذكراه! كنت أرى دائمًا أن لديه وجه شهيد’’.

بدا أن شورهام مستغرق فى التفكير.

‘‘يسرنى أن أعثر على جوتليب. ربما يكون ميتا الآن. لكنه رجل ممتاز للعمل معه. فالعمل معه ومعك ـــ يا ليزا ـــ أمر ممتع. أحضرى الأشياء من البنك ـــــ’’.

قال السيد روبنسون: ‘‘البروفسيور جوتليب على قيد الحياة ـــ وهو موجود فى مؤسسة بيكر، بمدينة أوستن، مقاطعة تكساس’’.

قالت ليزا: ‘‘ما الذى تتحدث عن القيام به؟’’.

‘‘بينفو، بالطبع! إحياءً لذكرى إدوارد أولتماونت. فقد مات من أجله، أليس كذلك؟ لا يجب أن تذهب حياة أى شخص سدى’’.

الخاتمة

كتب السير ستافورد ناى برقية للمرة الثالثة وكان نصها:

زد بى 354 إكس بى دى إى بى إس واى

لقد رتبت لتنفيذ مراسم الزفاف الأسبوع القادم يوم الخميس فى فيل لوز ستونتون فى تمام الساعة الثانية والنصف. رجاء إبراق التعليمات والاسم اللذين تريدون إطلاقه على هذه الزيجة. ابنة أخى البالغة من العمر خمسة سنوات شقية وغير مطيعة للغاية وهى ترغب فى الحضور كوصيفة للعروس واسمها سيبيل، وهو اسم لطيف بالفعل. وسنقضى شهر العسل داخل البلاد لأننى أعتقد أننا سافرنا مؤخرا بما فيه الكفاية. التوقيع: مسافر إلى فرانكفورت.

إلى ستافورد ناى بى إكس واى 42698

لقد قبلت سيبيل وصيفة لى وأنا أقترح أن تكون العمة ماتيلدا هى وصيفة الشرف لى. قبلتُ عرض الزواج على الرغم من أنك لم تتقدم به رسميًا. وترتيبات الزواج مُرضية وكذلك ترتيبات شهر العسل. أصر على ضرورة حضور الباندا. لا فائدة من إخبارك أين أنا لأننى لن أكون موجودة عندما تصل هذه البرقية إليك. توقيع مارى آن.

‘‘هل يبدو مظهرى جيدا؟’’. سأل ستافورد ناى هذا السؤال وهو يلوى عنقه لينظر فى المرآة.

كان يقوم ببروفة لملابس زفافه.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘ليس أسوأ من أى عريس، فهم عصبيون كالعادة. على عكس العرائس اللاتى يكن دائمًا مبتهجات بشكل واضح’’.

‘‘هل تعتقدين أنها لن تأتى؟’’.

‘‘ستأتى’’.

‘‘أشعر ـــ أشعر ـــ أشعر بأن هناك شيئًا غريبًا فى داخلى’’.

‘‘هذا لأنك ستأكل طبقًا من كبد الإوز مرة أخرى. كل ما فى الأمر أنك متوتر مثل جميع العرسان. لا تقلق كثيرا يا ستافى. فى المساء ستكون على ما يرام ـــ أقصد ستكون على ما يرام عندما تصل إلى حفل الزفاف’’.

‘‘هذا يذكرنى ـــ’’.

‘‘لم تنس شراء خاتم الزواج، أليس كذلك؟’’.

‘‘لا، لا، لقد نسيت أن أخبرك فقط أن لدى ّهدية لكِ يا عمتى ماتيلدا’’.

‘‘هذا لطف كبير منك، يا ولدى العزيز’’.

‘‘قلتِ إن عازف الأرغن قد رحل ـــ’’

‘‘نعم، الحمد لله’’.

‘‘لقد أحضرت لكِ عازفا جديدا’’.

‘‘ستافى، حقا، يا لها من فكرة رائعة! من أين جئت به؟’’.

‘‘من بافاريا ـــ وهو يغنى بصوت ملائكى’’.

‘‘لا نريده أن يغنى، سيكون عليه العزف على الأرغن’’.

‘‘يمكنه فعل ذلك أيضًا ـــ إنه موسيقى موهوب جدًّا’’.

‘‘ما الذى جعله يرغب فى الرحيل عن بافاريا والعودة إلى إنجلترا؟’’.

‘‘توفيت والدته’’.

‘‘أوه يا عزيزى، هذا ما حدث لعازف الأرغن الخاص بنا. يبدو أن والدات عازفى الأرغن ضعيفات للغاية. هل سيحتاج إلى الرعاية؟ أنا لست جيدة فى ذلك الأمر’’.

‘‘يمكننى القول إن بعض اهتمام الجدة أو الجدة الكبرى سيؤتى بثماره’’.

وانفتح الباب ودخلت منه فجأة ـــ طفلة جميلة كالملاك ترتدى ملابس نوم وردية اللون مرسومًا عليها براعم صغيرة ـــ وقالت بلهجة عذبة كما لو كانت تتوقع ترحيبا هائلاً:

‘‘هذه أنا’’.

‘‘سيبيل، لماذا لم تذهبى لفراشك حتى الآن؟’’.

‘‘الأمور ليست سارة جدا فى دار الحضانة ـــ’’.

‘‘وهذا يعنى أنك فتاة شقية، والمربية غير راضية عنكِ. ما الذى فعلتِه؟’’.

نظرت سيبيل إلى السقف وبدأت فى القهقهة.

‘‘كانت مجرد يرقة فراشة ـــ يحيط بها الفرو. ووضعتها عليها ونزلت بمفردها إلى الأسفل هنا’’.

وأشار إصبع سيبيل إلى منطقة فى مؤخرة عنقها.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘لا أستغرب أن المربية كانت غاضبة جدًا ـــ يا للقرف’’.

وفى تلك اللحظة دخلت المربية، وقالت إن الآنسة سيبيل كانت أكثر شقاوة من الطبيعى، ولم تقل دعاء ما قبل النوم، ولم تذهب إلى سريرها.

تسللت سيبيل إلى جانب الليدى ماتيلدا.

‘‘أرغب فى أن أدعو وأبتهل معك، يا ماتيلدا ـــ’’.

‘‘جميل ـــ لكن تذهبين بعد ذلك مباشرة إلى السرير’’.

‘‘أوه نعم، يا ماتيلدا’’.

ركعت سيبيل على ركبتيها، وضمت يديها، وهمهمت بأصوات غريبة بدا أنها مرحلة تمهيدية وضرورية للتقرب إلى الله فى الدعاء. وتنهدت، وتأوهت، وزمجرت، ثم تنهدت تنهيدة خفيفة وبدأت فى دعائها:

‘‘يا إلهى، رجاء بارك أبى وأمى فى سنغافورة، والعمة ماتيلدا، والعم ستافى، وآمى، وكوك، وإلين، وتوماس، وجميع الكلاب، ومهرى جريزل، ومارجريت وديانا أفضل أصدقائى، وجوان آخر أصدقائى، واجعلنى فتاة صالحة وطيبة. آمين. ورجاء اجعل المربية لطيفة’’.

ثم نهضت سيبيل واقفة على قدميها، وتبادلت النظرات مع المربية بثقة من انتصر فى معركة وألقت تحية المساء ثم انصرفت.

قالت الليدى ماتيلدا: ‘‘من المؤكدأن هناك من حكى لها عن بينفو. بالمناسبة يا ستافى، من سيكون رفيقك فى الزفاف؟’’.

‘‘لقد نسيت هذا الأمر تماما ـــ هل علىَّ أن يكون لى رفيق؟’’.

‘‘هذا أمر معتاد’’.

حمل السير ستافورد نای دمية حيوان صغير مصنوعة من الفرو.

‘‘سيكون هذا الباندا هو رفيقى ـــ فقد أسعد سيبيل ـــ وأسعد مارى آن ـــ ولم لا؟ فالباندا معنا فى هذا الأمر من البداية ـــ منذ كنا فى فرانكفورت ...’’.

روايات أخرى

جريمة قتل فى المعبد

ماربل

أجاثا كريستى

قال رجل الدين ملوحا بسكين منقوش فوق مفصل لحم البقر المشوى: ‘‘إن من شأن من يقتل الكولونيل بروثيرو أن يسدى معروفًا للعالم كله’’.

كانت ملاحظة طائشة لرجل دين. وهى الملاحظة التى ستعود عليه بأسوأ نتيجة بعد ساعات قليلة من قوله إياها ـــ عندما يعثرون على الكولونيل مقتولا بالرصاص فى مكتب رجل الدين. لكن وكما تكتشف الآنسة ماربل سريعًا، فإن القرية بأكملها لديها دافع لقتل الكولونيل بروثيرو.

هذا أول سر يواجه الآنسة ماربل، وهو سر سيمثل تحديًا لجميع قدراتها على الملاحظة والاستدلال.

‘‘عندما تبدأ أجاثا كريستى فى الانطلاق، كما تفعل فى هذه الرواية، سيكون من الصعب على أحد تجاوزها’’.

نشرة السبت الأدبية.

روايات أخرى

القضية الغامضة فى مدينة ستايلز

قضية بوارو الأولى

أجاثا كريستى

هناك خطر يحيق بالمحقق الذى يقول: ‘‘إنه أمر تافه للغاية ــ لا يهم...’’. كل شىء يهم.

عندما عثروا على إيملى إنليثروب مقتولة، طلب الكابتن هاستينجز المساعدة من صديق قديم له: محقق بلجيكى أصابه السأم من التقاعد.

فنجان قهوة مكسور، بقعة من الشمع، سرير عليه أزهار استوائية ــ بوارو فقط من يستطيع حل هذه الجريمة المرتكبة بمهارة مستخدمًا هذه الخيوط القليلة والمثيرة للاهتمام.

‘‘رواية مكتوبة بمنتهى المهارة’’.

ملحق التايمز الأدبى

روايات أخرى

واختفى كل شىء

أجاثا كريستى

أكثر قصص الجريمة مبيعًا،

بيعَ منها أكثر من مائة مليون نسخة

" عشرة ..."

تم استدراج عشرة غرباء إلى فندق بجزيرة معزولة على شاطئ ديفون فى ظروف غامضة.

" تسعة ..."

على العشاء، وصلت رسالة مسجلة تتهم كلا منهم بأنه ارتكب جريمة لا يعرفها أحد، وفى نهاية الليلة توفى أحد الضيوف.

" ثمانية ..."

وبدءوا يموتون الواحد تلو الآخر، وقد حاصرتهم عاصفة عنيفة وراحت تطاردهم أغنية قديمة للأطفال تعد عدا تنازليًا.

" سبعة ..."

من منهم القاتل وهل سينجو أحد منهم؟

"واحدة من أفضل وأكثر قصص أجاثا كريستى إثارة".

مجلة أوبزرفر

"رائعة من روائع أجاثا كريستى"

سبيكتاتور

أجاثا كريستي Agatha Christie

راكب إلى فرانكفورت

انتظرت رحلة عودة ستانفورد ماي من اللاذقية عاديًا غير متوقع. عندما أسرت إليه امرأة شابة بأن شخصًا ما يحاول قتلها. وفي لحظة ضعف، وافق على أن يعطيها جواز سفره، وبشكل عفوي أقحم الدبلوماسي نفسه في قلب القصة. وعندما التقى بالسيدة الغامضة مرة أخرى، كانت قد تحولت إلى امرأة أخرى. ووجد نفسه يخطط لخروجه من مدوكة ضد عدو خفي ومن أكثر الأعداء خطورة...

«قصة ممتعة» مجلة آرجوسي

«لا تزال براعتها على نفس القدر» جريدة صنداي تايمز

الأصابع المتحركة
ليلة الشك
تجربة بوارو
القضية الغامضة في مستهل ستايلز
جثة في المكتبة
واختفى كل شيء
جريمة قتل في العمد
الموت على شاطئ النيل
من الذي قتل السيد روجر أكرويد؟
الموت في آخر النهاية
الوقت الماضي
الرجل ذو السترة البنية
جريمة في بغداد
جريمة على ظهر الباخرة
تجربة بارتر باين
لغز المستطيلات الثلاثة عشرة
السيد كوين الساحر
لغز الكاريبي
سر جريمة قتل بريدج
لغز كارلي على الجريمة
الشك الأسود
شاهد الإدعاء وقصص أخرى
راكب إلى فرانكفورت
موت الرجل الآلي
جريمة في قطار الشرق السريع

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
9 781012 002402
20220405